

International Islamic University
Islamabad – Pakistan
Faculty of Arabic Language
Department of Literature

الجامعة الإسلامية العالمية
إسلام آباد – باكستان
كلية اللغة العربية، قسم الدراسات الأدبية



من بلاغة النظم في حديث القرآن عن منكري دعوة سيدنا محمد ﷺ

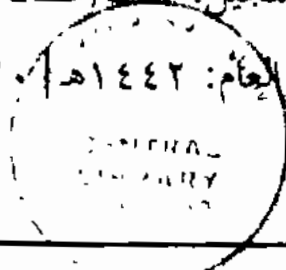
بحث مقدّم لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي

تحت إشراف: فضيلة الأستاذ الدكتور فضل الله (حفظه الله تعالى)
رئيس قسم الدراسات الأدبية

إعداد الطالبة: فريال عنبرين

رقم التسجيل: ١٤٣-FA/PHD/S

العام: ١٤٤٢هـ / ٢٠٢٠م



6995
K

Accession No 7123662

Ph.D

تلا و ۱۴۷۱

فارم

آداب عربیہ - ادب

عربیہ - ادب

حدیث القرآن

آداب عربیہ - حدیث القرآن

آداب عربیہ - حدیث القرآن



الإهداء

إلى أُمِّي الحنون حفظها الله ﷻ وروح أبي الودود رحمه الله تعالى.

إن قلت شكراً فشكري لن يوفِّيكُم، حقاً سعيتم السعي مشكوراً

إن جفَّ حبري عن التعبير يكتبكم قلب به صفاء الحب تعبيراً

إلى صاحب التميّز والأفكار النيرة، مبدع فكرة هذه الرسالة، أستاذي الفاضل الدكتور رفعت علي محمد سيد حفظه الله تعالى فأنت شجرة تنير دروب الحائرين، من فيض بحرك تعلمت معاني التضحية، والتفاني والإخلاص، تعجز الحروف أن تكتب ما يحمل قلبي من شكر وتقدير واحترام لكم.

إلى شريك العمر، باعث المهمة، شاذ الأزرق، زوجي الكريم راجا محمد فاضل خان حفظه الله تعالى الذي صبر صبراً جميلاً على إهمالي لواجباتي تجاهه، وتجاه بيتي، وكان عوناً لي في رعاية أولادي وتربيتهم وقت تعبني عن البيت.

إلى أولادي - قرة عيني - معاذ، دحية، يحيى ومريم فاطمة الذين تحملوا فراقني بصبرٍ وجلَدٍ ودعوا الله ﷻ لي رافعين أياديهم الصغيرة لإتمام رسالتي.

إلى كل من قدم ما في وسعه لرعاية أولادي وبيتي حين دراستي وخاصة تكملة هذا البحث.

إليهم جميعاً أهدي باكورة عملي هذا البحث المتواضع.

كلمة الشكر والتقدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي ﷺ الذي لا نبي بعده، أولاً أشكر ربي شكراً خالصاً لا حدود له، وأسجد له عرفاناً بكرمه على إنجاز هذا البحث، فله الحمد كله وله الشكر كله.

وأحرص على أن أسجل الشكر الجزيل لكل من أسهم في إعداد هذا البحث من السادة أساتذة كلية اللغة العربية وعلى رأسهم الأستاذ المكرم الدكتور فضل الله حفظه الله تعالى، المشرف على بحثي هذا، الذي تعب معي في تصحيح ومراجعة البحث واصطبر على أخطائي وشجعي حتى انتهيت من كتابته على الرغم من الظروف المعقدة التي كدت سببها أن أتركه في الوسط؛ لأنني قد عانيت من أصعب الأوقات في حياتي أثناء كتابة هذا البحث؛ فلا أملك له إلا دعوات مخلصات إلى السميع العليم أن يجزيه أحسن الجزاء في الدارين، ويجعل ما بذله من جهد تجاه هذا البحث في ميزان حسناته، وبارك في عمره وعلمه.

ولا أنسى تقديم الشكر والتقدير إلى الدكتور سهيل حسن حفظه الله تعالى (المدير العام لأكاديمية الدعوة، السابق) الذي لم يمنحني الرعاية الخاصة في الأمور الإدارية فحسب بل ساعدني بتوجيهاته السديدة والقيمة، فأدعو له من أعماق قلبي.

وأقدم باشكر إلى الدكتور أنوار حسين صديقي (رئيس الجامعة الإسلامية العالمية، السابق) الذي شجّعني تشجيعاً صادقاً على مواصلة الدراسة العليا، والذي سهّل لي الصعوبات التي واجهتها في الحصول على الإجازة الدراسية، فجزاه الله خيراً كثيراً في الدارين.

كما أتوجه بخالص الشكر والتقدير إلى فضيلة الأستاذة الدكتورة زيتون بيجم التي حثتني على طلب العلم وساعدتني منذ أول يوم جمعت إلى كلية اللغة العربية، فجزاه الله تعالى أحسن الجزاء في الدنيا والآخرة.

ولا يفوتي أن أقدم شكري وتقديري لعميد كلية اللغة العربية الدكتور الحافظ محمد بشير
حفظه الله تعالى الذي مهد لي كافة التسهيلات اللازمة وأفادني بالكثير من كرمه ولطفه في الصعوبات
الإدارية؛ وقد تعلمت منه الرفق والحلم؛ فجزاه الله عز وجل خير الجزاء في الدارين.

وأريد أن أقرّ بجميل الشكر للأستاذ السيد شكيل شاه (مدير قسم المعلومات
التكنولوجيا)، والأستاذ الفاضل الدكتور ساجد مرزا والأستاذ الفاضل رؤوف أحمد مستولي مكتبة
الدكتور حميد الله، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد الذين ساعدوني في إحراج هذا البحث
بصورة مقبولة، وسهّلوا لي الصعوبات التي واجهتها خلال تعاملتي مع الحاسوب الآلي؛ فأدعو لهم
من أعماق قلبي

وأخيراً أرى من الواجب أن أقدم الشكر والدعاء لكل من ساعدني، ومدّ إلي يد العون في
إنجاز هذا البحث؛ وأخص منهم بتكريمي الأخت العزيزة الأستاذة الفاضلة ساجدة محمد حميل
مديرة دار ميرة لتحفيظ القرآن الكريم وعلومه، قسم السات، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام
آباد، وصديقتي الحبيبة الدكتورة صفري خام فجراهم الله جميعاً خير الحراء في الدارين، وأسأل الله
عز وجل أن يجعل هذا العمل المتواضع خالصاً لوجهه الكريم.

فريال عبرين



المقدمة

- أهمية الموضوع
- الدراسات السابقة
- أهم أسباب اختيار الموضوع
- أسئلة البحث
- الصعوبات والعقبات
- منهج البحث وحدوده
- خطة البحث



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وبعد:

فإن بلاغة النظم القرآني من أشرف الموضوعات التي تدرس، والدعوة إلى الله ﷻ من أجل الأفعال، وأعظم الأعمال التي يؤديها المسلم في دنياه، ويحتسبها لأخراه، ويضعها في ميزان حسناته.

أهمية الموضوع:

المراد بالدعوة هو الدعوة إلى الله ﷻ كما قال تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^١، والمقصود بالدعوة إلى الله ﷻ: الدعوة إلى دينه، وهو الإسلام كما ذكر في القرآن الكريم ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^٢، الذي جاء به سيدنا محمد من ربه؛ فالإسلام هو موضوع الدعوة وحقيقتها، وهذا هو الأصل الأول للدعوة، والداعي هو الأصل الثاني، والمدعو هو الأصل الثالث و الوسائل والأساليب والمناهج الدعوية تعد الأصل الرابع^٣.

قال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا لِمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^٤ وأشار إلى وظيفة نبينا محمد ﷺ في سورة الأحزاب قائلاً ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾^٥، فمقام الدعوة في الإسلام عظيم، بل هي السبب الأساسي في انتشار الإسلام وقيامه، وقد قام نبينا محمد ﷺ بالدعوة إلى عبادة الله ﷻ وحده وطاعته طول حياته ليظهر هذا الدين على الدين كله ولو كره

١ يوسف ١٠٨.

٢ آل عمران: ١٩.

٣ يطر عبد الكريم ريدان، أصول الدعوة، مؤسسة الرسالة، ط ٩، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م ص ٥

٤ فصلت ٣٣

٥ الأحزاب ٤٥-٤٦

الكافرون، واختار الله عز وجل الأمة المسلمة واجتباها من بين سائر الأمم، وكرّمها وشرفها بهذا الدين والدعوة إليه، فالدعوة إلى الله ﷻ واحدة على كل مسلم حسب قدرته وعلمه، والدعوة إلى الله ﷻ مسؤولية الأمة، وحاحتها كما جاء في الآية المذكورة سابقاً ﴿وَمَنْ اتَّبَعِي﴾ وكذلك قال الله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^١.

والناظر في تاريخ الدعوات النبوية يجد أنه كلما جاء الأنبياء والرسل بالدعوة إلى الله ﷻ انقسم المدعوون إلى فئتين كبيرتين: فئة تؤمن بدعوتهم، وفئة أخرى تنكر ولا تؤمن، وتشابه مواقف منكري الدعوة في كل عصر، كما تشابه أسباب إنكارهم على العموم، حتى في عصرنا الحاضر نرى ثلاثة فئات منكري دعوة سيدنا محمد ﷺ وهي فئة الكفار والمشركين، وأهل الكتاب والمنافقين.

ومعرفة مواقف منكري الدعوة والدعاة من خلال القرآن الكريم ضرورة ومهمة للداعية في كل عصر، لأن القرآن الكريم يبيّن أحوال ومواقف منكري الدعوة في صورة واضحة بليغة كأنك تراهم بأعينك يتحدثون دعوة الحق، ودراسة النظم البلاغي في حديث القرآن عن منكري الدعوة تعطي الداعية فهماً عميقاً لمواقفهم لكي يتعامل معهم بأسلوب يليق بهم، والنظم القرآني هو سرّ إعجاز القرآن الكريم^٢ وفكرة الإعجاز القرآني قد شغلت كثيراً من علماء السلف، وألفت بسببها كثير من المؤلفات التي كانت تدور حول التساؤل عن مَكْمَن الإعجاز في القرآن الكريم. والحق أن المعجزة القرآنية شأنها شأن أي معجزة أخرى أُتيت بها رسول قبل سيدنا محمد ﷺ، وكل معجزة سابقة كانت من جنس ما نبغ فيه قوم هذا الرسول، إذن من الطبيعي أن تكون معجزة نبيّنا محمد ﷺ من جنس ما نبغ فيه قومه، وكانت

١ آل عمران: ١١٠

٢ ينظر مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الراعي (المتوفى: ١٣٥٦هـ)، إعجاز

القرآن والملاحة السوية، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ٨، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م، ص ١٤٥

معجزة الخالدة هي القرآن العظيم؛ فلاند أن يكون وجه إعجاز القرآن الكريم متعلقاً بالناحية التي نبغ فيها العرب - وهي الفصاحة والبلاغة - لكي يعاجزهم ويتحداهم في هذا اللون الذي نبغوا فيه.

وفي عصرنا الحاضر قد تذكر مصطلحات متعددة في وجوه إعجاز القرآن الكريم نحو مصطلح الإعجاز العلمي، والإعجاز الطبي، والإعجاز العددي لكنّها براهين على صدق القرآن الكريم، والوجه الأساسي لإعجاز القرآن الكريم البلاغة التي كانت فخر العرب ومناط اعتزازهم وشهرتهم. قد يتساءل ما المراد بـ بلاغة القرآن؟ فيجيب الدكتور الراجحي قائلاً: "كأن البلاغة في القرآن الكريم إنما هي وجه من نظم حروفه؛ فالحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه، لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة، وهذا هو السرّ في إعجاز جملته إعجازاً أبدياً، فهو أمر فوق الطبيعة الإنسانية".^١

وفذلكة الكلام أن ترتيب ألفاظ القرآن أي النظم هو مناط التحدي والإعجاز؛ فلابد أن يُدرس النظم القرآني وهذه الحقيقة أدت بي إلى جمع الآيات التي تتحدث عن منكري دعوة سيدنا محمد ﷺ ودراسة نظمها البلاغي التي سوف تساعدني في فهم هذه الطائفة من الآيات فهماً عميقاً، وفي ضوء هذه الآيات سوف يمكن للداعية أن يقارن بين منكري دعوة سيدنا محمد ﷺ ومنكري الدعوة في عصرنا الحاضر، ويعرف ما المواقف والأساليب التي سيواجهها في رد الدعوة، وكيف يتعامل مع منكري الدعوة بالحكمة، فلذلك اخترت عنوان البحث للحصول على درجة الدكتوراه:

من بلاغة النظم في حديث القرآن عن منكري دعوة سيدنا محمد ﷺ

وأعرف أن عملية رصد النكت البلاغية، واللطائف الجمالية، وأهم روائع النظم البياني المعحر الواردة في القرآن الكريم عملية صعبة وشاقة، لا يمكن الإيفاء بها في بحث متواضع مثل

هذا، ولكن أرحو أن أعيش مع القرآن بفضل هذه الدراسة وأنهل من معينه، وأفهم أسراره البلاغية، وأسأل الله ﷻ العون والتوفيق، وحسن القصد.

الدراسات السابقة:

يوحد عدد من الدراسات في موضوعات بلاغة النظم القرآني والدعوة حيث تناول بعض الباحثين الأسرار البلاغية في الآيات عن منكري الدعوة كجزء من دراستهم القرآنية البلاغية إلا أنهم لم يتناولوها كموضوع مستقل - على حد علمي - في أي رسالة جامعية، ومن هذه الدراسات السابقة أذكر هنا:

✓ سورة هود- دراسة لخصائص نظمها وأسرارها البلاغية، رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى، للباحث دحيل الله بن محمد الصحفي، بإشراف الأستاذ الدكتور عبد العظيم إبراهيم المطعني رحمه الله. ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

✓ آيات الدعوة إلى الله ﷻ في سورة الأعراف- دراسة بلاغية تحليلية، رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، للباحث علي بن سليمان. ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

✓ إعجاز النظم القرآني في آيات التشريع: النظرية والتطبيق- دراسة دلالية، رسالة ماجستير للباحثة روضة عبد الكريم فرعون، كلية الشريعة- الجامعة الأردنية/ ٢٠٠٢م.

✓ النظم في القرآن: سورة طه نموذجاً، رسالة ماجستير للباحثين قراش نجيمة وكروكور زوبيدة بإشراف الأستاذ: زيان محمد- بكلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة (بجاية)، الجزائر ٢٠١٥م.

حاولت الحصول على النسخ الكاملة من هذه الدراسات ولكن أمكنني العثور على ملخصات موجزة لهذه الدراسات فقط.

ولاحظت أولاً: أن الباحثين حدّدوا رسائلهم في سورة معينة وآيات التشريع فحسب، وثانياً دراستهم تناولت إعجاز النظم القرآني في آيات التشريع ومنكري الدعوة بشكل عام دون التركيز على منكري دعوة سيدنا محمد ﷺ . أما دراستي فهي محاولة متواضعة لدراسة النظم البلاغي لحديث القرآن الكريم كله مع التركيز على منكري دعوة سيدنا محمد ﷺ، وهذا الجانب لم يدرس - في حد علمي - فقامت بالدراسة حسب استطاعتي.

أهم أسباب اختيار الموضوع:

- (أ) الحاجة إلى التعامل الحكيم مع منكري الدعوة في العصر الحالي، فلذلك أرى أن هناك حاجة ماسة لمعرفة الأساليب المناسبة لذلك، وأسباب إنكارهم للدعوة، وكذا أساليب تعاملهم مع الدعاة في العصور السابقة.
- (ب) وعدم وجود دراسة بلاغية مستقلة في النظم البلاغي في حديث القرآن الكريم عن منكري الدعوة في حد علمي، ولهذا أرجو أن تكون دراستي لهذا الموضوع إضافة جديدة إلى مكتبة الدراسات البلاغية والدعوية.

أسئلة البحث:

- ١- ما الألوان البلاغية التي وظفها القرآن الكريم في حديثه عن منكري دعوة سيدنا محمد ﷺ؟
- ٢- وما الأسرار البلاغية وراء المفردات والتراكيب، والجمل المستخدمة في هذه الطائفة من الآيات القرآنية؟
- ٣- هل توجد فروق أسلوبية بين الآيات المتعلقة بالمشركين، وأهل الكتاب والمنافقين؟ وكيف خاطب القرآن الكريم منكري دعوة سيدنا محمد ﷺ؟

الصعوبات والعقبات:

قد واجهتني صعوبات والعقبات ضخمة أثناء كتابة البحث، لأن:

- ١- الموضوع ضخم ويصعب على الباحثة الإحاطة به.
- ٢- الموضوع له علاقة بعلم البلاغة- الذي يعد ذروة العلوم- ولا يمكن أداء حقه إلا بالنظر المتأنية إليها.
- ٣- استخراج الألوان البلاغية والأسرار وراء المفردات، والتراكيب والجمل القرآنية أمر في غاية الصعوبة، ويحتاج إلى تأمل وتأني وإطالة التفكير، وكل هذا يحتاج إلى جهود مضنية ووقفة تدريبية طويلة أمام المصوص.
- ٤- وأعترف أنني لم أتمكن من النجاح في إتاحة الوقت الكافي لدراستي بسبب مشكلة الصحة ومسؤولياتي في منزلي وفي مكنتي على الرغم من رغبتني القوية بدراسة القرآن الكريم، ورجائي أن أعيش في ظلال القرآن الكريم عيشة طيبة.

منهج البحث وحدوده:

اتبعت في بحثي هذا المنهج التحليلي، ويتم هذا خلال ذكر الآية وبيان إيماءات المفردات والجمل وتحليلها تحليلًا بلاغيًا والقاء الضوء على الملامح الهامة للآية المدروسة. "ويعد هذا المنهج أنضج مناهج التأليف البلاغي وأكثرها اكتمالاً، وفي إطار هذا المنهج يتم الامتزاج بين القاعدة والتذوق الفني، وتحدث المزاوجة بين النظرية والتطبيق، والص هو مصدر القاعدة و منبع النظرية، والقاعدة في خدمة الص وإضاءة جوانبه إضاءة فية".^١

وهذا البحث محاولة الدراسة الإحصائية للآيات المكية والمدنية التي تتحدث عن الأحوال الفكرية والعملية لمنكري دعوة سيدنا محمد ﷺ وجرائهم في الدنيا والآخرة، وبعد التقسيم الموضوعي لهذه الآيات اخترت منها ٦٣ آية لدراسة المظم البلاغي.

١ الدكتور علي عشري رايد، البلاغة العربية تاريخها- مصادرها ومناهجها، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٨٧

والتزمت في هذا البحث بالآتي:

- ١ اختيار الآية التي كثرت فيها الألوان البلاغية، وكتابتها بخط أكبر، ومبرّز.
- ٢ نسبة الأقوال إلى مصادرها الأصلية قدر المستطاع، وما نقلت بنصه أضعه بين علامة التنصيص (" ")، وإذا نقلت معنى من كتاب أو تصرفت فيه أشرت إليه في الهامش بكلمة (ينظر) ثم ذكرت المرجع الذي استفدت منه.
- ٣ مراجعة المصادر الأصلية ومحاولة الوصول قدر الاستطاعة إلى المراجع المختلفة، حسب طبيعة البحث.
- ٤ محاولة تعريف المصطلحات البلاغية الواردة أول مرة في البحث.
- ٥ التركيز على النكت البلاغية والاختصار في التفسير.
- ٦ تحريج الآيات والأحاديث النبوية من المصادر المتعلقة بما قدر الاستطاعة.
- ٧ ذكر تفاصيل المصادر والمراجع عند ورودها لأول مرة في الهامش والاكتفاء بذكر عنوان الكتاب، وبيان الجزء والصفحة عند التكرار نحو: اسم الكتاب: ج/ص
- ٨ اختيار منهج معين في الهوامش وقائمة المصادر والمراجع وهو تقديم المؤلف وبعده الكتاب ثم المحقق ثم تفاصيل الطبع - إذا كان - أخيراً تفاصيل الجزء والصفحة.
- ٩ الاعتماد على كتب التفسير التي تهتم بالجانب البلاغي أكثر كتفسير الزمخشري والتفسير الكبير، والبحر المحیط، وتفسير أبي السعود، والتحرير والتنوير، وغيرها.
- ١٠ قمت بإعداد فهارس كل من الآيات القرآنية المدروسة، والأحاديث النبوية، والمصادر والمراجع، ومحتويات البحث مراعيةً في ذلك الترتيب الأبجدي.
- ١١ استخدمت الرموز في بعض الكلمات التي تذكر مراراً وتكراراً في البحث تحسباً من الإطالة المملة، وهذه الرموز كالآتي:

الرمز	الكلمة	الرمز	الكلمة
{{ }}	المعكوفان	﴿ ﴾	المرحرفان
ص	رقم الصفحة	/	قبله ذكر رقم جزء الكتاب وبعده رقم صفحة الكتاب
" "	للتص المنقول أو لتمييز الكلمة في بعض الأحيان	ط	الطبعة
م	الميلادي	هـ	الهجري
ح	حديث	ت	المتوفى

خطة البحث:

أما خطة البحث فهي على النحو الآتي:

المقدمة:

وفيها الحديث عن النقاط التالية:

- (أ) أهمية الموضوع
- (ب) أهم أسباب اختيار الموضوع
- (ت) الدراسات السابقة
- (ث) أسئلة البحث
- (ج) منهج البحث وحدوده
- (ح) خطة البحث

التمهيد:

فكرة بلاغة النظم القرآني

الباب الأول: من بلاغة النظم في حديث القرآن عن إنكار الكفار والمشركين وجزائهم

﴿ ط ﴾

الفصل الأول: من بلاغة النظم في حديث القرآن عن إنكار الكفار والمشركين

المبحث الأول: من بلاغة النظم القرآني في بيان أحوال الكفار والمشركين الفكرية المتعلقة بإنكارهم الدعوة

المبحث الثاني: من بلاغة النظم القرآني في بيان أحوال الكفار والمشركين العملية المتعلقة بإنكارهم الدعوة

الفصل الثاني: من بلاغة النظم في حديث القرآن عن حراء الكفار والمشركين

المبحث الأول: من بلاغة النظم القرآني في بيان حراء الكفار والمشركين في الدنيا

المبحث الثاني: من بلاغة النظم القرآني في بيان حراء الكفار والمشركين في الآخرة

الباب الثاني: من بلاغة النظم في حديث القرآن عن إنكار أهل الكتاب وحزائهم

الفصل الأول: من بلاغة النظم في حديث القرآن عن إنكار أهل الكتاب

المبحث الأول: من بلاغة النظم القرآني في بيان أحوال أهل الكتاب الفكرية المتعلقة بإنكارهم الدعوة

المبحث الثاني: من بلاغة النظم القرآني في بيان أحوال أهل الكتاب العملية المتعلقة بإنكارهم الدعوة

الفصل الثاني: من بلاغة النظم في حديث القرآن عن حراء أهل الكتاب

المبحث الأول: من بلاغة النظم القرآني في بيان حراء أهل الكتاب في الدنيا

المبحث الثاني: من بلاغة النظم القرآني في بيان حراء أهل الكتاب في الآخرة

الباب الثالث: من بلاغة النظم في حديث القرآن عن إنكار المنافقين وحزائهم

الفصل الأول: من بلاغة النظم في حديث القرآن عن إنكار المنافقين

المبحث الأول: من بلاغة النظم القرآني في بيان أحوال المنافقين الفكرية المتعلقة
بإنكارهم الدعوة

المبحث الثاني: من بلاغة النظم القرآني في بيان أحوال المنافقين العملية المتعلقة
بإنكارهم الدعوة

الفصل الثاني: من بلاغة النظم في حديث القرآن عن جزاء المنافقين

المبحث الأول: من بلاغة النظم القرآني في بيان جزاء المنافقين في الدنيا

المبحث الثاني: من بلاغة النظم القرآني في بيان جزاء المنافقين في الآخرة

الخاتمة

الفهارس

- فهرس الآيات القرآنية المدروسة
- فهرس الأحاديث الشريفة
- فهرس المصادر والمراجع
- فهرس المحتويات

أخيراً أتوجه إلى الله ﷻ بهذا الدعاء فأقول:

اللهم إني أعوذ بك أن أقول حول كلامك الكريم كلمة لا ترضاها، وأسئلك يا الله
يارحم أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وذهاب همي وغمي، وأسعدني بخدمة خاشعة
لهذا القرآن الكريم، آمين يارب العالمين.

فريال عنبرين

إسلام آباد

واحد من محرم الحرام ١٤٤٢ هـ

عشرين من أغسطس ٢٠٢٠ م



التمهيد:

فكرة بلاغة النظم القرآني



كلمة "بلاغة" من بلغ ومعناه اللغوي "الوصول إلى الشيء، والبلغ الفصيح الذي يبلغ بعبارة كنه ضميره، ونهاية مراده"^١، "والبلاغة في الكلام مطابقتها لمقتضى الحال. والمراد بالحال: الأمر الداعي إلى التكلم على وجه مخصوص مع فصاحته، أي فصاحة الكلام"^٢، "والنظم لغة هو التأليف، وضم الشيء إلى شيء آخر"^٣، وقال الجرجاني في كتابه التعريفات "النظم في اللغة جمع اللؤلؤ في السلك، وفي الاصطلاح: تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل، وقيل: الألفاظ المترتبة المسوقة المعتبرة دلالاتها على ما يقتضيه العقل"^٤.

إن النظم القرآني من أعظم وأهم وجوه إعجاز القرآن الكريم، والمراد بإعجاز القرآن الكريم هو عجز العباد أن يأتوا بمثله، ومن المعلوم أن العرب كان البيان بضاعتهم الأولى والبلاغة طبيعتهم القوية، مع ذلك عجزوا أن يأتوا بمثل القرآن الكريم. وقد كان لقضية إعجاز القرآن أثر كبير في توضيح فكرة النظم، وإنَّ ما وصلنا من كلام يتصل بإعجاز القرآن يرجع إلى القرن الثالث الهجري، إذ ذهب إبراهيم النظام (ت: ٢٣١هـ) "إلى أنَّ القرآن معجز

١ محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسبي، أبو العيص، للملَّك عمر بن عبد العزيز، (ت: ١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية، ٢٢/ ٤٤٧، ٤٥٠.

٢ علي بن محمد بن علي الريس الشريف الجرجاني (ت: ٨١٦هـ)، كتاب التعريفات، المحقق: صطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص ٤٦.

٣ تاج العروس: ٣٣/ ٤٩٦.

٤ كتاب التعريفات ص ٢٤٢.

٥ هو شيخ المعتزلة صاحب التصانيف أبو إسحاق إبراهيم بن سيار مولى آل الحارث بن عباد الضبيعي البصري المتكلم. تكلم في القدر وانفرد بمسائل، وهو شيخ الجاحظ. (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، دار الحديث - القاهرة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).

بالصرف، أي أنّ الله ﷻ صرف العرب عن معارضة القرآن، مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقاً للعادة^١.

وقد أُلّف في قضية إعجاز القرآن - قبل عبد القاهر الجرجاني - كثير من العلماء، لعلّ أشهرهم: الرماني (ت: ٣٨٦هـ) في "النكت في إعجاز القرآن"، والخطّابي (ت: ٣٨٨هـ) في "بيان إعجاز

القرآن"، والباقلاني (ت: ٤٠٣هـ) في "إعجاز القرآن"، ثمّ تتابعت المؤلفات في هذا الباب^٢.

نجد البذور الأولى لفكرة النظم البلاغي عند الجاحظ كما قال دكتور فضل عباس: "يذكر أن الجاحظ قد أُلّف كتاباً في نظم القرآن (اسم الكتاب غير معلوم لأنها ضاعت)، وهو يرى أن القرآن الكريم بليغ من حيث ألفاظه المختارة المنتقاه، ومن حيث نظمه ورصفه، التي تقوم على إبداع في الإيجاز والتشبيه والمجاز"^٣.

يعدّ عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) مؤسس البلاغة العربية، ونظريته "النظم" تعد أهم نظرية في الدرس البلاغي. والنظم عنده "ليس إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه

١ ينظر: علي بن إسماعيل الأشعري أبو الحسن (ت: ٣٢٤هـ)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: هلموت ريتز، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ٣، ص ٢٣٩

٢ ينظر دكتور فصل حسن عباس، إعجاز القرآن الكريم، ربيع الأول ١٤١٢هـ، ص ٤٢، ٤٦، ٥٢ (بيانات مفعودة)

٣ المرجع نفسه. ص ٤٠

"علم النحو" وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي تُهجّت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها".^١

وفي شرح نظرية النظم عند عبدالقاهر الجرجاني يقول الدكتور فضل حسن عباس: "يرى عبدالقاهر: إن النظم هو تَوْجِيح معاني النحو، وبيان ذلك: أننا حينما ننطق بالكلمات والجمل، فلا بد من أن تكون مرتبة ترتيباً مقبولاً معقولاً. اللبنة الأولى في النظم هي أن يكون موافقاً لقواعد النحو، أما اللبنة الثانية وهي الأهم من سابقتها، فهي أن يكون هذا النظم دقيقاً، بحيث ترتب المعاني التي تريدها في نفسك أولاً، ثم تختار لها بعد ذلك الألفاظ التي تتفق مع هذه المعاني، وهذا ملحق دقيق يحتاج منك إلى حضور نفس، وحضور فكر، وجدية وبقظة، وهكذا ندرك مما تقدم أن النظم لا بد له من عمليتين اثنتين:

أولاً: ترتيب المعاني في النفس

ثانياً: ترتيب الألفاظ في النطق

هذا هو النظم الذي عناه عبدالقاهر الجرجاني ترتيب الألفاظ في النطق حسب ترتيب المعاني في النفس".^٢

دفعني رغبتني القوية في معرفة النظم القرآني وأسرار المفردات والتراكيب القرآنية أن اختار موضوع رسالتي في الدكتوراه مرتبطاً بها، وفضلت أن أركز على حديث القرآن الكريم عن منكري دعوة سيدنا محمد ﷺ، وقسمتهم إلى ثلاث فئات، وهي:

١. الكفار والمشركين (والمراد بهذه الفئة منكري الدعوة في مكة)

٢. أهل الكتاب (اليهود والنصارى)

٣. المسافقين

١ الإمام عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه أبو ماهر محمد محمود شاكر، شركة القدس للنشر

والتوزيع، مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة، ط ١٤١٣هـ، ٣-١٩٩٢م، ص ٨١

٢ إعجاز القرآن الكريم. ص ٦٩ - ٧٢

أردت أن أقوم بجمع الآيات عنها ثم قسمت هذه الآيات تقسيماً موضوعياً نحو الأحوال الفكرية والعملية- المتعلقة بإنكار دعوة سيدنا محمد ﷺ- لهذه الفئات الثلاثة وجزائهم في الدنيا والآخرة، ثم حاولت أن أدرس هذه الآيات دراسة بلاغية باحثة عن الألوان البلاغية الواردة في الآيات المختارة والأسرار البلاغية وراء المفردات والتراكيب والجمل القرآنية، في هذا البحث المتواضع.



الباب الأول:

من بلاغة النظم في حديث القرآن عن إنكار الكفار والمشركين وجرائهم

يشتمل هذا الباب على فصلين:

الفصل الأول:

من بلاغة النظم في حديث القرآن عن إنكار الكفار والمشركين

الفصل الثاني:

من بلاغة النظم في حديث القرآن عن جزاء الكفار والمشركين





الفصل الأول:

من بلاغة النظم في حديث القرآن عن إنكار الكفار والمشركين

يتكون هذا الفصل من مبحثين:

المبحث الأول:

من بلاغة النظم القرآني في بيان أحوال الكفار

والمشركين الفكرية المتعلقة بإنكارهم الدعوة

المبحث الثاني:

من بلاغة النظم القرآني في بيان أحوال الكفار

والمشركين العملية المتعلقة بإنكارهم الدعوة





المبحث الأول:

من بلاغة النظم القرآني في بيان

أحوال الكفار والمشركين الفكرية المتعلقة بإنكارهم الدعوة



المدخل:

كثيراً ما يرى قارئ القرآن أن النبي ﷺ عندما دعا المشركين إلى الله ﷻ أنكروا دعوته إنكاراً شديداً ولم يؤمنوا به، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى صدهم الآخرين أيضاً وذلك بأقوالهم وأفعالهم إجباراً واستخداماً لكل أنواع القوة التي تحقق هدفهم. والسبب الرئيسي وراء سلوكهم هذا في إنكار الدعوة هو الحالة الفكرية العصبية التي جعلتهم ينكرون قبول هذه الدعوة للدين الجديد.

ويمكن تقسيم حالتهم الفكرية حسب الترتيب الآتي:

- فقدان الوعي والعقل
 - عدم معرفة الحق
 - الشك والمرية
 - اتباع الظن
 - النفور
 - الخوف على المعاش
 - التخطيط في الظلام
- واليكم الآن تفاصيل هذه الأقسام.

أولاً: فقدان الوعي والعقل

قد يجعل القرآن الكريم حرمان الكفار والمشركين من الوعي والعقل من أهم حالتهم الفكرية لأنهم لا يعلمون ولا يعرفون الحق بسبب عدم الوعي والعقل. ومن المعلوم أن العقل قوة إدراكية وحاجة عليا إلى المعرفة وسبب امتياز الإنسان وتفضيله على غيره من المخلوقات، كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^١.

يُجْتَهِدُ الْإِنْسَانُ بِعَقْلِهِ فِي أُمُورِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَيَدْرِكُ بِهِ التَّكَالِيفَ الشَّرْعِيَّةَ؛ فَلَا غِنَى لَهُ عَنِ الْعَقْلِ؛ فَلِذَلِكَ عَدَمُ اسْتِخْدَامِ الْعَقْلِ يُجْعَلُ الْإِنْسَانُ مِثْلَ الْحَيَوَانِ، وَالْإِنْسَانُ عِنْدَمَا لَا يَنْتَفِعُ بِخَوَاسِمِهِ لِلْوَعْيِ وَلَا يَسْتَخْدِمُ عَقْلَهُ يَصِيرُ كَالْأَنْعَامِ كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^١، وَأَشَارَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَى حَالَةِ عَدَمِ الْوَعْيِ وَالْعَقْلِ لِلْكَافِرِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^٢

هَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى حَالَةِ الْكَافِرِ وَالْمُشْرِكِينَ الْفَكْرِيَّةِ وَهِيَ عَدَمُ الْإِنْتِفَاعِ بِخَوَاسِمِهِمْ. وَالْخَوَاسِمُ هِيَ أَبْوَابُ الْمَعْرِفَةِ وَالْإِدْرَاكِ؛ وَتَرْسُمُ هَذِهِ الْآيَةُ صُورَةَ الْبَهَائِمِ الَّتِي لَا تَفْقَهُ مَا يُقَالُ لَهَا، بَلْ إِذَا صَاحَ بِهَا رَاعِيهَا سَمِعَتْ مَجْرَدَ صَوْتٍ دُونَ أَنْ تَفْقَهُ مَرَادَهُ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ مِنَ هَذِهِ الْبَهَائِمِ^٣، فَالْبَهِيمَةُ تَسْمَعُ وَتَصْبِيحُ وَتَرَى، وَهِيَ صُمٌّ بِكُمْ عُمِيٌّ رَغْمَ أَنْ لَهُمْ آذَانًا وَعْيُونًا - مَا دَامُوا لَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا وَلَا يَهْتَدُونَ - فَكَأَنَّمَا لَا تُؤَدِّي وَظِيفَتَهَا الَّتِي خَلَقْتَ لَهَا، وَكَأَنَّهُمْ لَمْ تَوْهَبْ لَهُمْ آدَانَ وَالسَّنَةَ وَأَعْيْنَ. وَهَذِهِ مَتْنُهُ الزَّرَايَةُ مِمَّنْ يَعْطِلُ تَفَكُّيرَهُ وَيَغْلِقُ مَنَافِذَ الْوَعْيِ وَالْعَقْلِ^٤. وَالْآنَ نَسْتَخْرِجُ الْأَلْوَانَ الْبَلَاغِيَّةَ مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

من بلاغة النظم القرآني:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ذَكَرَ ابْنُ عَاشُورٍ سَبَبَ الْوَصْلِ هُنَا وَالْفَصْلُ فِي قَوْلِهِ ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾^٥ قَائِلًا "وَأَمَّا عَطْفُهُ بِالْوَاوِ هُنَا وَلَمْ يَفْصِلْهُ كَمَا فَصَلَ قَوْلُهُ ﴿مَثَلُهُمْ

١ العرقان ٤٤

٢ البقرة. ١٧١

٣ ينظر: الأعراف. ١٧٩، العرقان: ٤٤

٤ ينظر: الشيخ الشهيد / سيد قطب إبراهيم، في طلال القرآن، دار الشروق. القاهرة، (ب-ط) (ب-ت)،

١ | ١٥٥-١٥٦، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (للتوقي: ٩٨٢هـ)، تفسير أبي السعود -

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي - بيروت: ١ | ١٩٠

٥ البقرة: ١٧

كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا^١ لأنه أريد هنا جعل هذه صفة مستقلة لهم في تلقي دعوة الإسلام ولو لم يعطفه لما صح ذلك.^٢ وقد اتفق المفسرون على الحذف والتقدير في هذه الآية^٣ ويكفي أن ينقل رأي صاحب الكشف هنا وهو يرى بأن "لا بدّ من مضاف محذوف تقديره : ومثل داعي الذين كفروا ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ ﴾ أو : ومثل الذين كفروا كبهائم الذي يعق"^٤، وذكر ابن القيم أن معنى الآية "ومثلك يا محمد ﷺ ومثل الذين كفروا كمثلك الناقع والمسوق به) وعلى قوله فيكون المعنى ومثل الذين كفروا وداعيهم كمثلك العنم والناقص بها"^٥.

ومن الألوان البلاغية هنا إيجاز بالحذف على طريقة الاحتباك^٥، حيث حذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، وحذف من الثاني ما أثبت نظيره في الأول، والتقدير: ومثل

- ١ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، التحرير والتوير «تغير المعنى السديد وتوير العقل الحديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤ هـ، ٢ | ١١١
- ٢ ينظر: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بمعمر الدين الرازي حطيط الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، معاني العيب - التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ٣ - ١٤٢٠ هـ: ٥ | ١٨٩، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الحرشي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) الجامع لأحكام القرآن - تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوي وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤: ٢ | ٢١٤، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة: ٢ | ٢٣٢، تفسير أبو السعود: ١ | ١٩٠
- ٣ أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الرمحشري حار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الكشف عن حقائق عوامص التنزيل، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ٣، ١٤٠٧ هـ: ١ | ١٥٤
- ٤ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الأمثال في القرآن، المحقق: أبو حديفة إبراهيم بن محمد، مكتبة الصحابة - مصر - ططا - بحوار محطة القطر - حلب المعهد الأهرري شارع الحسبة العربي، ط ١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، ص ٤٩، ٥٠
- ٥ الاحتباك: "أحد أقسام الحذف وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، وفي الثاني ما أثبت نظيره في الأول" دكتور أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، الدار العربية للموسوعات بيروت لبنان، ط ١، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م، ١ | ٥٥-٥٦

الأنبياء والكفار كمثّل الذي ينقّ والذي يُنقّ به؛ فحذف من الأوّل الأنبياء؛ لدلالة الذي ينقّ عليه، وحذف من الثاني الذي يُنقّ به؛ لدلالة الذين كفروا عليه^١.

وفي ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي﴾ تشبيه التمثيل^٢، كما قال صاحب روح المعاني "هذا تمثيلهم في اتباع آبائهم على ظاهر حالهم جاهلين بحقيقتها بالبهائم التي تسمع الصوت ولا تفهم ما نخته، أو تمثيلهم في دعائهم الأصنام بالناعق في نعقه وهذا يغني عن الإضرار^٣ لكن لا يساعده قوله تعالى ﴿إِلَّا دُعَاءٌ وَنِدَاءٌ﴾ لأن الأصنام بمعزل عن ذلك فلا دخل للاستثناء في التشبيه إلا أن يجعل من التشبيه المركب^٤ ويلتزم كون مجموع ﴿لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءٌ وَنِدَاءٌ﴾ كناية عن عدم الفهم والاستجابة^٥، يعني هم مثل البهائم فلا يفهمون حقيقة دعوة سيدنا محمد ﷺ، أو هم مثل الناعق في دعائهم الأصنام، ولكن هذا القول غير مقبول إذ قال الله تعالى ﴿لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءٌ وَنِدَاءٌ﴾ والأصنام لا يسمع أي صوت؛ فلهذا من المناسب أن يجعله من التشبيه المركب، ويعتبر ﴿لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءٌ وَنِدَاءٌ﴾ كناية عن عدم فهم الحق

١ يطر: نظم الدرر في تاسع الآيات والسور: ٢٣٢/٢

٢ "التشبيه: أن يكون الشئ من جهة أمر ين لا يحتاج إلى التأول، والتمثيل: أن يكون الشئ عضلاً بصرت من التأول، والتمثيل أحص من التشبيه، فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلاً"، يطر: الشيخ الإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني الحوي (المتوفى: ٤٧١ هـ أو ٤٧٤ هـ)، أسرار البلاغة: (قرأه وعلق عليه: أبو فهر | محمود محمد شاكر) دار المدني غدة، ط ١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م، ص ٩٠-٩٥

٣ الإضرار: الشئ الذي تصمره في قلبك أي أحقيقته، لأن الشئ إذا كان مهماً فالنفوس متطلعة على فهمه، ولها تشوق إليه فلاحل هذا حصلت فيه البلاغة، معجم للمصطلحات البلاغية وتطورها: ٢١٨ / ١

٤ التشبيه المركب. هو التشبيه الذي يتحد فيه المشبه والمشبّه به، ويكون مركباً من شيئين أو أكثر. معجم للمصطلحات البلاغية وتطورها. ٢٠٢ / ٢

٥ الكناية "الكناية هي ترك التصريح بذكر الشئ على ما ذكر ما يلزمه لينقل من المذكور على المذكور كما نقول فلان طويل السجاد لينقل منه على ما هو معروف وهو طول القامة"، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الحواررمي الحمفي أبو يعقوب (المتوفى: ٦٢٦ هـ)، معجم العلوم، ص ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، ص ٣٣١

٦ شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألبوسي (المتوفى: ١٢٧٠ هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (مسحقة محققة)، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٥ هـ، (تحقيق: علي عبد الباري عطية): ٤٣٩ / ١

والاستجابة له. وقال الخفاجي "إنه من حسن الكناية عما يجب أن يكفى عنه في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح وذلك أصل من أصول الفصاحة وشرط من شروط البلاغة".^١

ويرى صاحب التحرير والتنوير أن "التشبيه التمثيلي يحتمل كل ما حملته من الهيئة كلها، وهيئة المشركين في تلقي الدعوة مشتملة على إعراض عنها وإقبال على دينهم كما هو مدلول قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ﴾^٢ الآية، فهذه الحالة كلها تشبه حال الناعق بما لا يسمع، فالنبي ﷺ يدعوهم كناعق بغنم لا تفقه دليلاً، وهم يدعون أصنامهم كناعق بغنم لا تفقه شيئاً. ومن بلاغة القرآن صلاحية آياته لمعان كثيرة يفرضها السامع".^٣

"ولا شك أن التمثيل أخص أنواع التشبيه لأنه تشبيه هيئة بهيئة فهو أوقع في النفوس وأجلى للمعاني"، وهذا التمثيل يبين حالة الكفار الفكرية وهي جهالة ضالة وعدم الوعي والعقل لأن "العرب تضرب المثل براعي الغنم في الجهل".^٤

واستخدمت كلمة ﴿يَنْعِقُ﴾ وهي "كلمة تدل على صوت. ونَعَقَ الراعي بِالْقَمَمِ يَنْعِقُ وَيَنْعِقُ، إِذَا صَاحَ بِهِ زَجْرًا، نَعِيقًا"^٥، وترسم هذه المفردة حالة الكفار بوضوح أمام القارئ كما قال البقاعي "والكافرون في كوثهم لا يرجعون عن غيهم لما يسمعون من الأدلة وهم أولو عقل

١ أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (المتوفى: ٤٦٦هـ)، سر العصاحة، دار الكتب

العلمية، ط ١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص ١٦٣، عدد الأجزاء: ١

٢ البقرة ١٧٠

٣ التحرير والتنوير: ١١٢/٢

٤ المرجع نفسه: ٢٤٤/١

٥ تفسير القرطبي: ٢١٥/٢

٦ أحمد بن فارس بن زكريا القروي الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام

محمد هارون، دار المعركة، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ٥/٤٤٥

وسمع وبصر كالهم التي تسمع وتبصر ولكنها لكونها لا تعقل لا ترجع بالكلام لأنها لا تسمع إلا ظاهر الصوت ولا تفهم ما تحته بل بالحجر والعصا^١.

استخدام المضارع **يَنْعِقُ** و **لَا يَسْمَعُ** و **لَا يَغْفِلُونَ** تفيد الاستمرار على دعوة سيدنا محمد ﷺ، وعدم الاستماع من قبل الكفار بسبب عدم الوعي والعقل.

استعمل القرآن الكريم لفظتين "دعاء" و "نداء"، يرى الإمام الراغب الأصفهاني بأن "النداء رفع الصوت وظهوره أو الصوت المجرد"^٢ "والدعاء كالنداء، والدعاء لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم نحو يا فلان، وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر"^٣، وهنا دعاء بمعنى نداء، كما قال الله ﷻ **﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾**^٤، ويرى القرطبي بأن "النداء للبعيد، والدعاء للقريب"، ولذلك قيل للأذان بالصلاة نداء لأنه للأبعد.^٥ وقد وردت كلمتان دعاء ونداء تكررتين، وهما تدلان على زيادة عدم انتفاع الكفار بحواسهم، والله أعلم.

وبين الجملتين **﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ﴾** و **﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَغْفِلُونَ﴾** فصل^٦، وفيه كمال الاتصال، لأن الجملة الثانية تفيد

١ نظم الدرر: ٣٣٣/٢، ٣٣٤

٢ أنوالقاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، المعرقات في غريب القرآن، صبط:

هيثم طعيمة، دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٤٨هـ - ٢٠٠٨م، كتاب البون: ص ٥٠٩

٣ المعرقات في غريب القرآن: كتاب الدال، ص ١٧٧

٤ بطلر العقبة للمفسر الجامع الحسين بن محمد الدامعاني، قاموس القرآن أو إصلاح الوحوه والبطاير في القرآن

الكريم، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، دارالعلم للملأين - بيروت، ط ٢، ١٩٧٧، ص ١٧٤

٥ الأسياء: ٤٥

٦ تفسير القرطبي ٢/ ٢١٥

٧ الفصل "العصل في اللاعة أو الكلام ترك عطف بعض الحمل على بعض، والوصل عطف بعضها على البعض، فترك العطف يكون إما للاتصال إلى العاية، أو الإمصال إلى العاية، والعطف لما هو واسطة بين الأمرين، وكان له

الإيضاح والتوكيد للأولى لكونها تفسيراً وتبييناً لها^١، والمسند إليه محذوف في ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ وتقديره هم، وسرّ ذكر المسند إما لزيادة التقرير وإما لفائدة الثبوت كونه اسماً^٢، وتنكير ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ لإفادة المبالغة في عدم انتفاعهم بالحواس، والله أعلم بالصواب. من الملاحظ ترتيب الكلمات في الآية ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ في غاية الجمال والطبيعة؛ لأن أهمية السمع أكثر من الحواس الأخرى في عملية الإدراك الحسي ومعرفة الحق؛ فمن الممكن للإنسان الذي قد فقد بصره أن يسمع ويعرف حقيقة الأشياء ولكنه إذا فقد سمعه تعذر عليه ذلك، ونتيجة الصمم هو البكم طبعياً؛ لأن الشخص الأصم لا يستطيع أن يتحدث في كثير من الأحوال. ومما يدل على أهمية السمع في الإدراك وفي معرفة الحق - أن القرآن الكريم قد أفرد ذكره مع العقل للدلالة على العلاقة الوثيقة بينهما فذكر قول أصحاب الجحيم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^٣.

ويرى المتأمل في القرآن الكريم أنه استخدم تعبيرين مختلفين في السورة نفسها مع ترتيب الجملة نفسها نحو: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَزِجُّونَ﴾؛ و ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾^٤، وذلك بسبب اختلاف السياق لأن تلك الآية تبين حالة المنافقين الذين ارتدوا عن الدين، وهذه الآية تصور صورة الكفار الذين يتبعون آباءهم دون تفكير وتعقل، ولا يعترفون بالحق بألسنتهم، وهذا يدل على عدم الوعي والعقل فيهم.

حال بين الحالين، فاعرفه، وهذا من من القول خاص دقيق". معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ١١٨/٣،

دلائل الإعجاز: ٢٤٣، ٢٤٤

١ بطر: الإيضاح، ص ١٠٢

٢ بطر: الإيضاح: ص ٦١

٣ الملك: ١٠

٤ المقرة: ١٨

٥ المقرة: ١٧١

وهكذا يأتي في سورة الأنعام ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾^١ ولم يقل ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ مع أن الآيتين تذكران حالة الكفار، ولعل ذلك لعدم فائدة البصر في الظلام.

ويمكن أن يُطرح سؤال هنا وهو هل هناك رمز بلاغي في فواصل قوله عز وجل ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾؟ فإذا تأملنا في قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آثَانًا أُولَئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^٢ نرى كأن هؤلاء الكفار - وهم يستمعون إلى كلام الله ﷻ - قد أنزلوا منزلة البهائم التي لا تستعمل عقولها في الإدراك، فلذلك قال الله ﷻ ﴿أُولَئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ وهم أيضاً لا يعقلون كآبائهم، فيعلم أن نهاية الآية ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أكثر تناسباً وموافقةً للبلاغة.

وحلاصة القول أن القرآن الكريم يعترض على الكفار في عدة آيات بأنهم لا يسمعون ولا يبصرون^٣ - بمعنى أنهم لا يعملون على مقتضيات الوعي، ويعرضون عن الحق - منها ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَاءِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^٤ و﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^٥. وليس المراد صم بالكلية وبكم بالكلية ولكنهم صم عن سماع الحق وعمي عن رؤية الحق وبكم عن الإقرار به، والله ﷻ رزقهم الحواس للوعي فلما لم ينتفعوا بها جعلها القرآن العظيم كأنها لم تكن، وهذا من سنن القرآن الكريم في الحكم على الأشياء كما قال الله ﷻ عن قوم عاد ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَارُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُمْ مِّنْ

١ الأنعام ٣٩

٢ النقرة. ١٧٠

٣ يطر الأنعام: ٣٦، الأعراف: ١٠٠، ١٩٨، يونس: ٤٣، العرقات: ٤٤، يس: ٩، فصلت: ٤

٤ الأنعام ٣٩

٥ الأعراف: ١٧٩

شَيْءٌ^١، ولما دعا سيدنا محمد ﷺ الكفار إلى الصراط المستقيم قد اثاقلوا إلى طريق آبائهم؛ فصور الله ﷻ حالة هذه التبعية والتقليد الأعمى تصويراً واضحاً بأن آبائهم كانوا لا يحملون العلم النافع الذي يقوم عملهم، ويسير طريقهم، وهؤلاء الكفار والمشركون يتبعونهم دون دليل قاطع وبرهان ساطع، وهذا يدل على تعطل انتفاعهم بحواسهم؛ فلا يسمعون الحق الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ سماع فهم وقبول، ولا يتكلمون به، ولا يبصرون سبيله؛ فينتج عن ذلك أنهم لا يعقلون شيئاً من الحق، وحرمانهم من العلم النافع يجزّهم إلى إنكار دعوة سيدنا محمد ﷺ. ويبين القرآن الكريم هذه الحالة الفكرية للكفار والمشركين مستخدماً تشبيه التمثيل، والإصمار، والوصل، والفعل المضارع، والتذكير إلخ حتى يشعر القارئ كأنه يراهم بعينيه مثل البهائم التي لا تستخدم الوعي والعقل.

ثانياً: عدم معرفة الحق

من المعلوم أن الله ﷻ فضّل الإنسان على بقية المخلوقات بسبب العلم والمعرفة. من أبلغ الآيات الدالة على تشريف العلم والمعرفة قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^٢ ومن هذا المنطلق يتضح أن العلم والمعرفة سبب خشية الله ﷻ التي تحبط بها الحجر^٣، واتباع الإنسان الذكر^٤، ولكن الذين لا يعلمون لا يخشون الله ﷻ فيضلون عن الصراط المستقيم، ولا يهتدون، إن أكثر الكفار والمشركين كانوا لا يعلمون، ولا يعرفون الحق الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ، حيث يقول الله عز وجل ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾^٥

١ الأحقاف: ٢٦

٢ فاطر: ٢٨

٣ بئر: النقرة ٧٤

٤ بئر: يس: ١١

٥ الأنبياء: ٢٤

حاطب الله ﷻ العقل الإنساني قبل هذه الآية، فقال ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرونَ﴾ ❶ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ❷ ثم طالب الكفار والمشركين بالدلالة على ما ادعوه من دون الله وبين أنه لا دليل لهم البتة عليه لا من جهة العقل ولا من شواهد الشرائع والرسل، وذكر أن مذهبهم الباطل ليس لأجل دليل واضح، بل سبب هذا الشر والفساد هو فقدان العلم، ونتيجة ذلك إعراضهم عن استماع الحق وطلبه. ولنخرج إلى دراسة الآية دراسة بلاغية.

من بلاغة النظم القرآني:

جملة ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ تأكيد لجملة ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ﴾ ❶، وقال صاحب الكشف "كرر ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ استفظاعاً لشأنهم واستعظاماً لكفرهم، أى وصفتهم الله تعالى بأن له شريكاً، فهاتوا برهانكم على ذلك: إما من جهة العقل، وإما من جهة الوحي، فإنكم لا تجدون كتاباً من كتب الأولين إلا وتوحيد الله وتنزيهه عن الأنداد مدعو إليه" ❷، "وفي ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ إضراب ❸ وانتقال ❹ من إظهار بطلان كون ما اتخذوه آله حقيقية بإظهار حلوها عن خصائص الإلهية التي من جملتها الانتشار، وإقامة البرهان القطعي على استحالة تعدد الإله مطلقاً، وتفرده سبحانه بالألوهية إلى بطلان اتخاذهم تلك الآلهة مع عرائنها عن تلك الخصائص بالمرّة شركاء لله تعالى شأنه، وتبكيتهم بالجائهم إقامة البرهان على دعواهم الباطلة، وتحقيق أن جميع الكتب السماوية ناطقة بحقية التوحيد

❶ الأسياء: ٢١، ٢٢

❷ الأسياء ٢١

❸ الكشف ٣/ ١١١

❹ "الإضراب الانتقالي هو الذي يتقل به المتكلم من كلام يقره ويرتضيه إلى كلام جاء به ليكون إصامة حديدة للمعنى السابق" يطر <http://www.dhifaaf.com/vb/showthread.php?t=٢٠٥٨٩>

❺ الانتقال: "هو أن يتقل المستدل إلى استدلال غير الذي كان أحداً فيه لكون الخصم لم يعهم وجه

الدلالة من الأول" معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ١/ ٣٢٥

وبطلان الإشراك. وجور أن يكون هذا انتقالاً لإظهار بطلان الآلهة مطلقاً بعد إظهار بطلان الآلهة الأرضية، والهمزة لإنكار الاتخاذ المذكور واستقبحه واستعظامه، و"من" متعلقة باتخاذوا، والمعنى بل اتخذوا متجاورين إياه تعالى مع ظهور شؤونه الجليلة الموجبة لتفرد بالالوهية آلهة مع ظهور أنها عارية عن حواص الألوهية بالكلية"^١.

وكلمة **﴿أَمْ﴾** فيه استفهام توبيخ^٢، وجاءت كلمة **﴿آلِهَةٌ﴾** نكرة إما لإرادة عدم الحصر وإما للتببيه على المخطاط شأن آلهة^٣.

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ "قل لهم بطريق التبكيت والقام الحجر هاتوا برهانكم على ما تدعونه من حجة العقل والنقل فإنه لا صحة لقول لا دليل عليه في الأمور الدنيوية لا سيما في مثل هذا الشأن الخطير وما في إضافة البرهان إلى ضميرهم من الإشعار بأن لهم برهاناً ضرب من التهمك بهم"^٤، ويمكن أن يكون الأمر^٥ في **﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾** للتعجيز والتكذيب أيضاً،^٦ (الله أعلم).

والجملة الاسمية **﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي﴾** - "أي عظة للذين معي: يعني أمته، وذكر للذين من قبلي: يريد أمم الأنبياء عليهم السلام"^٧ تفيد الثبات والدوام.

- ١ روح المعاني: ٩ / ٣٠
- ٢ استفهام التوبيخ: "جعل بعض البلاغيين من قبيل الإنكار وهذا الإنكار توبيخ"، معجم للمصطلحات البلاغية وتطورها: ١ / ١٩٢ ويطر التفسير المنير في العقيدة والشرعة والمهج، دكتور وهبة بن مصطفى الرحيلي، دار الفكر المعاصر - دمشق، ط ٢، ١٤١٨ هـ، ١٧ / ٢٣
- ٣ يطر. الإيضاح، ص ٦٧
- ٤ تفسير أبي السعود: ٦ / ٦٢
- ٥ "الأمر نقيض النهي، وعند البلاغيين هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام"، معجم للمصطلحات البلاغية وتطورها، ١ / ٣١٣
- ٦ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ١ / ٣١٩-٣٢٠
- ٧ الكشف: ٣ / ١١٢

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ "هذا إضراب من جهته سبحانه وانتقال من تبيكيتهم بمطالبتهم بالبرهان إلى بيان أنه لا يؤثر فيهم إقامة البرهان لكونهم جاهلين للحق لا يميزون بينه وبين الباطل. وجملة ﴿فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ تعليل لما قبله من كون أكثرهم لا يعلمون، أي: فهم لأجل هذا الجهل المستولي على أكثرهم معرضون عن قبول الحق مستمرين على الإعراض عن التوحيد واتباع الرسول، فلا يتأملون حجة، ولا يتدبرون في برهان، ولا يتفكرون في دليل وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه"

وفدلكة الكلام أن الكفار والمشركين أنكروا دعوة سيدنا محمد ﷺ بسبب عدم معرفة الحق، وأشار القرآن الكريم إلى حالتهم الفكرية هذه بأسلوب بلاغي جميل فيه استفهام الإنكار والتوبيخ، والتهكم لتبيين استعظام جرمهم هذا لأنهم اختاروا الكفر بدون تفكير، فلو أنهم تفكروا وتدبروا ونظروا إلى آيات الله تعالى في الكون لوجدوا الحق واتبعوه.

ثالثاً: الشك والريبة

لقد كان من أهم أحوال الكفار والمشركين الفكرية المتعلقة بإنكارهم دعوة سيدنا محمد ﷺ الشك والريبة. وفي ذلك قال الراغب الأصفهاني: "الشك اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما، والشك الخرق في الشيء وكونه بحيث لا يجد الرأي مستقراً يثبت فيه ويعتمد عليه، والشك صرب من الجهل وهو أخص منه"^١، وذكر عن الريبة أنها "التردد في الأمر وهي أخص من الشك."^٢ وجاءت كلمة شك في خمسة عشر موضعاً في القرآن الكريم وكلمة ريبة خمس مرات،^٣ وهي حالة فكرية مشتركة بين منكري دعوة سيدنا محمد ﷺ

١ فتح القدير للشوكاني: ٤٧٦/٣

٢ المبررات في غريب القرآن، كتاب الشين، تحت مادة. شكك، ص ٢٧٤، ٢٧٥

٣ المبررات في غريب القرآن، كتاب الميم، تحت مادة مري، ص ٤٨٧

٤ ينظر الشيخ عبد الوحيد نور أحمد، المعجم المفهرس لكلمات القرآن الكريم، دارالسلام للنشر والتوزيع، الرياض،

المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٢١هـ، ص ٥٠١

ومسكري دعوة سائر الأنبياء عليهم السلام، كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾^١، وقال في موضع آخر ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَسْؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَعْيُنَهُمْ فِي أَقْوَاعِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾^٢. فظهر من هاتين الآيتين أن منكري دعوة الأنبياء السابقين متساوون في مسجع الإنكار، ومن هنا نجد الكفار والمشركين كذلك كانوا كالسابقين في اتباعهم المناهج الإنكارية نفسها؛ فالكفار والمشركون كانوا يشكّون في وحدانية ربهم، والقرآن الكريم، ونبوة سيدنا محمد ﷺ، فأمر الله ﷻ سيدنا محمد ﷺ أن يعلن أمام الكفار والمشركين بكل وضوح في قوله ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّأُكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^٣ أي "قل، يا محمد ﷺ، هؤلاء المشركين من قومك الذين عجبوا أن أوحيت إليكم: إن كنتم في شك، أيها الناس، من ديني الذي أدعوكم إليه، فلم تعلموا أنه حق من عند الله ﷻ؛ فإني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله من الآلهة والأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عني شيئاً، فتشكّوا في صحته"^٤. وقد أشار القرآن الكريم في مواضع كثيرة إلى هذا الشك الذي ابتلي به الكفار والمشركون وأنكروا بكل ما أوتوا من قوة. وعلى سبيل المثال أتناول هنا الآية الثامنة من سورة "ص" وأقوم بدراستها دراسة بلاعية؛ قال الله عز من قائل ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ قَبْلَهُمْ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِهِمْ يَكْفُرُونَ﴾^٥، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾^٦.

١ بَطْر المَرْجَع بَعْدَهُ، ص ٨١٥

٢ هُود ١١٠

٣ إِبْرَاهِيم: ٩

٤ يُونُس: ١٠٤

٥ تَفْسِير الطَّبْرِي: ٢١٧ / ١٥

٦ سُورَةُ ص ٨

فقد ردَّ الله عز وجلَّ على الكفار والمشركين الذين ارتابوا في التوحيد قائلين ﴿أَجْعَلِ
الْأَلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾^١، ثم ناقش مشركي مكة وأمثالهم في تكبرهم
واعتزازهم بالباطل وتعجبهم من مجيئ رسول من أنفسهم ينذرهم ويخوفهم بعذاب النار إن
استمروا على الكفر معتقدين أنهم الرؤساء والأشراف، وأكبر منه سنًا وأعظم منه شرفًا،
والذين قال الله عنهم ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابَ﴾ أي أنهم لم يدعوا
عذاب الله بعد وإذا ذاقوه زال شكهم بمعنى أنهم لا يصدقون به حتى يمسه العذاب فيلجئهم
إلى تصديقه^٢.

ولنتقل الآن إلى الدراسة البلاغية في الآية.

من بلاغة النظم القرآني:

تبدأ الجملة ﴿أَنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ بأسلوب الاستفهام و"إنه استفهام على
سبيل الإنكار"^٣ كما حكى الله ﷻ عن قوم صالح ﷺ أنهم قالوا مثل هذا الكلام؛ فقالوا
﴿الَّذِي الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشِرٌ﴾^٤، والاستفهام الإنكاري يدل على أن الأمر
المستفهم عنه أمر مكر، لأن "المعنى فيه النفي وما بعده منفي"^٥، وهذا المعنى يعرف بالقرائن
ودلالة السياق، ويعرف هما الاستفهام الإنكاري من الآية رقم أربعة في السورة نفسها؛
وهي ﴿وَعَجِبُوا أَنْ حَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾^٦، وقال الزمخشري
"أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم وينزل عليه الكتاب من بينهم، كما

١ سورة ص: ٥

٢ بطر: التفسير الميز. ٢٣ / ١٦٥ - ١٦٧

٣ التفسير الكبير. ٢٦ / ٣٦٩

٤ القمر: ٢٥

٥ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ١ / ١٨٥

٦ سورة ص: ٤

قالوا ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلى به صدورهم من الحسد على ما أوتى من شرف النبوة من بينهم^٢.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ "إضرأت عن مقدر تقديره: إنكارهم للذكر ليس عن علم بل هم في شك منه"^٣، "ويجوز أن يكون ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ جواباً عن قولهم ﴿أَنْزِلْ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي ليس قصدهم الطعن في اختصاصك بالرسالة ولكنهم شاكون في أصل إنزاله، فتكون ﴿بَلْ﴾ إضراباً إبطالياً تكذيباً لما يظهر من إنكارهم إنزال الذكر عليه من بينهم على ما تقدم، أي إنما قصدهم الشك في أن الله ﷻ يوحى إلى أحد بالرسالة"^٤، "وفى قوله 'من ذكري' بين يونس الخطيب أن 'إضافة الذكر إلى الله ﷻ - إشارة إلى أن حكمهم على القرآن، وتكذيبهم له، ليس حكماً على محمد ﷺ، ولا تكذيباً له، بل هو حكم على الله وتكذيب لله، فهذا القرآن قرآنه، وهذا الكلام كلامه.. وإذن. فإنَّ حسابهم ليس بينهم وبين محمد، وإنما حسابهم بينهم وبين الله ﷻ"^٥.

وإذا تأملنا الأسلوب القرآني نجد أن كلمة "شك" ما وردت في القرآن الكريم إلا نكرة لأن التوكيد يفيد زيادة الشك بجميع أنواعه والله أعلم. قال ابن عاشور "إضافة الذكر إلى ضمير المتكلم في ﴿ذِكْرِي﴾ وهو الله تعالى إضافة تشريف ولتحقيق كونه من عند الله، وفي الجملة ﴿فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ "في للظرفية المجازية، جعلت ملابسة الشك إياهم بمنزلة الظرف المحيط بمحويه في أنه لا يخلو منه جانب من جوانبه"^٦، وقال اليسابوري: "قدم الظرف هاهنا

- ١ الرحرف: ٣١
- ٢ الكشاف: ٧٤/٤
- ٣ محمد علي الصاوي، صعوة التفسير، دار الصاوي للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م: ٤٧/٣
- ٤ التحرير والتوير: ٢٣/٢١٤
- ٥ عبد الكريم يونس الخطيب (للتوق: بعد ١٣٩٠هـ)، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي - القاهرة، ١٠٥٢/١٢
- ٦ التحرير والتوير: ٢٣/٢١٤، ٢١٥

لشدة العاية ولزيادة غيظهم وحقهم فأجاب الله تعالى عن شبهتهم بقوله ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ أي من دلائلي التي لو نظروا فيها لزال الشك عنهم^١.

﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ "إضراب انتقالي وغرضه التهديد والمعنى سبب شكهم أنهم لم يذوقوا العذاب إلى الآن، ولو ذاقوه لأيقنوا بالقرآن وآمنوا به."^٢ ويرى صاحب التحرير والتوير بأن "هذا الإصرار يبين أن الذي حرّاهم على هذا الشقاق أنهم لما تأخر حلول العذاب هم ظنوا وعيده كادبا فأحدوا في البداءة والاستهزاء ولو ذاقوا العذاب لألقت أرواهم المحر، وفي ﴿يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ حذف ياء المتكلم تخفيفا للفاصلة، وأبقيت الكسرة دليلا عليها، وإضافة عذاب إلى ياء المتكلم لاختصاصه بالله ﷻ. وقد يشعر القارئ بعظمة العذاب وهيبته بسبب هذه الإضافة"^٣.

إذا قد تستنتج من هذه الآية أن الكفار والمشركين أنكروا دعوة سيدنا محمد ﷺ بسبب الشك والاستكبار عن الذكر من غير حجة وبرهان، وحسدا من عند أنفسهم، لأن هذا القرآن ذكرى لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر، فلم ينتفع به الكفار؛ لأنهم في شك مستمر منه، وسوف يجزّهم هذا الشك إلى عذاب الله عز وجل. ويلقي القرآن الكريم ضوءا كافيا على هذه الحالة الفكرية للكفار والمشركين مستحدا إضرابا إبطاليا وانتقاليا، وظرفا مجازيا، وإضافة الذكر والعذاب إلى الله عز وجل؛ فيعرف القارئ أن الكفار والمشركين منغمسين في شك من كتاب الله ﷻ بسبب عدم إذاعة عذاب الله ﷻ، ولو ذاقوه لعرفوا أن هذا الذكر أنزل من ملك الملوك، وهو على كل شيء قدير.

١ نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي البسابوري (المتوفى ٨٥٠هـ)، عرائب القرآن وزياداته، العراق،

المحقق الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٦ هـ، ٥ / ٥٨٤

٢ صفة التعاسير ٣ / ٤٧

٣ التحرير والتوير. ٢٣ / ٢١٥

رابعاً: اتباع الظن

لقد كان الكفار يتبعون الظن في عقائدهم وعبادتهم لأنهم يشكون ويمترون في الحق، ولو لم يكن لديهم دليل مبني على العلم، كما قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَزَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾^١، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾^٢، قد جاءت كلمة 'الظن' في مواضع كثيرة في القرآن الكريم بمعنى الذم^٣. ويقول الله ﷻ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^٤، إن التأمل في سياق هذه الآية يجد أن القرآن الكريم أعلن بأن الذي يهدي الناس إلى الحق أولى بالاتباع ممن لا يهتدي بنفسه إلا أن يهديه غيره^٥. ثم ذكر بأنهم لا يستندون إلى يقين فيما يعتقدون أو يعبدون أو يحكمون، ولا إلى حقائق مدروسة يطمئن إليها العقل والفطرة، إنما يتعلقون بأوهام وظنون، ولا يحققون هذا الظن ولا يمتحنونه عملاً ولا عقلاً، بل يعيشون عليها ويعيشون بها وهي لا تغنيهم من الحق شيئاً^٦، وقال الراغب الأصفهاني إن "الظن اسم لما يحصل عن أماره ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت حدا لم يتجاوز حد التوهم"^٧. ويرى صاحب التحرير والتنوير بأن "الظن: يطلق على مراتب الإدراك،

- ١ الأعمام ١٤٨
- ٢ يوس: ٦٦
- ٣ يطر: النساء ١٥٧، الأعمام ١١٦، يوس: ٣٦، المحرات: ١٢، اللحم: ٢٣، ٢٨
- ٤ يوس: ٣٦
- ٥ يطر: يوس: ٣٥ ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَقَمَرُ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾
- ٦ يطر: في طلال القرآن: ٣ | ١٧٨٤
- ٧ المعردات في عريب القرآن: ٣٢٩

فيطلق على الاعتقاد الجازم الذي لا يشوبه شك، كما في قوله تعالى ﴿وَأَنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^١ ويطلق على الاعتقاد المشوب بشك. ويظهر أنه حقيقة في هذا الثاني، وأنه مجاز في الأول لكنه في الأول شائع فصار كالمشترك...والظن كثر إطلاقه في القرآن والسنة على العلم المخطئ أو الجهل المركب والتخيلات الباطلة^٢. ولنعرِّج الآن إلى الدراسة البلاغية للآية الكريمة.

من بلاغة النظم القرآني

﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ إن هذه الآية عطف على الآية السابقة عليها^٣ يقول الله ﷻ ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾^٤، وبسبب عطف الجملة على الجملة "ازداد معنى الجمع في 'الواو' قوة وظهوراً، وكان الأمر حينئذ صريحاً"^٥، يوجد في الآية أسلوب الوصل^٦، وفي الآية أسلوب القصر^٧ بـ ﴿مَا﴾ و﴿إِلَّا﴾ الذي يفيد التخصيص الدال على عدم اتباعهم للحق الواضح الجلي أمامهم، وهذا قصر إضافي^٨ لأن المقصود هو أنهم "لا يستندون إلى يقين فيما يعتقدون أو يعبدون أو يحكمون، ولا إلى حقائق مدروسة يطمئن إليها العقل والفترة، إنما يتعلقون بأوهام وظنون، يعيشون عليها ويعيشون بها وهي لا تغني من الحق

١ القرعة: ٤٥، ٤٦

٢ التحرير والتوير ١١ / ١٦٥

٣ بظر: المرجع السابق، ١١ / ١٦٤

٤ بوس: ٣٥

٥ كتاب دلالات الإعجاز، ط ٣، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ص ٢٢٦

٦ "الوصل في الملاعة هو الربط بين الحمل أو عطف بعض الحمل على البعض" معجم المصطلحات البلاغية

وتطورها ٣ / ٣٥٤

٧ "القصر الحس وهو تخصيص شيء بشيء بطريق محصور وذلك كتخصيص المتدأ بالخبر بطريق النفي وتخصيص

الخبر بالمتدأ والقصر هو الخصر" معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٣ / ١٣٧

٨ "قصر إضافي وذلك بأن يكون القصر فيه بالإضافة إلى شيء محصور لا إلى ما عدا المقصور عليه" معجم

المصطلحات البلاغية وتطورها: ٢ / ٤٤٩

تبيها". ويقول ابن عاشور "دلّت صيغة القصر في ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ على أنهم ليسوا في عقائدهم المأفية للتوحيد على شيء من الحق رداً على اعتقادهم أنهم على الحق، وتنكير كلمة 'ظناً' في ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ للتحقير، أي ظناً واهياً^١، ولعل استخدام الفعل المضارع يدل على استمرارهم في اتباع الظن كما قال أبو السعود "قد يُفهم من فحوى الكلام عُرفاً من كون أولئك أسوأ حالاً من غيرهم إذ المعتبر سوء الحال من حيث الفهم والإدراك لا من حيث الكفر والعذاب أو ما يتبع أكثرهم مدة عمرهم إلا ظناً ولا يتركوه أبداً فإن حرف النفي الداخل على المضارع يُفيد استمرار النفي"^٢.

"والضمير في قوله ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ عائد إلى أصحاب ضمير ﴿شُرَكَائِكُمْ﴾ وضمير ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ وإنما عمهم في ضمائر ﴿شُرَكَائِكُمْ﴾ و ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، وحسب بالحكم في اتباعهم الظن أكثرهم، لأن جميع المشركين اتفقوا في اتباع عبادة الأصنام. وبيّن هنا أنهم ليسوا سواء في الاعتقاد الباعث لهم على عبادتها إيماناً إلى أن من بينهم عقلاء قليلون ارتقت مدارك أفهامهم فوق أن يعتقدوا أن للأصنام تصرفاً ولكنهم أظهروا عبادتها تبعاً للهوى وحفظاً للسيادة بين قومهم. والمقصود هو زيادة الاستدلال على بطلان عبادتها حتى إن من عبادها فريقاً ليسوا مطمئنين لتحقيق إلهيتها"^٣، وهذا كقوله الآتي ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾^٤.

١ في طلال القرآن. ٣ / ١٧٨٤

٢ التحرير والتوير: ١١ / ١٦٦

٣ تفسير أبي السعود: ٤ / ١٤٥

٤ يونس. ٣٥

٥ التحرير والتوير: ١١ / ١٦٥

٦ يونس ٤٠

وجملة **﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾** استئناف^١ ببيان شأن الظنّ وبطلانه وفيه دلالة على وجوب العلم في الأصول وعدم جواز الاكتفاء بالتقليد. وتعليل لما دل عليه القصر من كونهم ليسوا على شيء من الحق فكيف هم يزعمون أنهم على الحق، "و **﴿شَيْئًا﴾** "مفعول مطلق مؤكد لعامله، أي لا يغني شيئاً من الإعناء، و**﴿مِنْ﴾** في **﴿مِنَ الْحَقِّ﴾** للبدلية، أي عوصاً عن الحق"^٢.

وجملة **﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾** استئناف للتهديد وفيه وعيد لهم على أفعالهم القبيحة فيمدح تحتها ما حكى عنهم من الإعراض عن الرايين القاطعة والاتباع للظنون الفاسدة^٣.

في الآية أسلوب الفصل^٤ إذا أُعتبر أن قوله **﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾** جملة مستقلة و **﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾** جملة ثانية و **﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾** جملة ثالثة "وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق، وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض. فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها، وهلم جزاً إلى الثالثة"^٥، "قد يكون الفصل أبلغ من الوصل فالجمل التي تتوارد على سبيل البيان، لا حاجة فيها إلى ذكر لفظ يدل على الربط، لأنها ما دامت كذلك فهي شيء أو هي جسم واحد، فإذا دخلها حرف وصل كان غريباً وشاذاً"^٦.

١ الاستئناف. "هو الإتيان بعد تمام كلام بقول يهمهم منه جواب سؤال مقدر" معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ١/ ١٠١

٢ يطر. التحرير والتنوير: ١١/ ١٦٦، وتفسير أبي سعود: ٤/ ١٤٥

٣ التحرير والتنوير. ١١/ ١٦٦

٤ يطر. تفسير أبي سعود. ٤/ ١٤٥، والتحرير والتنوير: ١١/ ١٦٦ (تنصرف)

٥ "العصل نون ما بين الشيتين والعصل في البلاغة أو الكلام ترك عطف بعض الحمل على البعض" معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٣/ ١١٧

٦ الكشف: ١/ ٣٧

٧ يطر. دكتورة مسرت حمال الأستاذة للمشاركة قسم اللغة العربية، جامعة بشاور. "بلاغة أسلوب الفصل والوصل في القرآن" (مقال) مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دارالعلوم ديوبند، جمادي الثانية ١٤٣١ هـ مايو - يونيو ٢٠١٠ م، العدد: ٦

وخلاصة القول أن الآية الكريمة تبين الحالة الفكرية للكفار والمشركين الضالة وهي أنهم يظنون أن الله ﷻ شركاء، وأن الله عزوجل لا يوحى إلى رجل منهم، وأن القرآن الكريم من عمل سيدنا محمد ﷺ، وهكذا يقضون حياتهم في حشد من الظنون دون تحقيق؛ فهم محرومون من رؤية الحق في دعوة سيدنا محمد ﷺ، والله ﷻ وحده هو الذي يعلم علم اليقين، ووردت في الآية ألوان بلاغية من علم المعاني من الفصل والوصل، والقصر لتبيين الكلام حتى لا يكون الأمر مخفياً عن القارئ.

خامساً: النفور والكراهية

من أحوال الكفار والمشركين الفكرية المتعلقة بإنكارهم دعوة سيدنا محمد ﷺ النفور، يذكر القرآن الكريم شدة نفورهم في عدة آيات^١، منها ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾^٢، وقوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾^٣، وقال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَلَغَتْ فِي الْقُرْآنِ وَخْدَهُ وَلَوْ أَنَّا أَذْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾^٤. تدل هذه الآيات على شدة نفور الكفار والمشركين من دعوة سيدنا محمد ﷺ. ونجد آية أخرى في سورة الزمر ترسم صورة مشحونة لشدة نفور الكفار والمشركين يقول الله عزوجل:

﴿وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَخْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^٥.

١ يطر: الإسراء: ٤٦، فاطر: ٤٢.

٢ الإسراء: ٤١

٣ العنق: ٦٠

٤ الإسراء: ٤٦

٥ الزمر: ٤٥

يذكر الإمام الرازي في تفسير هذه الآية "أن هذا نوع آخر من الأعمال القبيحة للمشركين، وهو أنك إذا ذكرت الله وحده تقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له ظهرت آثار النفرة من وجوههم وقلوبهم، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة في قلوبهم وصدورهم، وذلك يدل على الجهل والحماقة؛ لأن ذكر الله رأس السعادات وعنوان الخيرات، وأما ذكر الأصنام التي هي الجمادات الخسيسة؛ فهو رأس الجهالات والحماقات، فنفرتم عن ذكر الله وحده واستبشارهم بذكر هذه الأصنام من أقوى الدلائل على الجهل الغليظ والحق الشديد".^١ أما الدراسة البلاغية لهذه الآية فهي كالآتي:

من بلاغة النظم القرآني

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَخِدَهُ اشْتَمَزَتْ﴾ "عطف على ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾^٢ لإظهار تناقضهم في أقوالهم فإنهم يعتذرون تارة على إشراكهم بأن شركاءهم شفعاء لهم عند الله ﷻ. وهذا يقتضي أنهم معترفون بأن الله ﷻ هو إلههم وإله شركائهم، ثم إذا ذكر النبي ﷺ أن الله واحد أو ذكر المسلمون كلمة لا إله إلا الله اشتمزت قلوب المشركين من ذلك"^٣. ولعل ورود أسلوب الوصل لإثارة عقول المخاطبين بمختلف درجات استيعابهم، والله أعلم.

عندما يقرأ القارئ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ قد يشعر بالعظمة والجلال لله ﷻ بمجئ اسم الجلالة بمقابلة آلهتهم الأخرى.

في قوله عز وجل ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ ترى الباحثة أن هذا الجزء من الآية يحتوي على نوع من البلاغة مثل استخدام صيغة الإضمار للاسم الموصول للضمير الوصل ﴿الَّذِينَ﴾ إنما هو دليل على استحقر الله لكل من عبد من دونه، كذلك تركيب ﴿من دونه﴾

١ التفسير الكبير: ٢٦ / ٤٥٧

٢ الرمر: ٤٣

٣ التحرير والتوير: ٢٤ / ٢٨، ٢٩

إشارة إلى جميع ما عبد (الأصنام والجن والإنس والملائكة والنجوم والكواكب إلخ) من دون الله ﷻ، بالإضافة إلى ذلك بين الله عز وجل أن جميع هذه المعبودات لا يمكن أن تصل أو تنافس أو تشارك الذات الإلهية في أسمائها وصفاتها وأفعالها.

﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ استخدام كلمة ﴿اِشْمَازَتْ﴾ و﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ في غاية المناسبة بحالتهم الفكرية وهي النفور والكراهية لدعوة سيدنا محمد ﷺ ؛ لأن كلمة اِشْمَاز من شَمَاز معناها نفرت^١، وهي "شدة الكراهية والنفور، أي كرهت ذلك قلوبهم ومداركهم، والاستبشار: شدة الفرح حتى يظهر أثر ذلك على بشرة الوجه، والتعبير عن المشركين بـ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ لأنهم عرفوا بهذه الصلة بين الناس مع قصد إعادة تذكيرهم بوقوع القيامة"^٢، والبلاغة في هذه الآية تكمن في ذكر صفة عدم إيمان الكفار والمشركين بالآخرة حجة عليهم.

"ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز؛ إذ كل واحد منهما غاية في بابه؛ لأنَّ الاستبشار أن يمتلئ قلبه سروراً حتى تبسط له بشرة وجهه ويتهلل. والاشمئزاز أن يمتلئ غماً وغيظاً حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه"^٣، ومن المحسنات البديعية نجد هنا مقابلة بين الله تعالى والأصنام، وبين الاستبشار والاشمئزاز^٤، وبسبب هذا التقابل تبين صورة نفور الكفار والمشركين لدعوة سيدنا محمد ﷺ أمام القارئ بشكل واضح جداً، وردت كلمة 'اشمأزت' في

١ المعردات في عرب القرآن. كتاب الشئ، ص ٢٧٦

٢ التحرير والتنوير: ٢٤ / ٣٠

٣ الكشف. ٦ / ٧١

٤ المقالة. إيراد الكلام ثم مقالته بمثله في المعنى واللعط في حجة الموافقة أو المخالفة "أو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (للتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، الصاعتي، المحقق: علي محمد الحاروي ومحمد أبو الفصل إبراهيم، المكتبة العصرية - بيروت، ١٤١٩ هـ، ص ٣٣٧

صبغة الماضي وهي تدل على التحقق والثبوت واستخدام الفعل المضارع في 'يستبشرون' يفيد بتجدد استبشارهم^١.

ونستخلص مما سبق أن إنكار الكفار والمشركين لدعوة سيدنا محمد ﷺ كان بسبب نفورهم وكراهيتهم لكل من يبغض أصامهم أو يحتقرها أو يترك دين آبائهم وأجدادهم.

سادساً: الخوف على المعاش

لقد كان الكفار يعتقدون بأنهم لو اتبعوا الحق الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ، وعارضوا العرب، وتركوا آلهتهم ودين آبائهم وأجدادهم فإن الناس يتخطفونهم من أرضهم ويخرجونهم من ديارهم ولذلك آثروا المكوث في أوطانهم والإصرار على كفرهم ورفضوا دعوة نبيهم المصطفى ﷺ. ويذكر الله ﷻ ذلك على لسانهم إذ يقول ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُخَاطَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِنِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^٢

فسر الإمام الطبري هذه الآية بقوله "إنهم أناس من قريش قالوا لمحمد ﷺ: إن نتبعك يتخطفنا الناس، فقال الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِنِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾"^٣. قال الراغب الأصفهاني "الخطف والاختطاف الاختلاس بالسرعة"^٤، معنى ذلك أن الكفار كانوا

١ بطر: التحرير والتوير: ٢٤ / ٣٠

٢ القصص: ٥٧

٣ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ١٩ / ٦٠١

٤ المعردات في غريب القرآن: كتاب الحاء تحت مادة خطف، ص ١٥٧

يخافون على أنفسهم من أن يتخطفوا من أرضهم إن اتبعوا دين محمد ﷺ. ولنتقل الآن إلى استنباط الألوان البلاغية من هذه الآية.

من بلاغة النظم القرآني

﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ "إن الشرط هنا ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ﴾ غير مناسب للجواب ﴿نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ فما دمتم قلتم عن الدين الذي جاءكم به محمد ﷺ أنه هدى - يعني هدى الله - فكان يجب عليكم أن تؤمنوا به لو تأكد لديكم أنه هدى، وإلا فأنتم كاذبون في هذا القول، ولم لا وأنتم تكذبون القرآن وتقولون عنه افتراء وكذب وسحر، والآن تقولون عنه هدى، وهذا تناقض عجيب"^١. وردت أداة الشرط ﴿إِن﴾ التي "تستخدم مع الأمور التي يُشك في وقوعها أو يندُر وقوعها"^٢؛ ولعل هذه تدل على زيادة شكهم وحوافهم، والله أعلم-

﴿أَوْ لَمْ تُكِنِّ هُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ "رد الله ذلك عليهم رداً مصدراً باستفهام التوبيخ، والتفريع"^٣، والتمكين: الجعل في مكان، واستعمل هنا مجازاً في الإعداد والتيسير"^٤، "واسناد الأمن إلى أهل الحرم حقيقة، وإلى الحرم مجاز"^٥، وعلاقته "المكانية فيما بني للفاعل وأسند إلى المكان"^٦.

١ تفسير الشعراوي: ١٨ / ١١٢٧٣

٢ مقال: الدلالة البلاغية لأدوات الشرط في القرآن، اسم الكاتب غير موجود، طبع في ٧ يوليو ٢٠١٤ م فيمحلة البيان، -٠٧-٠٧-٢٠١٤/ <https://www.albayan.ae/supplements/ramadan/secrets/>

١٠٢١٥٩٠٨٦

في ١٤ ذو الحجة ١٤٤٠ هـ - أغسطس ٢٠١٩ م، ٦. ١٥ م

٣ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليماني (المتوفى: ١٢٥٠ هـ)، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط ١٤١٤ هـ - ٢٠٦ / ٤

٤ التحرير والتوير: ١٤٩ / ٢٠

٥ الكشف: ٤٢٣ / ٣

٦ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٢٠١ / ٣

﴿يُجْنَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ "يقال جبيت الماء في الحوض جمعته ومنه قوله تعالى ﴿يُجْنَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ﴾^١ أي "تجلب وتجمع"^٢. ولعل تنكير ﴿ثَمَرَاتُ﴾ يدل على كثرة وتنوع الثمرات، وتزيد معناها تركيب ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾. والمراد بها: "تجمع إليه الثمرات على اختلاف أنواعها من الأراضي المختلفة"^٣، ولعل الفعل المضارع ﴿يُجْنَى﴾ يفيد معنى الاستمرار في تجميع الثمرات، والله أعلم.

﴿رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ "ومعنى ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ من عندنا، والعندية مجاز في التكريم والبركة، أي رزقا قدرناه لهم إكراما فكأنه رزق خاص من مكان شديد الاختصاص بالله تعالى"^٤، وفيه تبيين أن الرزق من الله ﷻ وحده، فلماذا يخاف الناس؟ "والحال أن كل ما حولهم من الأماكن، قد حفر بها الخوف من كل جانب، وأهلها غير آمنين ولا مطمئنين، فليحمدوا ربهم على هذا الأمن التام، الذي ليس فيه غيرهم، وعلى الرزق الكثير، الذي يجيء إليهم من كل مكان، من الثمرات والأطعمة والبضائع، ما به يرتزقون ويتوسعون. وليتبعوا هذا الرسول الكريم، ليتهم لهم الأمن والرخاء"^٥.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ "أي ليسوا ذوي علم ونظر بل هم جهلة لا يتدبرون الأحوال. ونفي العلم عن أكثرهم لأن بعضهم أصحاب رأي فلو نظروا وتدبروا لما قالوا مقالاتهم تلك. ولو قدر لفعل ﴿يعلمون﴾ مفعول دل عليه الكلام، أي لا يعلمون تمكين الحرم لهم وأن جلب الثمرات إليهم من فضلنا لما استقام إسناد نفي العلم إلى أكثرهم بل كان يسند إلى جميعهم لإطباق كلمتهم على مقالة إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا"^٦. ونجد الكلام نفسه في الآية الكريمة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ

١ المفردات في غريب القرآن، كتاب الحميم تحت مادة جني، ص ٩٢

٢ الكشاف: ٤٢٣/٣

٣ فتح القدير: ٢٠٦/٤

٤ التحرير والتوير: ١٤٩/٢٠

٥ تفسير السعدي: ص ٦٢٠

٦ التحرير والتوير: ١٥٠/٢٠

أَقْبَابُ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ^١ ، وأشار الله ﷻ إلى نعمة الأمن والرزق الكثير في سورة قريش قائلاً ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ^٢﴾ ، ومع هذا يخافون أن يعبدوا الله عز وجل وحده؟

والحاصل أن خوف الكفار والمشركين على معاشهم وإخراج ساداتهم وكبرائهم لهم من أرضهم وأوطانهم كان من أهم الأحوال الفكرية للكفار والمشركين التي جعلتهم يرفضون قبول دعوة سيدنا محمد ﷺ ، وتبين هذه الآية خوفهم على المعاش ورد الله عز وجل عليهم بأسلوب بلاغي في غاية الوضوح إذ استخدم أساليب الشرط، والاستفهام للتوبيخ، والتقريع، والاستدراك.

سابعاً: التخبط في الظلام

من أحوال الكفار والمشركين الفكرية التخبط في الظلام، واستخدام كلمة "نور" للإيمان و"ظلمات" للكفر كثير في القرآن الكريم، نحو قوله تعالى ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ^٣﴾ ، وقال تعالى ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^٤﴾ ، فالمراد بالنور "لغة: الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار، وذلك ضربان دنيوي، وأخروي، فالدنيوي ضربان: ضرب معقول بعين البصيرة، وهو ما انتشر من الأمور الإلهية كنور العقل ونور القرآن. ومحسوس بعين البصر، وهو ما انتشر من الأحسام النيرة كالقمريين والنجوم

١ العنكبوت: ٦٧

٢ قريش: ٣، ٤

٣ النقرة ١٧

٤ السورة نفسها. ٢٥٧

والتَّيْرَاتِ"¹. فمن التور الإلهي قوله تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾² ، وقال تعالى ﴿مَا كُنْتُ تَذِيرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾³ وقال ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾⁴ ، وعكسها الظلام وجمعه ظلمات وهي لغة عدم النور⁵ يقول الله عزوجل:

﴿أَوْمِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾⁶.

هذه الآية مقارنة بين حال المؤمن وحال الكافر⁷، ومن أسباب ضلال الكفار هو أن هناك شياطين من الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، وقلب الكافر منقطع عن الحياة ونور الإيمان، يسمع لهذه الوسواس ويتوجه إليها وهو محروم عن صلاحية تمييز الهدى من الضلال في ذلك الظلام الشديد، وكذلك زين للكافرين أعمالهم الباطلة، والمراد بالكافرين في قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ﴾⁸ المشركون الذين أشير إليهم في قوله تعالى ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾⁹. أما الألوان البلاغية في الآية فهي كالآتي.

من بلاغة النظم القرآني

- ١ المعردات في عريب القرآن، كتاب النون، تحت مادة نور، ص ٥٣١
- ٢ المائدة: ١٥
- ٣ الشورى ٥٢
- ٤ المعردات في عريب القرآن: كتاب الطاء، تحت مادة ظلم، ص ٣٢٧
- ٥ الأنعام: ١٢٢
- ٦ وفي المقارنة بين المؤمنين والكافر وردت آيات كثيرة، منها: للملك ٢٢، هود ٢٤، فاطر ١٩ - ٢٣
- ٧ الأنعام. ١٢١

في قوله **﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ﴾** "الهمزة للاستفهام المستعمل في إنكار تماثل الحالتين، فالحالة الأولى حالة الذين أسلموا بعد أن كانوا مشركين، وهي المشبهة بحال مَنْ كان مَيِّتًا مودعاً في ظلمات، فصار حياً في نور واضح، وسار في الطريق الموصلة للمطلوب بين الناس، والحالة الثانية حالة المشرك وهي المشبهة بحالة مَنْ هو في الظلمات ليس بخارج منها، لأنه في ظلمات"^١، ويوجد الطباق من الألوان البديعية بين اسم **﴿مَيِّتًا﴾** وفعل **﴿فَأَخْيَيْنَاهُ﴾**^٢

والواو في قوله **﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا﴾** عاطفة لجملة الاستفهام على جملة **﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾**^٣ لتضمن قوله **﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾**، فلما حذر الله المسلمين من دسائس أولياء الشياطين ومجادلتهم بقوله **﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾** أعقب ذلك بتفطيع حال المشركين، ووصف حسن حالة المسلمين حين فارقوا الشرك. وفي الكلام إيجاز حذف، استغناء بالمذكور عن المحذوف: فقوله **﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا﴾** معناه: أحوال مَنْ كان ميتاً، أو صفة مَنْ كان ميتاً. استخدام صيغة الجمع المتكلم (نا) في الجملة **﴿فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾** يوحي للقارئ العظمة والقدرة الكاملة لله **﴿عَزَّ وَجَلَّ﴾**، وقوله **﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾** يدل على أن المشبه به حال مَنْ كان ميتاً في ظلمات.

وجملة **﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾** "استئناف مبيِّن على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل فماذا يصنع بذلك النور فقيل **﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾** أي فيما بينهم آمناً من جهتهم أو صفة له"^٤، وقد تبين بهذا التمثيل تفضيل أهل استقامة العقول على أضدادهم. والباء في قوله: يَمْشِي بِهِ بَاء السببية. والناس المصرح به في الهيئة المشبه بها هم الأحياء الذين لا يخلو عنهم

١ التحرير والتوير: ٨-١ | ٤٣

٢ ينظر: دكتور عبد العظيم المطعني، الدعي من المعاني والألفاظ، دار ومدان للطباعة والنشر، ط ١،

ص ١٢

٣ الأعام. ١٢١

٤ تفسير أبي السعود: ٣ | ١٨٠

المجتمع الإنساني. والناس المقدر في الهيئة المشبهة هم رفقاء المسلم من المسلمين. وقد جاء المركب التمثيلي تاماً صالحاً لاعتبار تشبيه الهيئة بالهيئة، ولاعتبار تشبيه كل جزء من أجزاء الهيئة المشبهة بجزء من أجزاء الهيئة المشبه بها، كما قد علمته وذلك أعلى التمثيل^١.

﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ "تقديره: كمن مثله مثل ميتفما صدق 'مَنْ' ميت بدليل مقابلته بميت في الحالة المشبهة، فيعلم أن جزء الهيئة المشبهة هو الميت لأن المشبه والمشبه به سواء في الحالة الأصلية وهي حالة كون الفريقين مشركين^٢، "ولفظ (مثل) بمعنى حالة، ونفي المشابهة هنا معناه نفي المساواة، ونفي المساواة كناية عن تفضيل إحدى الحالتين على الأخرى تفضيلاً لا يلتبس، فذلك معنى نفي المشابهة كقوله ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾^٣ وقوله ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾^٤، والكاف في قوله ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ كاف التشبيه، وهو تشبيه منفي بالاستفهام الإنكاري، والكلام جار على طريقة تمثيل حال من أسلم وتخلص من الشرك بحال من كان ميتاً فأحيي، وتمثيل حال من هو باق في الشرك بحال ميت باق في قبره^٥.

"شبه الكفر بالظلمات والإيمان بالنور وذلك من أحسن التشبيهات لأن الكفر كالظلمة التي يتسكع فيها الخابط ويضل القاصد، والإيمان كالنور الذي يؤمه الجائر ويهتدي به الحائر، وعاقبة الإيمان مضيئة بالنعيم والثواب، وعاقبة الكفر مظلمة بالجحيم والعذاب. وأفرد النور وجمع الظلمات لأن الحق واحد لا يتعدد وأما طرق الضلال فكثيرة ومتشعبة^٦.

١ التحرير والتوير: ٨-أ/ ٤٥

٢ المرجع نفسه: ٨-أ/ ٤٣، ٤٤

٣ الرعد: ١٦

٤ السجدة: ١٨

٥ التحرير والتوير: ٨-أ/ ٤٤

٦ بيطر: صعوة التفاسير: ١/ ١٤٨

وجملة ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ "استئناف بياني"، لأن التمثيل المذكور قبلها يثير في نفس السامع سؤالاً، أن يقول: كيف رضوا لأنفسهم البقاء في هذه الضلالات، وكيف لم يشعروا بالتبون بين حالهم وحال الذين أسلموا؟ فإذا كانوا قبل مجيء الإسلام في غفلة عن انحطاط حالهم في اعتقادهم وأعمالهم، فكيف لما دعاهم الإسلام إلى الحق ونصب لهم الأدلة والبراهين بقوا في ضلالهم لم يقلعوا عنه وهم أهل عقول وفطنة فكان حقيقاً بأن يبين له السبب في دوامهم على الضلال، وهو أن ما عملوه كان تزينه لهم الشياطين^١.

وحذف فاعل التزيين في جملة ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ﴾ فبني الفعل للمجهول لأن المقصود وقوع التزيين لا معرفة فاعله، ومن المعلوم أن المزيين شياطينهم وأولياؤهم، كقوله ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾^٢، وقد يمكن أن يكون حذف الفاعل هنا للتحقير والتقبيح، والله أعلم.

وخلاصة القول أن هذه الآية ترسم صورة بلاغية رائعة جداً بحيث إنها تربط بين طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر في صورة بلاغية مؤثرة للغاية حيث تشير إلى أن عقيدة التوحيد تنشئ في القلب حياة بعد الموت، والكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الأزلية الأبدية - التي لا تفنى - فهو موت، وإن الإيمان ينير طريق الحياة فهو نور بكل مقومات النور، والكفر حجاب الروح عن طريق الحق وتيه في تيه فهو ظلمة، وعندما يجد الإنسان في قلبه النور يجد الوضوح في كل شأن وفي كل أمر من أمور الحياة، والكافر منقطع الصلة بخالق الكون، فهو منقطع الصلة بالكون مثل الميت، لا يمكن له أن يخرج من ظلمات القبر، أفمن نفخ الله في روحه الحياة، وأفاض على قلبه النور كمن حاله أنه ميت في الظلمات، لا يخرج له منها؟ والحق أنهما عالمان مختلفان شتان بينهما شتان!^٤

١ الاستئناف "هو الإتيان بعد تمام كلام يقول يفهم منه جواب سؤال مقدر" معجم المصطلحات البلاغية

وتطورها، ١/ ١٠١

٢ تفسير أبي السعود: ٣/ ١٨٠

٣ الأنعام: ١٣٧، بظر التحرير والتوير: ٨-٨/ ٤٦

٤ بظر: في طلال القرآن: ٣/ ١٣٧، ١٣٨



المبحث الثاني:

من بلاغة النظم القرآني في بيان

أحوال الكفار والمشركين العملية المتعلقة بإنكارهم الدعوة



المدخل:

تقدم فيما مضى أن الكفار والمشركين لم يقبلوا دعوة سيدنا محمد ﷺ بسبب حالتهم الفكرية، ويشتمل هذا المبحث على بيان حالة الكفار والمشركين العملية المتعلقة بإنكارهم الدعوة، وقد أثرت حالتهم الفكرية على سلوكياتهم العملية حيث قاموا بمعارضة الدعوة قولاً وعملاً، ودارت معارضتهم هذه حول محاور ثلاثة وهي الشرك، وتكذيب الرسول ﷺ وإنكار البعث بعد الموت. وإذا نظرنا إلى منهج الإعراض الذي اتبعوه لوجدناه ينقسم إلى قسمين أساسيين هما:

أ- الإعراض بالأقوال

ب- الإعراض بالجوارح

واليكم تفاصيل هذين القسمين.

أ. الإعراض بالأقوال:

ذكر القرآن الكريم إعراض الكفار والمشركين عن دعوة سيدنا محمد ﷺ في عدة آيات، ويبن إعراضهم بالأقوال بأساليب متنوعة، ويمكن تصنيف أقوالهم المبنية على الإعراض فيما يلي:

- إنكار التوحيد
- إنكار الرسالة
- إنكار الوحي
- إنكار القيامة

والتفصيل كالآتي:

أولاً: إنكار التوحيد

من المعلوم أن الكفار والمشركين كانوا يعتقدون في فكرة الآلهة المتعددة، ومع هذا فإن قارئ القرآن الكريم يرى في مواطن كثيرة مختلفة اعترافهم بوجود الله عز وجل وقدرته وتصرفه في الكون. ومع ذلك فهم مصرون على إنكار وحدانية الله ﷻ، والدليل على ذلك قوله تعالى:

﴿ قُلْ لَعَنَ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ قُلْ مَنْ يَدِينُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾^١، وفي سورة الزحرف قال ﷺ : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾^٢

تدل هذه الآيات على أن دلائلهم على الشرك ليست مبينة على العلم واليقين، ولم تكن لديهم أسس عقلية يبرزون من خلالها جعل الأنداد لله عزوجل، كما ينقل القرآن الكريم ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِئْتُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾^٣ وقوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾^٤.

تمثل الآيات القرآنية التالية الدهشة والاستغراب والمفاجأة التي تلقى بها كبار المشركين في مكة دعوة النبي ﷺ لهم إلى توحيد الله ﷻ ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ ﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلهًا وَاحِدًا إِنْ هَذَا إِلَّا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴾ ﴿ وَأَنْطَلِقُ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾^٥.

١ المؤمنون: ٨٤ - ٨٩

٢ الزحرف: ٩

٣ يونس: ١٨

٤ الحل: ٣٥، ويطر الأسياء ٢٦، الرمر: ٣، ٤٣

٥ سورة ص ١٥، ١٦، ٧

كما ذكر قبل قليل أن الكفار والمشركين كانوا راسخين في عبادة الأوثان منذ وقت آبائهم، فلما دعاهم رسول الله ﷺ إلى خلع الأوثان وإفراد الإله بالوحدانية، استعظموا ذلك وتعجبوا من ترك الشرك بالله عزوجل. وقد ذكر الإمام الطبري أن كبار قريش شكوا النبي ﷺ إلى أبي طالب، "وقالوا: إنه يقع في آهتنا، فقال: يا ابن أخي ما تريد إلى هذا؟ قال: "يا عم إني أريدكم على كلمة تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم العجم الجزية" قال: وما هي؟ قال: "لا إله إلا الله"، فقالوا ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ وأنطلق الملائكة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خِتِلَاقٌ ﴾^١، ولنستخرج الألوان البلاغية من هذه الآيات.

من بلاغة النظم القرآني:

جملة ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ عطف على الجملة ﴿يَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾، وبسبب عطف الجملة على الجملة "ازداد معنى الجمع في 'الواو' قوة وظهورا، وكان الأمر حينئذ صريحا"^٢، وهذا من باب الوصل في غاية الاتصال. وقد وصف الله عزوجل نبيه بالمنذر في قوله ﴿أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ لأن كلمة "المنذر" تطلق على كل من ينصح قومه، وينذرهم من المخاطر التي قد تكون سببا في إيذائهم ونقصانهم. والله أعلم.

﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاجِرٌ كَذَابٌ﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير "ولم يقل 'وقالوا' بل قال: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ إظهارا للتعجب والغضب عليهم ودلالة على أن هذا القول لا يصدر إلا عن الكفر التام، ودلالة على أن هذا القول لا يجسر عليه إلا الكافرون المتوغلون في الكفر المنهمكون في الغي وهل ترى كفرا أعظم وجهلا أبلغ من أن يسموا من

١ تفسير الطبري: ٢١ | ١٥١

٢ سورة ص: ٢

٣ كتاب دلائل الإعجاز، ص ٢٢٦

صدقه الله بوحيه كاذبا، ويتعجبوا من التوحيد، وهو الحق الذي لا يصح غيره، ولا يتعجبوا من الشرك وهو الباطل الذي لا وجه لصحته.^١

وقد جاءت كلمتان «سَاجِرٌ كَذَّابٌ» نكرتان للتعظيم والتكثير في السحر والكذب، والله أعلم. وجملة «أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا» بيان لجملة «هذا سَاجِرٌ كَذَّابٌ»^٢ والهمزة في «أَجْعَلِ» للاستفهام الإنكاري التعجبي.^٣

تبدو كلمة 'عُجَابٌ' في قوله تعالى «إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ» أكثر تناسبا معنا لأن معنى العجب "ما لا يعرف سببه"^٤، "والعجاب الذي تجاوز حد العجب"،^٥ ولفظاً لأنها توافق الفواصل التي تزيد الكلام روعة وبهاء وجمالا، وتأکید الجملة «إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ» بَيَانٌ واللام لزيادة التعجب والإنكار منهم.^٦

وحقيقة الانطلاق الانصراف والمشي، وتستخدم مجازا للشروع في الكلام، ولما أسند الانطلاق إلى الملائكة منهم على أنهم ما كانوا لينطلقوا إلا لتدبير في ماذا يصنعون فكان ذلك مقتضيا تخاورا وتقاولا احتيج إلى تفسيره بجملة أن امشوا واصبروا على آهتكم إلخ^٧، «أَلَمَلَأْ مِنْهُمْ» أي من أشرف قريش لأنه يخص ذوي الشرف الذي يملئون العيون بها^٨.

١ الكشاف: ٤ | ٧٢، ويطر التفسير الكبير: ٢٦ | ٣٦٧

٢ سورة ص: ٤

٣ يطر: التحرير والتنوير: ٢٣ | ٢١٠

٤ المعردات في غريب القرآن: كتاب العين، ص ٣٣٤

٥ محمد بن مكرم بن علي، أبو الفصّل، جمال الدين ابن منظور الأصبّاري (المتوفى: ٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط ٣، ١٤١٤ هـ. حرف الناء، فصل العين المهملة، ١ | ٥٨١

٦ يطر: التفسير الكبير: ٢٣ | ١٦٤

٧ يطر: التحرير والتنوير: ٢٣ | ٢١١

٨ يطر: الحفّاخي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر، القاصي (المتوفى: ١٠٦٩هـ)، حاشية الشهاب المسماة عناية القاصي وكفاية الراي على تفسير البضاوي، للإمام أبي سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد

﴿أَنْ اَمْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ "والأمر بالمشي يحتمل أن يكون حقيقة، أي انصرفوا عن هذا المكان - مكان المجادلة - واشتغلوا بالشبّات على آلهتكم. ويجوز أن يكون مجازاً في الاستمرار على دينهم"^١ وفي ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ حذف مضاف وتقديره عبادة (أي: اثبتوا على عبادة آلهتكم)^٢، ونظير هذا قوله ﷺ ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾^٣، وفي ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ التقييد وهذا يدل على أنهم علمون به في الملة الأولى وهي ملة إبراهيم عليه السلام إلى عمرو بن لحي الذي جاء بالأصنام إلى أهل مكة أول مرة^٤.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خِتِلَاقٌ﴾ أي "وما هذا إلا افتعال وكذب."^٥، لأن كلمة اختلاق تعني "تخرص وكذب"^٦، وهنا قصر بالنفي والاستثناء للدلالة على أن الكفار يزعمون أن خبر التوحيد كذب مفترى.

وقال الزبيدي: "ومن المجاز: خلق الإفك خلقاً: إذا افتراه، كاختلقه وتخلقه"^٧ ومنه قوله ﷺ: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾^٨

(المتوفى ٦٩١هـ)، صسطه وشرح آياته وأحاديثه: الشيخ عبدالرزاق المهدي، دارالكتب العلمية بيروت - لبنان،

ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ٨ | ١٢٥

١ التحرير والتوير: ٢٣ | ٢١١

٢ يطر: حاشية الشهاب ٨ | ١٢٥

٣ العرقان: ٤٢

٤ "عمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو ابن عامر الأردني، من قحطان: أول من غيّر دين إسماعيل ودعا العرب إلى

عبادة الأوثان". حير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الرركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)،

الأعلام، دار العلم للملايين، ط ١٥ - أيار / مايو ٢٠٠٢ م، ٥ / ٨٤

٥ يطر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١٦ | ٣٣١

٦ الكشف: ٤ | ٧٣

٧ تاج العروس من حواهر القاموس، باب القاف، فصل الحاء مع القاف، مادة حلق، ٢٥ | ٢٥٢

٨ المصدر نفسه: ٢٥ | ٢٥١

تبين هذه الآيات حالة الكفار العملية المتعلقة بإنكار التوحيد في غاية الوضوح مستخدمة الألوان البلاغية نحو الوصل، والمجاز، ووضع الظاهر في موضع الضمير، التنكير، القصر بالنفي والاستثناء وغيرها حتى يفهم القارئ بأنهم يمشون في الأرض مستكبرين، وهم متعصبون، ولا ينتفعون بالوعي والعقل، ولا يقبلون الحق بل هم مستمسكون بأفكارهم القديمة ولو كانت حاطة.

ثانياً: إنكار الرسالة

قد جاء الكفار والمشركون باعتراضات عديدة على الرسول سيدنا محمد ﷺ، ومنها الطعن في بشريته، "وإنه الاعتراض المكرر الذي رددته البتيرية عن كل رسول! كيف يمكن أن يكون فلان ابن فلان، المعروف لهم، المؤلف في حياتهم، الذي يأكل كما يأكلون، ويعيش كما يعيشون .. كيف يمكن أن يكون رسولا من عند الله يوحى إليه؟ كيف يمكن أن يتصل بعالم آخر غير عالم الأرض يتلقى عنه؟ وهم يرونه واحدا منهم من لحم ودم. وهم لا يوحى إليهم، ولا يعرفون شيئا عن ذلك العالم الذي يأتي منه الوحي لواحد منهم. ---والذين لا يدركون قيمة البشر، ولا حقيقة التكريم الذي أراده الله له، ينكرون أن يتصل بشر بالله عن طريق الوحي وينكرون أن يكون واحد من هؤلاء البشر رسولا من عند الله، ويرون الملائكة أولى بهذا وأقرب"^٢.

فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يريهم آيات من الله ﷻ التي تدل على صدق كونه رسولا من عند الله فتارة طلبوا أن ينزل الله ﷻ عليه الملائكة وتارة سألوه أن يأمر السماء فتسقط عليهم كسفاً وأخرى طلبوا منه أن يخرج لهم من الأرض أنهاراً فتكون له جنة من نخيل وأعنان، يقول الله عز وجل مشيراً إلى مطالبهم هذه في مواضع متعددة في القرآن الكريم^٣،

١ العنكوت: ١٧

٢ في طلال القرآن ٥/ ٢٥٥٢

٣ يطر: الأعام: ٣٧، يوس: ٢٠، هود: ١٢، الرعد: ٢٧، الفرقان: ٢١، العنكوت: ٥٠

ومها ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾^١ و ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾^٢ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعَنْبٌ فَتَعَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾^٣ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِغًا وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا﴾^٤ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾^٥ و ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^٦.

ولا استخراج الألوان البلاغية ندرس الآية التالية أنموذجا في إنكار الكفار والمشركين
لرسالة سيدنا محمد ﷺ:

﴿وَقَالُوا مَا لِيْ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾^١ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾^٢
من بلاغة النظم القرآني:

﴿وَقَالُوا مَا لِيْ هَذَا الرَّسُولِ﴾ "انتقال من حكاية مطاعنهم في القرآن وبيان إبطالها إلى حكاية مطاعنهم في الرسول ﷺ"، والضمير في ﴿وَقَالُوا﴾ عائد إلى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وفي جملة ﴿مَا لِيْ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ استفهام يراد به التهكم والتحقير^٣، وقال الريحشري أن

- ١ الأعمام. ٨
- ٢ الإسراء ٩٠-٩٣
- ٣ الرعد: ٧
- ٤ العرقان ٧، ٨
- ٥ التحرير والتبوير: ١٨ | ٣٢٦
- ٦ العرقان: ٤، ويطر: التحرير والتبوير. ١٨ | ٣٢٦
- ٧ التفسير المير. ١٩ | ١٩

في جملة ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ﴾ "استهانة وتصغير لشأنه وتسميته بالرسول سخريه منهم وطنز، كأنهم قالوا ما لهذا الزاعم أنه رسول"^١، ونحوه قول فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَخْتُونٌ﴾^٢، و﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ كناية عن الحدث، لأنه ملازم أكل الطعام، وقوله ﴿يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ كناية عن طلب المعاش^٣، "وكنوا يأكل الطعام والمشي في الأسواق عن مماثلة أحواله لأحوال الناس تدرعا منهم إلى إبطال كونه رسولا لزعمهم أن الرسول عن الله تكون أحواله غير مماثلة لأحوال الناس، وحصوا أكل الطعام والمشي في الأسواق لأحدهما من الأحوال المشاهدة المتكررة"^٤، وردَّ الله عليهم قولهم هذا بقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾^٥.

﴿لَوْلَا أَنْزَلْ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ "﴿لَوْلَا﴾ حرف تخصيص مستعمل في التعجيز، أي لو أنزل إليه ملك لا تبعناه. وانتصب ﴿فَيَكُونُ﴾ على جواب التخصيص. و ﴿أَوْ﴾ للتحجير في دلائل الرسالة في وهمهم. ومعنى ﴿يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ أي يزل إليه كنز من السماء، إذ كان العنى فتنة لقلوبهم، وجعلوا إعطاء حنة له علامة على البوءة لأن وجود الجنة في مكة حارق للعادة"^٦.

"وأراد بالظالمين في قوله تعالى ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾ إياهم بأعيانهم وضع الظاهر موضع المضمّر ليسجّل عليهم بالظلم فيما قالوا"^٧، ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ "والمسحور الذي أصابه السحر، وهو يورث اختلال العقل عندهم، أي ما تتبعون إلا رجلا أصابه خلل

١ الكشاف: ٣ / ٢٦٥، ويطر بطم الدرر: ١٣ / ٣٤٣

٢ الشعراء: ٢٧

٣ يطر. حاشية الشهاب ٧ / ١٠٤

٤ التحرير والتنوير. ١٨ / ٣٢٧

٥ العرقان. ٢٠

٦ التحرير والتنوير. ١٨ / ٣٢٣، ٣٢٨

٧ الكشاف. ٣ / ٢٦٥

العقل فهو يقول ما لا يقول مثله العقلاء. وذكر رجلا هنا لتمهيد استحالة كونه رسولا لأنه رجل من الناس. وهذا الخطاب خاطبوا به المسلمين الذين اتبعوا النبي ﷺ، ولعل التنكير في ﴿رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ للتحقير والإنكار، والله أعلم.

تُستجج مما سبق أن اعتراضات الكفار والمشركين في رسالة سيدنا محمد ﷺ في غاية السخافة والسقوط، ولا دليل عليها، وإنما هو هروب من الحق. وقد أشار الله ﷻ إلى هذه الحقيقة في سورة الأنعام ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾^١، وبين القرآن إنكار الكفار والمشركين لرسالة سيدنا محمد ﷺ بأسلوب الاستفهام يراد به التهمك والتحقير، والكناية، ووضع الظاهر في موضع المضمرة التي تدل على شدة إنكارهم وبعض قلوبهم.

ثالثاً: إنكار الوحي

لما نزل القرآن الكريم مع البراهين القاطعة على وحدانية الله عز وجل، والأخبار عن الحياة بعد الممات، وفكرة الجزاء والعقاب، كان من الصعب على الكفار والمشركين أن يقبلوا ذلك، قد افترى الكفار على القرآن الكريم عدة افتراءات، وكانوا يأتون بالاعتراضات لا للبحث عن الحقيقة بل لإثارة الفتنة ولتأويل إنكارهم للوحي، كما أشار الله ﷻ إلى ذلك بقوله ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾^٢، ذكر القرآن الكريم اعتراضهم أيضاً في سورة الفرقان ﴿وَقَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِن هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ

١ التحرير والتوير: ١٨ | ٣٢٩

٢ الأنعام: ٧

٣ الرحمن: ٢٩-٣١

وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٥﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۚ

وينقل القرآن الكريم اعتراض هؤلاء الكفار والمشركين على تنزيل القرآن الكريم منجماً بقوله عز وجل ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾^١

ولنتناول هذه الآية الكريمة بدراسة الألوان البلاغية فيها.

من بلاغة النظم القرآني:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ "جملة استئنافية وضمير ﴿وَقَالَ﴾ ظاهر في أنه عائد إلى المشركين، وهذا جهل منهم بنسبة كتب الرسل فإنها لم ينزل شيء منها جملة واحدة وإنما كانت وحياً مفرقاً." ^٢

طعنوا في القرآن بأنه نزل منجماً؛ فقالوا ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ ويرى صاحب الكشف بأن ﴿نُزِّلَ﴾ هاهنا بمعنى أنزل... معناه: لم أنزل مفرقاً؟ والدليل على فساد هذا الاعتراض: أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه، وتحذوا بسورة واحدة من أصغر السور، فأبرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على أنفسهم حين لاذوا بالمناسبة وفزعوا إلى المحاربة، ثم قالوا: هلا نزل جملة واحدة، كأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملة، ﴿جُمْلَةً﴾ حال بمعنى دفعة و ﴿وَاحِدَةً﴾ صفة مؤكدة له ^٣.

١ المرقان. ٤، ٥

٢ المرقان. ٣٢

٣ التحرير والتنوير ١٩ | ١٨

٤ الكشف: ٣ | ٢٧٨، ويطر حاشية الشهاب: ٧ | ١٢٩

٥ حاشية الشهاب: ٧ | ١٢٨

﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ و**﴿كَذَلِكَ﴾** مركب من كاف التشبيه واسم الإشارة فيتعين تعرف المشار إليه وما هو المشبه به، --- وتأخير المشار إليه عن الإشارة استعمال بليغ في مقام التشويق.^١

"واللام في **﴿لِنُثَبِّتَ﴾** متعلقة بالفعل المقدر الذي دل عليه **﴿كَذَلِكَ﴾**"^٢، ويقول القرطبي "ويجوز أن يكون الوقف على قوله **﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾** ثم يتدنى **﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾** على معنى أنزلناه عليك كذلك متفرقا لنثبت به فؤادك"^٣، الثبات ضد الزوال، "والتثبيت جعل الشيء ثابتا، والثبات استقرار الشيء في مكانه غير متزلزل قال تعالى **﴿كَلِمَةً طَبِيبَةً كَشَجَرَةٍ طَبِيبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾**"^٤ ويستعار الثبات لليقين وللاطمئنان بحصول الخير لصاحبه كما قال تعالى: **﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا﴾**^٥، وهي استعارات شائعة مبنية على تشبيه حصول الاحتمالات في النفس باضطراب الشيء في المكان، تشبيه معقول بمحسوس، و**﴿الْفُؤَادُ﴾** هما العقل. وتثبيته بذلك الإنزال جعله ثابتا في ألفاظه ومعانيه لا يضطرب فيه، وجاء في بيان حكمة إنزال القرآن مجما بكلمة جامعة وهي **﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾** لأن تثبيت الفؤاد يقتضي كل ما به خير للنفس"^٦.

ويقول الإمام بن الحفاجي في شرح **﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ﴾** "أي في نزوله حالا فحالا ترويح لنفسه وتثبيت لفؤاده كما إن كتب المحبوب إذا تواصلت نحوه جددت له محبة ونشاطا"^٧،

١ التحرير والتوير: ٢ | ١٥، ١٧

٢ التحرير والتوير: ١٩ | ١٩

٣ تفسير القرطبي: ١٣ | ٢٨

٤ يطر: المفردات في غريب القرآن. كتاب البناء، تحت مادة ثت، ص ٨٣

٥ إبراهيم ٢٤

٦ النساء. ٦٦

٧ التحرير والتوير: ١٩ | ١٩

٨ حاشية الشهاب: ٧ | ١٢٩

"وجاء قوله ﷺ: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ رداً على طعنهم، فهو كلام مستأنف فيه رد لما أرادوه من قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ وعدل فيه عن خطابهم إلى خطاب الرسول ﷺ إعلاما له بحكمة تنزيله مفرقا، وفي ضمنه امتنان على الرسول ﷺ بما فيه تثبيت قلبه والتيسير عليه".^١

﴿وَرَتَّلْنَاهُ﴾ معطوف على الفعل الذي تعلق به 'كذلك'، كأنه قال كذلك فرقناه ورتلناه. ومعنى ترتيله أن قدره آية بعد آية، ووقفه عقيب وقفة"^٢، و"تنكير ﴿ترتيلاً﴾ للتفخيم أي كذلك نزلناه ورتلناه ترتيلاً بديعاً".^٣

ويمكن أن تستخلص مما سبق أن القرآن الكريم نزل منجماً ليكون منهج تربية ومنهاج حياة، وهو جاء لينفذ حرفاً حرفاً وكلمة كلمة، وتكليفاً تكليفاً. من أجل هذا كله نزل القرآن مفصلاً. وأما اعتراض الكفار والمشركين فلا قيمة له. هم يأتون بافتراءات متنوعة على القرآن الكريم ولكن دلائلهم ليست مبنية على الإلتقان، بل هم يظنون بالله الظنونا. ولقد جاء القرآن الكريم ليكون منهج تربية ومنهاج حياة لا ليكون كتاب ثقافة يقرأ لمجرد اللذة أو لمجرد المعرفة. والتربية تحتاج إلى زمن كاف وفترة مناسبة، لأن النفس البشرية لا تتحول تحولا كاملاً شاملاً بين يوم وليلة بقراءة كتاب كامل شامل للمنهج الجديد. إنما تتأثر يوماً بعد يوم بطرف من هذا المنهج. وجاء القرآن الكريم منجماً وفق الحاجات الحية للجماعة المسلمة لينفذ حرفاً حرفاً وكلمة كلمة؛ لأن الله ﷻ أرسل رسوله لتنفيذ دينه المختار تنفيذاً كاملاً، كما قال ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^٤

١ التحرير والتنوير. ١٩ / ١٩

٢ الكشف. ٣ / ٢٧٨

٣ تفسير أبي السعود: ٦ / ٢١٦

٤ بطلر في طلال القرآن ٥٠ / ٢٥٦٢، ٢٥٦٣

٥ الصف. ٩

رابعاً: إنكار القيامة

كان الكفار والمشركون يتعجبون من فكرة البعث بعد الموت والثواب والعقاب، وقد ذكر القرآن الكريم أقوالهم عن إنكار الآخرة في كثير من الآيات، ومنها ﴿قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^١، وقوله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٨٣﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^٢.

كانوا مطمئنين أنهم لا ينشرون بعد الموت ولا يحاسبون، كما يتضح ذلك من قولهم ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُتَرَبِّينَ﴾^٣ حتى اجتروا على التحدي ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^٤، وكانوا يسألون النبي ﷺ استنكاراً واستهزاء ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^٥، وقد وردت هذه العبارة ست مرات في القرآن الكريم^٦.

وذكر القرآن الكريم حالة إنكار الكفار والمشركين للآخرة والبعث والحساب في سورة الجاثية بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّوْا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^٧

ولنأخذ هذه الآيات مثلاً لاستخراج الألوان البلاغية منها:

- ١ المومنون ٨٢، ٨٣
- ٢ النمل ٦٧، ٦٨
- ٣ الدخان ٣٥
- ٤ السورة نفسها: ٣٦
- ٥ يونس ٤٨
- ٦ بقر الأنبياء ٣٨، النمل ٧١، ساء ٢٩، يس ٤٨، الملك: ٢٥
- ٧ الجاثية ٢٤، ٢٥

من بلاغة النظم القرآني:

جملة **﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾** معطوفة على الجملة **﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾**^١، وفي قولهم **﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾** اقتصار الحياة على ما في الدنيا^٢، وهو القصر بالنفي والاستثناء^٣، "وغاية القصر تمكين الكلام وتقريره في الذهن، وقد يراد بالقصر المبالغة في المعنى"^٤.

في **﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾** يوجد الطباق^٥ من الألوان البديعية، والمراد بها "نموت نحن ونحيا أولادنا أو نموت بعض ونحيا بعض أو نكون مواتا نطقا في الأصلاب، ونحيا بعد ذلك أو يصيبنا الأمران: الموت والحياة، يريدون: الحياة في الدنيا والموت بعدها، وليس وراء ذلك حياة"^٦.

وفي قولهم **﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾** استناد الحياة والموت إلى الدهر^٧ وهو القصر بالنفي والاستثناء. لماذا؟ وكيف؟ "كانوا يزعمون أنَّ مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس، وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله، وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان"^٨.

١ الحاشية: ٢١

٢ يطر: التحرير والتوير: ٢٥ | ٣٦١

٣ يطر: تفسير أبي السعود: ٨ | ٧٣

٤ من بلاغة النظم القرآني: دكتور بسيوي عبدالفتاح، ص ١٦٥

٥ السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والديع، مكتبة الآداب القاهرة، ط ١، ١٤٢٠ هـ -

١٩٩٩ م، ص ١٥٧

٦ طباق هو التصاد (والتصاد أن جمع بين الصدين مع مراعاة التقابل "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٢ /

٢٥٢) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٣ / ٦٦

٧ الكشف: ٤ | ٢٩١

٨ المرجع نفسه. ٨ | ٧٣

٩ الكشف: ٤ | ٢٩١

وفي الجملة ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ 'ذَلِكَ' اسم إشارة للبعيد، و 'مِنْ' للتبعيض أي هم بعيدون من علم، وليس عندهم أي حظ من علم، وتنكير كلمة 'علم' لتفخيم العلم وتعظيمه، والله أعلم.

وفي ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ القصر الحقيقي^١. والمراد به أن ليس لهم علم إلا اتباع الظن، والمراد بالظن هنا ما ليس بعلم فهو هنا التخيل والتوهم وجملة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ مبنية لجملة ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أو استئناف يباين كأن سائلا حين سمع قوله ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ سأل عن مستندهم في قولهم ذلك فأجيب بأنه الظن المبني على التخيل. وجيء بالمضارع في ﴿يَظُنُّونَ﴾ لأنهم يجددون هذا الظن ويتلقاه صغيرهم عن كبيرهم في أجيالهم وما هم بمقلعين عنه^٢.

﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ "وتقديم الظرف في قوله: ﴿وَإِذَا تُلَىٰ﴾ على عامله وهو ﴿قَالُوا أَتُتَوَّأ بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ للاهتمام بذكر ذلك الوقت الذي تتلى فيه الآيات عليهم^٣، "وايراد فعل التلاوة مبنيا للمفعول مسندا إلى الآيات دون رسول الله ﷺ في ﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ بنائه للفاعل للإشعار بعدم الحاجة لتعين التالي، وإضافة ضمير الجمع المتكلم في ﴿آيَاتُنَا﴾ لتشريف المضاف والترغيب في الإيمان به والترهيب عن تكذيبه، و﴿بَيِّنَاتٍ﴾ حال كون الآيات واضحات الدلالة والدالة على أحقية التوحيد وبطلان الشرك^٤.

﴿وَمَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّتُوا بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يوجد القصر بالنفي والاستثناء، وهو من أقوى أنواع القصر، "والخطاب بفعل ﴿اتُّتُوا﴾ موجه للمؤمنين بدحول الرسول ﷺ. و﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ استثناء من حجتهم وهو يقتضي تسمية كلامهم هذا حجة وهو

١ الإيضاح: ٨٤

٢ التحرير والتوير: ٢٥ | ٣٦٣

٣ المرجع نفسه. ١١ | ١١٧

٤ تفسير أبي السعود: ٤ | ١٢٨

ليس بحجة إذ هو بالبهتان أتبه فإما أن يكون إطلاق اسم الحجة عليه على سبيل التهكم بهم، وإما أن يكون إطلاق اسم الحجة على كلامهم جرى على اعتقادهم، وتقديرهم دون قصد تهكم بهم^١.

إنّ هذه الآيات تشير بوضوح بيّن إلى إنكار صريح للقيامة وتكذيب للبعث من قبل الكفار والمشركين، وقولهم ﴿ما يهلكنا﴾ دليل على أن مرور الأيام والليالي هو المفني والمهلك للأنفس، أي بالطبيعة، وهذا إنكار بيّن للإله الفاعل المختار، واستخدام أسلوب القصر بالنفي والاستثناء يبين موقفهم وغاية الضلال في فكرهم عن يوم القيامة.

ب. الإعراض بالجوارح:

لقد ذكرنا فيما سبق إعراض الكفار والمشركين عن دعوة سيدنا محمد ﷺ بأقوالهم، والآن نتناول إعراضهم عن قبول الدعوة الإسلامية بالجوارح التي تكمن في سلوكهم للطرق الآتية:

• الاستهزاء والسخرية

• المكر والكيد

• إضلال الناس بغير علم

• المجحد والمجادلة

• التقليد الأعمى لآبائهم

• الصّد عن سبيل الله ﷻ

• القتال في سبيل الطاغوت

وإليكُم الآن تفاصيل إعراض الكفار والمشركين عن دعوة سيدنا محمد ﷺ بالجوارح.

أولاً: الاستهزاء والسخرية

كان الكفار والمشركون يجترؤون أن يسخروا بآيات الله ﷻ، ورسوله ﷺ، والمؤمنين، وقد أشار إليه القرآن الكريم في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَاِفِرُونَ﴾^١، وقال تعالى ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾^٢ تصور هذه الآيات أماما حالة الكفار والمشركين العملية، بأنهم كانوا يتحدون رسول الله ﷺ وما أنزل إليه هزواً، وباستخراج الألوان البلاغية من قول الله عزوجل ﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^٣ تبين حالة الكفار من السخرية والاستهزاء بصورة واضحة جداً.

من بلاغة النظم القرآني

﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ "زَيْنَ" الفعل الماضي المجهول ليدل على التحقق وحذف الفاعل هو الشيطان والنفس لاستهجان التصريح به، وجاء الفعل المضارع "يَسْخَرُونَ" لإفادة استمرار السخرية منهم والتجدد فيها، وفي الجملة ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ "من للابتداء كأنهم جعلوا مبدأ السخرية منهم"^٤. قال الزمخشري: "كانت الكفرة يسخرون من المؤمنين الذين لا حظ لهم من الدنيا"^٥، وسبب هذه السخرية والاستهزاء

١ الأنبياء: ٣٦

٢ الصمت: ١٢، ١٣، ١٤ ويطر: العرقا: ٤١

٣ القرة: ٢١٢

٤ يطر: التحرير والتوير: ٢ | ٢٩٦، ويطر: التفسير المير: ٢ | ٢٣٣

٥ حاشية الشهاب: ٢٥٠٥

٦ الكشف: ١ / ٢٥٥

هو أن الكفار والمشركين في ترف واستغناء فوقفوا عند زينة الحياة الدنيا ولا يستطيعون أن يتخيلوا وراءها، ولذا يسخرون من المؤمنين لفقرهم وعقيدتهم وطريقهم الذي يسرون فيه.

﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ "هم الذين آمنوا بعينهم وإنما ذكروا بعنوان التقوى للإيذان بأن إعراضهم عن الدنيا للاتقاء عنها، ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لأنهم في أعلى عليين وهم في أسفل سافلين، أو لأنهم في أوج الكرامة وهم في حضيض الذل والمهانة، أو لأنهم يتناولون عليهم في الآخرة فيسخرون منهم كما سخروا منهم في الدنيا والجملة معطوفة على ما قبلها وإيثار الاسمية للدلالة على دوام مضمونها".^١

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ولعل مجيء اسم الجلالة لبيان عظمتها، والجملة الاسمية والفعل المضارع يفيد الثبوت والتجدد والاستمرار لمن يرزق من عباده المختارين، والله أعلم.

ورد في الآية الكريمة أسلوب الوصل لاستحضار الصورة الواضحة في الذهن^٢، هنا نكتة مهمة أن بداية الآية بـ ﴿رُزِقَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ونهايتها بـ ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ﴾ وهذا يدل على أن الكفار - بسبب ترفهم وعنائهم في الحياة الدنيا - يسخرون من الذين آمنوا لفقرهم، ولكن لا يعرفون أن الرزق في يد الله عز وجل يرزق من يشاء بغير حساب.

ثانياً: المكر والكيد

كان الكفار والمشركون يكيدون كيداً ضد دعوة سيدنا محمد ﷺ، وكانوا يجتمعون ويتشاورون فيما بينهم ليواجهوا دعوة النبي ﷺ بالمكر والكيد، كما أشار إليه القرآن الكريم ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ

١ تفسير أبي السعود. ١/ ٢١٤

٢ بطر. حواهر الملاعة ص ١٦٨

الْمَاكِرِينَ^١، وفي سورة الطارق قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۖ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾^٢ ويشير القرآن الكريم إلى مكرهم وكيدهم في مواضع كثيرة متعددة.^٣

والكيد: "ضرب من الاحتيال"، والمكر: "صرف الغير عما يقصده بحيلة"^٤ ويراد به "إخفاء الكيد"^٥. ولندرس قول الله عزوجل ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُمْ إِذَا هُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ۚ قَالَ اللَّهُ أَسْرِعْ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾^٦ دراسة بلاعية لتعرف على حالة المكر والكيد التي سلكها هؤلاء المشركون للصد عن الدعوة.

من بلاغة النظم القرآني

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُمْ﴾ "سَلَطَ اللَّهُ ﷻ القحط سبع سنين على

أهل مكة حتى كادوا يهلكون، ثم رحمهم بالحياة، فلما رحمهم طفقوا يطعنون في آيات الله ويعادون رسول الله ﷺ ويكيدونه، ﴿وَإِذَا﴾ الأولى للشرط، والأخيرة جوابها وهي للمفاجأة"^٨. "والإذاقة مستعملة في مطلق الإدراك استعارة أو مجازاً"^٩، وصيغة الجمع المتكلم في ﴿أَذَقْنَا﴾ توحى للقارئ عظمة وقدرة الله الكبرى، ولعل التنكير في ﴿رَحْمَةً﴾ و﴿ضَرَاءٍ﴾ و﴿مَكْرٌ﴾ للتفخيم.

- ١ الأنعام: ٣٠
- ٢ الطارق: ١٥، ١٦
- ٣ يطر: سا: ٣٣، ماطر: ٤٣
- ٤ المفردات في غريب القرآن: كتاب الكاف، تحت مادة كيد، ص ٤٦١
- ٥ المصدر نفسه. كتاب الميم، تحت مادة مكر، ص ٤٩١
- ٦ الكشاف: ٢/ ٣٣٧
- ٧ يونس: ٢١
- ٨ الكشاف: ٢/ ٣٣٧
- ٩ التحرير والتلوين: ١١/ ١٣٢

﴿مَسْتَهْزِئِينَ﴾ "أي خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم وإسناد المساس إلى الضراء بعد إسناد الإذاقة إلى ضمير الجلالة من الآداب القرآنية" ^١ كما جاء في قوله تعالى ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ^٢

﴿إِذَا هُمْ مَكْرَرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ "إشارة إلى أنهم لا يتفكرون عن آياته العظام، فلو كانوا منتفعين بالآيات اهتموا بها" ^٣، "و ﴿فِي﴾ من قوله ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ للطرفية المجازية المراد منها الملازمة، أي مكرهم المصاحب لآياتنا، ومعنى مكرهم في الآيات أنهم يمحرون مكرًا يتعلق بها، وذلك أنهم يوهمون أن آيات القرآن غير دالة على صدق الرسول ويزعمون أنه لو أنزلت عليه آية أخرى لآمنوا بها وهم كاذبون في ذلك وإنما هم يكذبونه عنادا ومكابرة وحفاظا على دينهم في الشرك" ^٤، قال صاحب 'في ظلال القرآن': "عجيب هذا المخلوق الإنساني لا يذكر الله إلا في ساعة العسرة، ولا يثوب إلى فطرته وينزع عنها ما غشاها من شوائب وانحرافات إلا في ساعة الكربة. فإذا أمن فإما النسيان وإما الطغيان .. ذلك إلا من اهتمى فبقيت فطرته سليمة حية مستجيبة في كل آن، كذلك صنع قوم فرعون مع موسى. فكلما أخذوا بعذاب استغاثوا به ووعدوا بالعدول عما هم فيه. فإذا ذاقوا الرحمة مكروا في آيات الله وأولوها على غير وجهها، وقالوا: إنما رفع عنا الرجز بسبب كذا وكذا .. وكذلك صنعت قريش وقد أجدبت وحافت الهلاك، فجاءت محمدا تناشده الرحم أن يدعو الله فدعاه فاستجاب له بالسقيا، ثم مكرت قريش بآية

الله وظلت فيما هي فيه! وهي ظاهرة مطردة في الإنسان ما لم يعصمه الإيمان" ^٥.

١ تفسير أبي السعود: ٤ / ١٣٣

٢ الشعراء: ٨٠

٣ نظم الدرر: ٩ / ٩٦

٤ التحرير والتوير: ١١ / ١٣٣

٥ في ظلال القرآن. ٣ / ١٧٧٣

وقوله ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾^١ إخفاء الكيد، وهو من الله تعالى إما الاستدراج^٢ أو الجزاء على المكر، وتسمية عقوبة الله ﴿مَكْرًا﴾ من باب المشاكلة^٣ "٢"، وقد قال صاحب التعريفات "المكر من جانب الحق تعالى هو إرداف النعم مع المخالفة وإبقاء الحال مع سوء الأدب وإظهار الكرامات من غير جهد ومن جانب العبد إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر"^٤، وقد جاء "كالتنبيه على أنه تعالى يزيل عنهم تلك النعم، ويجعلهم منقادين للرسول ﷺ مطيعين له، تاركين لهذه الاعتراضات الفاسدة، والله أعلم"^٥.

﴿إِنْ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ جملة مؤكدة، و"إعلام بأن ما تظنونه خافيا مطويا لا يخفى على الله، وهو منتقم منكم"^٦، "ولما كان المكر إخفاء الكيد، بين لهم سبحانه أنهم غير قادرين على مطلق المكر في جهته عز شأنه وتعالى كبرياؤه وسلطانه، لأنه عالم بالسر وأخفى، بل لا يمحرون مكرًا إلا ورسله سبحانه مطلعون عليه فكيف به سبحانه! فقال تعالى مؤكداً لأجل إنكارهم ﴿إِنْ رُسُلَنَا﴾ أي على ما لهم من العظمة بإضافتهم إلينا ﴿يَكْتُوبُونَ﴾ أي كتابة متجددة على سبيل الاستمرار"^٧.

- ١ الاستدراج: "هو التوصل إلى حصول الغرض من المحاطب والملاطعة له في بلوغ المعنى المقصود من حيث لا يشعر به" معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ١/ ١٢٠، "وهو محادعات الأقوال التي تقوم مقام محادعات الأفعال" صياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وعلق عليه: دكتور أحمد الخوي ودكتور بدوي طاهر، دار محصة مصر للطبع والشر، ط ٢، ٢٥٠.
- ٢ المشاكلة: "هي أن تذكر الشيء لفظ غير لوقعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً نحو صفة الله وهي في مقابل صفة البصاري أولادهم بمسهم في الماء" معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٣/ ٥٨.
- ٣ التفسير المير: ١١ / ١٤١.
- ٤ علي بن محمد بن علي الحرجاني، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ١، ١٤٠٥ هـ، ص ٢٩٣.
- ٥ التفسير الكبير: ١٧ / ٢٣١.
- ٦ الكشاف: ٢ / ٣٣٧.
- ٧ نظم الدرر: ٩ / ٩٧.

تبين هذه الآية "عادة هؤلاء الأقوام اللجاج والعناد والمكر وطلب الغوائل. وإنما غرضهم الدفع والمع والمبالغة في صون مناصبهم الدنيوية، والامتناع من المتابعة للغير، والدليل عليه أنه تعالى لما شدد الأمر عليهم وسلط البلاء عليهم، ثم أزالها عنهم وأبدل تلك البليات بالخيرات، فهم مع ذلك استمروا على التكذيب والجحود"١، واستعملت أداة الشرط، والاستعارة، والاستدراج، والتوكيد والمشاكلة من ألوان بلاغية لتوضيح المعاني.

ثالثاً: إضلال الناس بغير علم

الكفار والمشركين لم يكتفوا بإنكار دعوة سيدنا محمد ﷺ فحسب، بل حاولوا أن يضلوا الناس عن سبيل الله بغير علم، وقد وردت هذه الحالة العملية لهم في القرآن الكريم، فقال الله ﷻ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾٢، واخترعوا طرقاً عديدة ليضلوا الناس عن دين نبينا محمد ﷺ نحو ما جاء في قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾٣، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحالة العملية للكفار والمشركين وكيدهم ضد هذه الدعوة المباركة في قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي هُوَ الْحَدِيثَ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ هُمُ عَذَابُ مُهِينٍ﴾٤ وإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾٥ التي نرجح الآن على دراستها دراسة بلاعية.

١ التفسير الكبير: ١٧ / ٢٣١

٢ الأنعام: ١٤٤

٣ فصلت: ٢٦

٤ لقمان: ٨، ٧

من بلاغة النظم القرآني:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ المسند قدّم هنا وهو قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ والأصل في المسند التأخير، "لأن المسند إليه هو المحكوم عليه ولا بد من تحققه قبل المحكوم"^١ فالسرّ في تقديم المسند هو التشويق^٢ إلى ذكر المسند إليه وهو ﴿مَن يَشْتَرِي﴾، وقد غلب استعمال قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ في الذّم في القرآن الكريم، نحو قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾^٣ و﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾^٤

وقيل المراد بـ ﴿مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ الضرر بن الحارث^٥ وقصصه الباطلة التي جاء بها من بلاد الفرس، و﴿اللَّهُو﴾ "هو كل شيء شعلك عن شيء فقد ألهاك"^٦، أو هو ما يشغل الإنسان عما هو أهم إليه^٧، والفعل المضارع ﴿يَشْتَرِي﴾ يفيد الاستمرار في العمل ويصور الحدث كأنه يقع الآن^٨ فكأنك ترى ذلك الرجل وهو يشتري كتب أهل العجم، ويجمع حوله الناس، ويقرأ عليهم من هذه الكتب، و﴿مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ استعارة

١ الإصحاح في علوم البلاغة: ٥٠ / ٢

٢ يطر: عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد، أبو العنح العباسي (المتوفى: ٩٦٣هـ)، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب بيروت. ١ / ٢٢٠

٣ الحج: ٣

٤ السورة نفسها: ٨

٥ البصري الحارث كان من فئة الكفار والمشرّكين بمكة، وكان يتحرّ إلى فارس، فيشتري كتب الأعاجم يتحدث بها فريشا ويقول: إن كان محمد يحدثكم عاد ونمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة، فيستمعون حديثه ويتزكون استماع القرآن يطر: تفسير الكشاف: ٣ / ٤٩٠

٦ أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم المفاتيح في اللغة، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، دارالعكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لسان، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، كتاب اللام، باب اللام والهاء وما يثلثهما، ص ٩٣٩

٧ يطر: المعردات في غريب القرآن، كتاب اللام، تحت مادة: لمي، ص ٤٧٤

٨ يطر: دكتور محمد محمد أبو موسى، خصائص التراكيب، مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية، عاندين، القاهرة،

ط ٤، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، ص ٢٦٥

مكنية حيث صوّر لهو الحديث بشيء مادي يشتري ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو وقوع الشراء.

وكلمة "اللهو" لم ترد في الذكر الحكيم إلا في سياق الدّم لأنه اشتغال بالخشيس عن النفس نحو قوله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾^١، وقوله ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعْنٌ وَهَوٌّ وَلَدْدَارُ الْأَجْرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^٢.

والضلال في قوله تعالى ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بَعْضَ عِلْمٍ﴾ يراد به "عدول عن الطريق المستقيم عمداً كان أو سهواً"^٣، واستخدام كلمة ﴿لِيُضِلَّ﴾ أبلغ من كلمة ﴿ليصرف﴾ لأن في كلمة ﴿ليصرف﴾ دلالة على أنه يمنع الناس عن الاستماع إلى القرآن الكريم دون أن يلحق بهم ضرر، أما كلمة ﴿لِيُضِلَّ﴾ فإنها تدل على أنه يصرفهم عن الذكر الحكيم مع وقوع الضرر عليهم حيث أدخلهم في دائرة الصّالّين، واختيار اسم الجلالة هنا دليل على عظمة هذه السبيل، و﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مقيد بقوله تعالى ﴿بَعْضَ عِلْمٍ﴾، وهو يسمّى قيدا في البلاغة وفائدة القيد هنا الإيضاح في كيد هذا الكافر وشدة إثمه لأنه يريد أن يضلّ الناس بغير علم وهو يعلم أنّ هذه سبيل الله ولكنه يضلّ الآخرين الذين لا يعلمون قيمة هذه النعمة، ونكّر كلمة ﴿عِلْمٍ﴾ ليفيد أنّ هؤلاء الناس جاهلون من كل نوع من أنواع العلم.

ويوحى قوله تعالى ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ بنوع من التكلف أي لا يمكن الاستهزاء بهذا الذكر الحكيم ولكنه يحاول أن يستهزئ به بالتكلف، وفي إثار التعبير بالفعل المضارع (يشتري.. ليضل.. ويتخذها) دلالة على مواصلة العناد والاستكبار والصد عن سبيل الله حيث يدل المضارع على التجدد والاستمرار.

١ الجمعة ١١

٢ الأعام: ٣٢

٣ بطر. المفردات في غريب القرآن، ص ٢٩٧

﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا﴾ واستخدام الفعل المضارع **﴿تَنَلَّى﴾** يصور وقوع الحدث كأنه يقع الآن، وأيضاً يراد بها الاستمرار في تلاوة آيات الذكر الحكيم من النبي ﷺ مع هؤلاء الناس، "وصيغة الفعل المضارع أقدر الصيغ على تصوير الأحداث لأنها تحضر مشهد حدوثها وكأن العين تراها وهي تقع"^١ وإضافة الآيات إلى "نا" في قوله تعالى **﴿آيَاتُنَا﴾** دليل على التعظيم، والتعبير عن الإعراض بالفعل الماضي **﴿وَلَّى﴾** يدل على تحقق وقوع إعراض هذا الشخص - الذي يشتري لهو الحديث - عن آيات الله ﷻ بعد دعوة سيدنا محمد ﷺ، والقييد **﴿مُسْتَكْبِرًا﴾** فيه إبراز وإيضاح وتأکید للإعراض الذي اقتضاه المقام^٢.

وفي قوله تعالى **﴿كَأَنَّ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾** شبه عدم الاستماع مرتين، وهذا لبيان اختلاف كيفيته في عدم السمع، فأول مرة شبهه بشخص لا يهتم هذا الذكر الحكيم فهو لا يتوجه إليه، ثم شبهه بشخص في أذنيه وقْر، يعني وهو الذي فقد السمع كلية، ويستقى هذا النوع من التشبيه، المرسل المحمل حيث ذكرت فيه الأداة وحذف منه وجه الشبه.

وقيل "في **﴿كَأَنَّ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾** رمز إلى أن من سمعها لا يُتَصَوَّر فيه التَّوَلَّى والاستكثار لما فيها من الأمور الموحية للإقبال عليها والحصوع لها"^٣، ولم يأت التشبيه التالي معطوفاً، نحو **﴿وَكَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾**، لكمال اتصال وهو من مواضع الفصل لأنها مؤكدة ومبيّنة لعدم استماع القرآن الكريم، وقال الإمام عبد القاهر الجرجاني: "لأن المقصود من التشبيه بـ من في أذنيه وقْر هو بعينه المقصود من التشبيه بمن لم يسمع، إلا أن التالي أبلغ وأكد"^٤ والوقر في

١ حصائص التراكيب، ص ٢٦٤

٢ بطر. دكتور بسوي عبدالفتاح فيود، علم المعاني دراسة بلاعية وقدية لمسائل المعاني، مؤسسة المختار للشر والتوزيع القاهرة، ط ٤، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م، ص ٢١٩

٣ مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية: ٨ / ٨١

٤ دلائل الإعجاز، ص ٢٢٩

قوله تعالى ﴿كَأَنَّ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ يستعمل في الصمم والتقل في الأذن^١، وجاءت هذه الكلمة في القرآن الكريم في ذمّ المعرضين عن آيات الله واستماعها، نحو ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾^٢ و﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾^٣.

وردت في ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استعارة تحكمية^٤، التي تسمى الاستعارة التمليلية أيضاً، وهي استعمال الألفاظ الدالة على المدح في نقائصها من الذم والإهانة^٥ والعطف بالفاء تدل على عقاب الله السريع، ولعل تنكير كلمتي "عذاب أليم" للكثرة والتنوع والتهويل فيهما، والله أعلم.

توضح الآيتان السابقتان صورة رجل متكبر لا يسمع صوت الحق، ويفق ماله لكي يصد الناس عن سبيل الله، ويضلهم عن الصراط المستقيم.

رابعاً: الجحد والمجادلة

كان الكفار والمشركون يجحدون بآيات الله عز وجل، ويجادلون في الله تبارك وتعالى مع أنهم كانوا لا يعلمون الحق، وما كانت عندهم كتب الشرائع الدالة على موقفهم. والجحد "نفي ما في القلب إثباته، وإثبات ما في القلب نفيه"^٦، والمجادلة "الجدال المفاوضة على

١ يطر المحدثات في عرب القرآن، ص ٥٢٩، و أني حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أنير الدين الأندلسي (المتوفى ٧٤٥هـ)، حمة الأريب بما في القرآن من العرب، المحقق: سمير الخدود، الناشر: المكتب الإسلامي، ط ١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص ٣١٥

٢ الأنعام: ٢٥

٣ الإسراء: ٤٦

٤ يطر التحرير والتوير ١٤٥ / ٢١

٥ معجم المصطلحات البلاغية ونظورها ١ / ١٥٨

٦ المحدثات في عرب القرآن كتاب الحليم، تحت مادة: جحد، ص ٩٣

سبيل المنازعة والمغالبة"١، قال الله ﷻ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ٢، وبين القرآن حالة مجادلته في سورة الأنعام، فقولهُ ﷻ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ٣ ويذكر الله ﷻ بأن هؤلاء الكفار والمشركين يجادلون مع أنهم يتمتعون بنعمه الكثيرة، فقال ﷻ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ٤، ولنتناول الآيتين التاليتين بدراسة الألوان البلاغية فيها.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ۖ كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابٍ سَعِيرٍ﴾٥

من بلاغة النظم القرآني:

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ "عطف على جملة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾٦، أي الناس فريقان: فريق يمثل الأمر فيتقي الله ويحشى عذابه، وفريق يعرض عن ذلك ويعارضه بالجدل الباطل في شأن الله تعالى من وحدانيته وصفاته ورسالته"٧، وقال أبو السعود "كلام مبتدأ على المعنى أو بتقدير وبعض الناس أو وبعض كائن ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ أي في شأنه تعالى

١ المرجع نفسه: كتاب الحليم، تحت مادة جدل، ص ٩٤

٢ الأنعام: ٣٣

٣ السورة نفسها: ٢٥

٤ لقمان: ٢٠

٥ الحج: ٤، ٣

٦ السورة نفسها: ١

٧ التحرير والتوير: ١٧٠ / ١٩٢

ويقول فيه ما لا خير فيه من الأباطيل وقوله تعالى ﴿يَغْيِرْ عِلْمٌ﴾ حال من ضمير يجادل موصحة لما يشعر بها المحادلة من الجهل أي ملاسا بغير علم^١.

في الحملة ﴿يُحَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ يفيد الفعل المضارع التحدد والاستمرار على المجادلة، والجدال في الله، سواء في وجوده تعالى، أو في وحدانيته، أو في قدرته، أو في علمه، أو في صفة ما من صفاته.. الجدال في شيء من هذا في ظل ذلك الهول الذي ينتظر الناس جميعا، والذي لا نحاة منه إلا تقوى الله وبرضاه.. ذلك الجدال يبدو عحييا من دي عقل وقلب، وبإلته كان حدالا عن علم ومعرفة ويقين. ولكنه حدال ﴿يَغْيِرْ عِلْمٌ﴾ جدال التطاول المجرد من الدليل^٢، و ﴿يَغْيِرْ عِلْمٌ﴾ قيد وهذا يفيد الإضافة في المعنى، والله اعلم.

﴿وَتَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ الفعل المضارع يفيد التحدد والاستمرار في اتباع الشيطان، وكلمة ﴿كُلِّ﴾ في قوله ﴿كُلَّ شَيْطَانٍ﴾ مستعملة في معنى الكثرة. كما في قوله تعالى ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾^٣، ﴿شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ "استعارة، استعار لفظ الشيطان لكل طاغية عات متمردة على الله"^٤، و ﴿مَرِيدٍ﴾ "من شياطين الجن والإنس المتعري من الخيرات"^٥، ولعل تنكير كلمتي ﴿شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ لعرض بلاغي وهو دلالة على الكثرة والتحقيق.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ "وتأويل الكلام قُضِيَ على الشيطان أنه يصل أتباعه ولا يهديهم إلى الحق. ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي "ويسوق من اتبعه إلى

١ تفسير أبي السعود: ٩٢ | ٦

٢ في طلال القرآن: ٢٤٠٨ | ٤

٣ الحج: ٢٧

٤ التحرير والتبوير: ١٧ | ١٩٢

٥ التفسير المبر: ١٧ | ١٥١

٦ المفردات في غريب القرآن: كتاب الميم، تحت مادة: مرد، ص ٤٧٦

عذاب جهنم الموقدة، وسياقه إياه إليه بدعائه إلى طاعته ومعصية^١، ويوجد الطباق بين «يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ»، ونجد في «يَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ» أسلوب التهكم^٢.

بدأت سورة الحج بمطلع عنيف مرهوب يتزلزل له القلب الإنساني، وفي ظل هذا الهول المروع يخبر الله عزوجل أن هنالك من يتناول فيجادل في الله^٣، ولا يستشعر تقواه، ثم يكرر في السورة نفسها «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ»^٤ ثاني عطفه ليُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيْقُهُ عَذَابُ الْخَرِيقِ^٥، وفكرة الجدل في الله عريب مستكر، فكيف إذا كان حداث بغير علم، لا يستند إلى دليل، ولا يقوم على أسس علمية، ولا يستمد من كتاب ينير القلب والعقل؟؟ ويرسم تعبير الجدل في الله صورة المتكبرين الجاحدين من الناس الذين يتشبثون بأفكارهم الخاطئة، ويتبعون الشياطين. ولم يكن لديهم علم بما كانوا يجادلون، بل كانوا يظنون بالله الظنونا، ويجادلون ليضلوا الناس عن سبيل الله عزوجل، وتبين الآية الكريمة هذه الحالة العملية للكفار والمتركن مستخدمة أسلوب الوصل، والقيد، والفعل المضارع، والتكثير والطباق من الألوان البلاعية.

خامساً: التقليد الأعمى لآبائهم

كان الكفار والمشركون يقلدون آباءهم دون تفكير أو دليل واضح، وقد أشار القرآن الكريم إلى تقليدهم الأعمى لآبائهم في آيات كثيرة^٦، منها قوله تعالى عزوجل «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ»^٧ و «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ

١ تفسير الطبري: ١٨ | ٥٦٦

٢ بطلر: التفسير المبر: ١٧ | ١٥١، وفي طلال القرآن: ٤ | ٢٤٠٨

٣ الحج: ٨، ٩

٤ بطلر: الأعراف: ٢٨، الرحرف: ٢٢

٥ الفرة: ١٧٠

آبَاءَنَا أَوْلَوْكَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ^١، وعلى سبيل المثال نستخرج الألوان البلاغية من الآية التالية.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْكَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ^٢﴾

من بلاغة النظم القرآني:

وجملة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا﴾ معطوفة على ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ^٣﴾، أي من حالهم هذا وذاك^٤، وفائدة العطف هنا زيادة المعنى قوة وظهورا لأن المخبر عنه في الجملتين واحد^٥، وقال الإمام الرازي أنهم "قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا بين أن مجادلهم مع كونها من غير علم فهي في غاية القبح فإن النبي عليه السلام يدعوهم إلى كلام الله، وهم يأخذون بكلام آبائهم، وبين كلام الله تعالى وكلام العلماء بون عظيم فكيف ما بين كلام الله وكلام الجهلاء"^٦.

"وأظهر لزيادة التشنيع فقال ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ الذي حلقكم وحلق آباءكم الأولين، وهو الذي لا عظيم إلا هو"^٧ أي ذكر اسم الجلالة لبيان شناعة جرمهم.

﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ "يعني نترك القول النازل من الله ونتبع الفعل، والقول أدل من الفعل لأن الفعل يحتمل أن يكون جائزا، ويحتمل أن يكون حراما، وهم تعاطوه، ويحتمل أن يكون واحدا في اعتقادهم والقول بين الدلالة، فلو سمعنا قول قائل افعل

١ المائدة ١٠٤

٢ لقمان. ٢١

٣ السورة نفسها. ٢٠

٤ يطر التحرير والتوير ٢١ / ١٧٦

٥ يطر كتاب دقل الإعجاز، ص ٢٢٦

٦ التفسير الكبير. ٢٥ / ١٢٥

٧ نظم الدرر. ١٥ / ١٨٧

ورأينا فعله يدل على خلاف قوله، لكان الواجب الأخذ بالقول، فكيف والقول من الله والفعل من الجاهل^١، ولعل الفعل الماضي في ﴿قَالُوا﴾ و ﴿وَجَدْنَا﴾ يدل على التحقق والثبوت، والفعل المضارع ﴿نَتَّبِعُ﴾ لاستمرارهم في اتباع آبائهم، والله أعلم.

وفي جملة ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ﴾ "استفهام على سبيل التعجب في الإنكار، يعني الشيطان يدعوهم إلى العذاب والله يدعو إلى الثواب، وهم مع هذا يتبعون الشيطان"^٢، ويرى صاحب التفسير المنير بأن في ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ﴾ "إنكار وتوبيخ، مع الحذف أي: أيتبعوهم ولو كان الشيطان إلخ"^٣، وقد يسأل إلى من يعود الضمير المنصوب في قوله ﴿يَدْعُوهُمْ﴾؟ فذهب الإمام الطبري، وصاحب الكشاف، والإمام الرازي إلى أن الضمير عائد إلى الكفار والمشركين "ومعناه أيتبعوهم ﴿وَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ﴾ أي في حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب"^٤، ويرى الإمام البقاعي، وأبو السعود، وابن عاشور بأن الضمير في قوله ﴿يَدْعُوهُمْ﴾ عائد إلى آبائهم، فقال أبو السعود "أي آباءهم لا أنفسهم كما قيل فإن مدار إنكار الاتباع واستبعاده كون المتبوعين تابعين للشيطان لا كون أنفسهم كذلك أي أيتبعوهم ولو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك ﴿إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ فهم متوجهون إليه حسب دعوته^٥، ويمكن فهم كلا المعنيين أي ضمير عائد إلى الشياطين وآبائهم معاً، والله أعلم.

١ التفسير الكبير ٢٥ / ١٢٥

٢ المصدر نفسه ٢٥ / ١٢٥

٣ التفسير المنير ٢١ / ١٥٨

٤ الكشاف ٣ / ٤٩٩، ويظر: تفسير الطبري ٢٠ / ١٤٩، التفسير الكبير ٢٥ / ١٢٥

٥ تفسير أبي السعود ٧ / ٧٤، ويظر نظم الدرر ١٥٠ / ١٨٨، التحرير والتنوير ٢١ / ١٧٦

"وعبر في قوله ﴿يَدْعُوهُمْ﴾ بالمضارع تصويراً لحالهم في ضلالهم وأنه مستمر، وأطلق العذاب على سببه"،^١ والسعر، وهو التهاب النار، و ﴿عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي حميم فهو فعيل في معنى مفعول.^٢ ونظيره قوله ﴿يَأْتُواهُمْ جَهَنَّمُ كُلُّمَا خَبَتِ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾^٣

وتقدم هذه الآية للقارئ صورة تقليدهم الأعمى لأنائم في عاية الوصوح، والشيء العجيب الذي أثار عقل اللاحنة أن هؤلاء الكفار والمشركون لم يستخدموا العقل ولم يفكروا في هذا الصدد، ولعل ذلك كان بسبب العصبية الجاهلية التي أعمت عيونهم وصدّت عقولهم ومنعتهم من الاستجابة إلى دعوة الحق التي جاء بها النبي ﷺ.

سادساً: الصّدّ عن سبيل الله

لم ينكر الكفار والمشركون دعوة سيدنا محمد ﷺ فحسب بل حاولوا صدّ الآخرين عن سبيل الله، ويذكر القرآن الكريم هذه الحالة العملية للكفار والمشركون في عدة آيات^٤، منها ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾^٥ وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^٦ يبين القرآن الكريم أن هؤلاء المشركون المكذبين لا يستمعون لكلام الله عز وجل، بل يقولون أنه من أساطير الأولين، ينهون الناس عن القرآن وعن اتباع سيدنا محمد ﷺ ويُبعدونهم عنه. ولنستخرج الألوان البلاغية من الآية التالية.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^٧

١ نظم الدرر: ١٥ | ١٨٨

٢ يطر: للمردات في غريب القرآن: كتاب السين، مادة سعر، ص ٢٤٠

٣ الإسراء: ٩٧

٤ يطر: إبراهيم: ٣، الحج: ٢٥

٥ هود: ١٩

٦ الأعمال: ٣٦

٧ الأعام: ٢٦

من بلاغة النظم القرآني:

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ "عطف على الجملة ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾^١، ومعنى النهي عنه النهي عن استماعه. فهو من تعليق الحكم بالذات. والمراد حالة من أحوالها يعينها المقام. وكذلك تأتي عنه معناه تأتي عن استماعه، أي هم ينهون الناس عن استماعه ويتساعدون عن استماعه^٢، "كلمتان ﴿يَنْهَوْنَ﴾ و ﴿يَنْأَوْنَ﴾ بينهما جناس غير تام^٣."

"والقصر في قوله ﴿إِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ قصر إصافي يفيد قلب اعتقادهم لأنهم يظنون باللهي والتأي عن القرآن أنهم يضرون النبي ﷺ لئلا يتبعوه ولا يتبعه الناس، وهم إنما يهلكون أنفسهم بدوامهم على الصلال ويتضليل الناس، فيحملون أوزارهم وأوزار الناس^٤."

"وأصل الهلاك الموت ويطلق على المصرة الشديدة لأن الشائع بين الناس أن الموت أشد الصر. فالمراد بالهلاك هنا ما يلقيه في الدنيا من القتل والمدة عند نصر الإسلام وفي الآخرة من العذاب، وعقب قوله ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ بقوله ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ زيادة في تحقيق الخطأ في اعتقادهم، وإظهارا لضعف عقولهم مع أنهم كانوا يعدون أنفسهم قادة للناس، ولذلك فالوجه أن تكون الواو في قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ للعطف لا للحال ليفيد ذلك كون ما بعدها مقصودا به الإحبار المستقل لأن الناس يعدونهم أعظم عقلائهم^٥."

إن الآية وإن صغرت في كلماتها إلا أنها تحتوي على معنى جامع شامل وصورة واضحة لما كان عليه حال الكفار والمشركين العملي في معارضتهم للدعوة الإسلامية،

١ السورة نفسها: ٢٥

٢ التحرير والتوير: ٧ | ١٨٢

٣ المرجع نفسه: ٧ | ١٨٣

٤ التفسير الميز: ٧ | ١٦٧

٥ التحرير والتوير: ٧ | ١٨٣

٦ المرجع نفسه: ٧ | ١٨٣

واستخدام أسلوب الجنس في كلمتي «يَسْهَوْنَ» و «وَيَتَأَوْنَ» إنما هو دليل على بيان شدة هؤلاء الكفار في منع الناس وإبعادهم عن الاستماع لكلام الله، كذلك الحصر والقصر ما هو إلا دليل على تأكيد من الله عز وجل بأن عملهم هذا وطريقتهم للصد عن سبيل الله ﷻ ماهي إلا هلاك لهم دون أن يشعروا بذلك.

سابعاً: القتال في سبيل الطاغوت

لقد تطورت حالة الكفار والمشركين في معاندتهم للدعوة الإسلامية واشتدت بحيث أصبحت معارضتهم لأتباع هذه الدعوة بالقتال، كل ذلك في سبيل الطاغوت لأجل المحافظة على دين آبائهم وأجدادهم؛ فقاموا بإخراج المؤمنين من مكة جبراً وظلماً وعدواناً ولذلك أذن الله ﷻ للمؤمنين بقتال هؤلاء الكفار فقال تعالى ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾^١، وعلى سبيل المثال ندرس الآية التالية دراسة بلاغية.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ
الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾^٢

من بلاغة النظم القرآني:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^٣ لما حرص الله ﷻ المؤمنين على القتال لحماية المستضعفين من المسلمين من أيدي الكفار، استأنف الإحمار عن الفريقين^٣.

١ الحج: ٣٩، ٤٠

٢ النساء: ٧٦

٣ نظم الدرر: ٥ | ٣٢٩

نجد أسلوب المقابلة في جزئي ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ و ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ والفعل المضارع ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ يفيد الاستمرار والتحدد ﴿الطَّاغُوتِ﴾ منطقي وذلك تجاوز الحد في العصيان^١.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ "لبيان استتباع^٢ ما قبلها لما بعدها وكل ذلك لتأكيد رغبة المؤمنين في القتال وتقوية عزائمهم عليه؛ فإن ولاية الله تعالى عَلم في العزة والقوة كما أن ولاية الشيطان مَثل في الذلة والضعف كأنه قيل إذا كان الأمر كذلك فقاتلوا يا أولياء الله أولياء الشيطان"^٣.

ويوجد كمال الاتصال بين هاتين الجملتين ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ و ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، جملة ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ مؤكدة "وإنما وصفهم جل ثأؤه بالضعف، لأنهم لا يقاتلون رجاء ثواب، ولا يتركون القتال خوف عقاب، وإنما يقاتلون حمية أو حسدًا للمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله. والمؤمنون يقاتل من قاتل منهم رجاء العظيم من ثواب الله، ويقاتل على بصيرة بما له عند الله إن قتل، وبما له من الغنيمة والظفر إن سلم. والكافر يقاتل على حذر من القتل، وإياس من معاد، فهو ذو ضعف وحواف"^٤، "فائدة إدخال 'كَانَ' في أمثال هذه المواقع التأكيد ببيان أنه منذ كان كان كذلك فالمعنى أن كيد الشيطان مد كان موصوفا بالضعف."^٥

١ المبررات في عرب القرآن كتاب الطاء، تحت مادة طعى، ص ٣١٦

٢ الاستتاع "قد سَمَّاهُ العسْكَري المصاعمة" معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ١/ ١٠٣، "وهو أن يتصنَّ"

الكلام معيين معنى مصرح به، ومعنى كالمشار إليه"، الصاعتين ص ٤٢٣

٣ تفسير أبي السعود ٢/ ٢٠٢، ٢٠٣

٤ تفسير الطبري ٨/ ٥٤٧

٥ تفسير أبي السعود. ٢/ ٢٠٣

قد تتصور هذه الآية أمام القارئ صورة مشهد القتال بين فئتين، فئة تقاتل في سبيل الله أي في طاعة الله ومهاج ديه وشريعته التي شرعها لعباده، وفئة تقاتل في سبيل الطاغوت أي في طاعة الشيطان وطريقه ومنهاجه الذي شرعه لأوليائه من أهل الكفر بالله. لما ذكر الله مقصد الفريقين أمر أوليائه أن يقاتلوا أولياء الشيطان، ثم شجعهم بأن حزب الشيطان أهل وهن وضعف، فلا تحافوهم، كما قال الله ﷻ: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^١.

الخلاصة:

تستخلص مما تم دراسته من حلال المباحين في الفصل الأول إلى أن الحالة الفكرية للكفار والمشركين أثرت على سلوكياتهم العملية المتمثلة في أقوالهم وأفعالهم إلى درجة أنهم قاموا بإخراج المؤمنين من مكة جبراً وظلماً وعدواناً وقتلواهم وعذبواهم وطردهم من أرضهم وأهلهم لينصروا آلهتهم ويحفظوا دين آبائهم وأجدادهم. ولذا بيّن القرآن الكريم أحوال الكفار والمشركين الفكرية، وأن وصفهم أحياناً بأنهم فقدوا وعيهم، وعقولهم لا تعمل، وأنهم لا يعرفون الحق، ولذا هم يترددون في وديان الشك والهرية، واتبعوا الظن الباطل، وتعصبوا ضد المسلمين، ولديهم نفور وعناد ضد الإسلام والمسلمين لتخبطهم في ظلام الكفر والعصبية وخوفهم على معاشهم الدنيوية الضئيلة.

وكذلك بيّن الله ﷻ أحوال الكفار والمشركين العملية الدنيوية الضئيلة المتعلقة بإسكارهم الدعوة ووضع طرق الإعراض بالأقوال والجوارح بكل تفصيل، وأثناء بيان طرق الإعراض بالقول بيّن القرآن الكريم إنكار العقائد مثل التوحيد والرسالة والقيامة كما وضع القرآن الكريم طرق الإعراض بالجوارح مثل الاستهزاء والسخرية والإضلال بغير علم والجحد والتقليد الأعمى والصد عن سبيل الله ﷻ والقتال في سبيل الطاغوت، ويستخدم القرآن الكريم أساليب بلاغية متنوعة، توجد فيها مظاهر بلاغية من علم المعاني من التقديم والتأخير

والحذف والذكر والتعريف والتكثير والإطناب والإيجاز كما توجد فيها ملامح بيانية مثل الاستعارة والتشبيه والمجاز والفنون البديعية، وكان القرآن الكريم في قمة البلاغة في استخدام هذه المظاهر واللامح والفنون وكانت لهذه المظاهر والألوان البلاغية دور بارز في استكشاف أحوال الكفار والمترفين وبيان باطنهم وطرق تضليلهم.



الفصل الثاني:

من بلاغة النظم في حديث القرآن عن جزاء الكفار والمشركين

يتكون هذا الفصل من مبحثين:

المبحث الأول:

من بلاغة النظم القرآني في بيان جزاء الكفار والمشركين في الدنيا

المبحث الثاني:

من بلاغة النظم القرآني في بيان جزاء الكفار والمشركين في الآخرة



الفاتحة:

حاولنا أن نبين حالة الكفار والمشركين الفكرية والعملية المتعلقة بإنكار دعوة سيدنا محمد ﷺ في الفصل الأول. أما هذا الفصل فسوف أحاول أن أستخرج الألوان البلاغية من الآيات التي ذكر الله ﷻ فيها معاملته لهؤلاء الكفار الذين أنكروا دعوة الحق الذي جاء بها نبيه محمد ﷺ، وذلك بتصوير جزاء الكفار والمشركين في الدنيا والآخرة، والذي كان نتيجة حالتهم الفكرية والعملية حيث يقول الله عزوجل ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى؛ فمن هذا المنطلق قسمت هذا الفصل إلى مبحثين تناولت في أولهما جزاء الكفار والمشركين في الدنيا واستخرجت الألوان البلاغية من الآيات المتعلقة بذلك، وفي ثانيهما تناولت حديث القرآن عن جزاء الكفار والمشركين في الآخرة، ودرست الأساليب البلاغية في الآيات المذكورة تحت هذا الموضوع.



المبحث الأول:

من بلاغة النظم القرآني في بيان جزاء الكفار والمشركين في الدنيا



المدخل:

إن كل شخص يجزى بما كسبت يده، وكل كافر يجزى في الدنيا حسب حالته الفكرية والعملية؛ ومن الممكن أن يقال أنها قد تكون هي السبب الأول لتعاسته الدنيوية حيث إنه يعيش في ظلمة وحيرة، وشقاء وقلق، ولا يمكنه أن يستفيد من بركات الإسلام في الدنيا؛ لأنه ضلّ عن الصراط المستقيم؛ فليس له نور الإيمان الذي يجعله يعيش حياة طيبة مباركة يستير بضوئها في درب الحياة. ويمكن تقسيم حراء الكفار والمشركين في الدنيا إلى قسمين أساسيين، وهما

• الحراء الوجداني

• الحراء الجسماني

الجزء الوجداني:

ذكرنا أن الكفار والمشركين أعرضوا وكذبوا دعوة سيدنا محمد ﷺ، وقد بين القرآن الكريم أن من جزاء هؤلاء المكذبين الداخلي: الحياة الشقية التعسة، وأن للمعرض عن القرآن الكريم معيشة ضسكا؛ قال تعالى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمًى﴾ أي أنه يبدو للناس في حالة حسنة ورفاهية عيش ولكنه يشعر بالضيق والقلق، ونفسه غير مطمئنة. وجزاء إعراضهم عن شرع الله تعالى في الدنيا حرمانهم عن الإيمان حتى يذوقوا عذاب الآخرة. وهذه من سنة الله ﷻ أنه يوفق كل إنسان لما يسعى له، إن كان يريد الهداية، ويسعى إلى الخير؛ يهديه الله ويفقه للإيمان، وإن كان في البعي والفساد، والكفر بآيات الله ﷻ، والسعى لأن يطفئ نور الله؛ يفتح الله ﷻ أمامه أبواب الشر والضلال، وعمله لأن يشتعل بالشر حتى يأتي أمر الله، ويحاسب حساباً عسيراً في الآخرة.

كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ ﴿فَسُيِّرَتْهُ لِلْيسْرِ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ يَحْلِلْ وَاسْتَفْتَى﴾ ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ ﴿فَسُيِّرَتْهُ لِلْعُسْرَى﴾ ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ ١

انطلاقاً من هذه السمة الإلهية سوف نحاول أن ندرس النظم البلاغي في حديث القرآن عن الجزاء الوجداني للكفار في الدنيا حيث نتناول دراسته بالترتيب المعنوي لتوالي أنواع الجزاء على هؤلاء المنكرين لدعوة سيدنا محمد ﷺ وإصرارهم على الكفر والتكذيب؛ فقد سلط الله ﷻ عليهم الشيطان الذي زين لهم سوء عملهم؛ فأعمى أبصارهم وقلوبهم، وران عليها، وضاق صدورهم، وطبع على قلوبهم؛ فحرموا من الهداية ونور الإيمان. وعلى هذا فإن دراستنا البلاغية سوف تكون من خلال الآيات المختارة على النحو الآتي.

- تسليط الشيطان
- تزيين سوء الأعمال
- كين القلوب
- ران على القلوب
- الحتم والطبع على القلوب
- ضيق الصدور
- الحرمان من الهدى
- الحرمان من ولاية الله ورسوله والمؤمنين
- الحرمان من الدور القيادي في المجتمع

ولنتقل إلى الدراسة التفصيلية لأنواع الجزاء الوجداني.

أولاً: تسليط الشيطان

وبما أن منكري دعوة النبي ﷺ رفضوا أن يستمعوا لكلام الله المنزل على رسوله وواجهوه بالإعراض والإنكار، فعاقبهم الله عزوجل بأن قيض وسلط عليهم الشيطان الذي زين لهم سوء أعمالهم وأعمى أبصارهم عن الحق، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَغْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۖ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^١ والعشا "ظلمة تعترض في العين"^٢، والمراد من الآية أن من يففل عن ذكر الله عزوجل وكلامه فإن الشيطان يجد له طريقاً إلى قلبه، فيلزمه ويصبح له قرين سوء يوسوس له ويزين له السوء، ووظيفة قرناء السوء أنهم يصدون قرناءهم عن سبيل الله ﷻ بينما هؤلاء يحسبون أنهم مهتدون، وهو أسوأ ما يصنعه قرين بقرين حيث يصدّه عن سبيل النور ولا يدعه يفيق أو يتبين الضلال فيتوب إنما يوهمه أنه سائر في الطريق المستقيم حتى يصطدم بالمصير الأليم وهذا هو العذاب بعينه. والآن ندرس الآية دراسة بلاعية:

من بلاغة النظم القرآني

﴿وَمَنْ يَغْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ عطف على الآية ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَاذِبُونَ﴾^٣ وتمثيل لحال الكفار في إعراضهم عن فهم القرآن الكريم وتدبره، بحال من يعتسو عن الشيء الظاهر للبصر، والمعنى ﴿يَغْشُ﴾ "تظلم عينه عنه كأن عليها غشاوة"،^٤ والمراد ر ﴿وَمَنْ يَغْشُ﴾ أي "ومن يعرض"،^٥ وكلمة ﴿يَغْشُ﴾ في صيغة المضارع تضر في

١ الرحرف: ٣٦، ٣٧

٢ المفردات في غريب القرآن كتاب العين، تحت مادة عشا، ص ٣٤٨

٣ الرحرف: ٣٠

٤ بطلر التحرير والتنوير: ٢٠٨/٢٥

٥ محارالقرآن ٢٠٤/٢

٦ بطلر: البحر المديد. ٤٦٥/٥

داخلها معنى بلاغيًا جميلًا بحيث تمثل الواقع الذي يعيش فيه الإنسان مع حواسه الظاهرية سليمة مُعاني ولكنّه في الوقت نفسه لا يمكنه رؤية الحق ببصيرته فيصل إلى نهاية مطاف الحياة وهو كالمحمور بعد أن يفيق من غفلته وقد فقد كل ما هو صالح ومفيد له في الحياة.

وكلمة «ذَكَرَ» في «ذَكَرَ الرَّحْمَنُ» هو القرآن الكريم، كما قال ﷺ في السورة نفسها «أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ»^١ ولعل إضافة ذكر إلى «الرَّحْمَنِ» تفيد الشعور بنعم الله ورحمته ﷻ، ومع ذلك الإعراض عن ذكره يضيف شاعة الجرم، والله أعلم.

«نَقِیْضُ لَهُ شَيْطَانًا» التقييض: الإتاحة وتهيئة شيء لملازمة شيء لعمل حتى يتمه، وهو مشتق من اسم جامد وهو قِیْض البيضة، أي القشر المحيط بما في داخل البيضة من المح لأن القِیْض يلزم البيضة فلا يفارقه حتى يخرج منها الفرج فيتم ما أُتِيح له القِیْض^٢، وقد أشار إلى المعنى نفسه صاحب المفردات في غريب القرآن بشكل مختصر^٣.

استخدمت صيغة التفعيل في «نَقِیْضُ» للجعل، وأصله هنا تشبيه أي نجعله كالقِیْض المحيط بالبيض الحافظ له، كذلك الشيطان يغويه ويمنعه من ذكر الرحمن^٤، ولعل تنكير مفردة «شيطانًا» للتهميش والتحقير، والله أعلم.

وكلمة قرين من قرن، أي «الاقتران كالازدواج في كونه اجتماع شيئين أو أشياء»^٥، والجملة الاسمية «فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» تدل على دوام المقارنة بين العاش وشيطانه، وتقديم الجار

١ الرحرف: ٥

٢ ينظر، التحرير والتنوير: ٢٥/٢٠٩

٣ التحرير والتنوير: ٢٥/٢٠٩

٤ ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب القاف، تحت مادة قِیْض، ص ٤٣٢

٥ ينظر التحرير والتنوير: ٢٥/٢٠٩، ودراسة في أسرار البيان، ص ٣٦١

٦ ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب القاف، مادة قرن، ص ٤١٧

والخروج للاهتمام بضمير ﴿وَمَنْ يَغْتَسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ أي قرين له مقارنة تامة^١، "فهو لا يفارقه ولا يرال يوسوس له ويغويه وهذا عقاب على الكفر بالحنم وعدم العلاج كما يقال إن الله تعالى يعاقب على المعصية بمريد اكتساب السيئات"^٢، "والضمير في ﴿لَيَصُدُّوَنَّهُمْ﴾ عائد على شيطان وإن كان معردا، لأنه مبهم في حنسه، ولكل عاش شيطان قرين، فحاز أن يعود الصمير مجموعا.^٣

والجملة ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَصُدُّوَنَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ حال من ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾، والجملة ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ حال من ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَصُدُّوَنَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾، ولا يخفى أن هناك تلاحا وتماكيا قويا في نظم الآية^٤.

ولعل صيغة المضارع في الأفعال الأربعة ﴿يَغْتَسُ﴾، ﴿يُقَيِّضُ﴾، ﴿لَيَصُدُّوَنَّهُمْ﴾، و﴿يَحْسَبُونَ﴾ تدل على الاستمرار والتجدد^٥.

قد أبان الله ﷻ في القرآن الكريم جزاء المعرض عن القرآن الكريم في سورة طه بعد بيان قصة هبوط آدم والزامه بالهداية الربانية؛ فقال ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾^٦ كما قال الإمام الرازي عن كلمة ﴿ذِكْرِي﴾ "والذكر يقع على القرآن وعلى سائر كتب الله تعالى"^٧، وذكر الله ﷻ جزاء الكفار في الدنيا في قوله ﴿وَقَيِّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾^٨ بسبب إعراضهم عن الحق،

١ بطر: التحرير والتنوير ٢٥/٢١٠، ٢١١

٢ روح المعاني. ٨١/١٣

٣ الحر المحيط. ٣٧٣/٩

٤ بطر: دراسات في أسرار البيان. ٣٦٧

٥ بطر تفسير أبي السعود. ٤٧/٨

٦ طه: ١٢٤

٧ التفسير الكبير. ١١٠/٢٢

٨ فصلت: ٢٥

ويذكر القرآن الكريم تهديد الشيطان للإنسان بالإضلال والإبعاد عن ذكر الله عز وجل، كما ورد في قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾^١ فلماذا كلما يغفل قلب الإنسان عن ذكر ربه؛ يعويه الشيطان، وعندما يجده في عفلة مستمرة لزمه، ويصبح له قرين سوء يوسوس له ويزين له سوء عمله، وهذا من أسوأ أنواع العذاب في الدنيا أن يكون للإنسان قرين يهديه إلى سوء العذاب في الآخرة، وأسوأ ما أصيب به الكفار أنهم لا يعرفون أنهم في ضلال حتى يذوقوا العذاب. وبين القرآن الكريم هذه الحقيقة مستخدماً مفردات في قمة البلاغة لتوضيح المعاني نحو ﴿يَغْتَرُ﴾ و﴿تَقْتَضِ﴾ و﴿قَرِينٌ﴾ والتكثير، والصيغة المضارعة، والجملة الاسمية.

ثانياً: تزيين سوء الأعمال

سلط الله ﷻ على الكفار والمشركين - سبب إصرارهم على الكفر - العذاب الداخلي بشكل تزيين سوء الأعمال لهم كأنها أعمال الخير، فهم يسارعون في الشر كأنه هو الخير، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾^٢

تعلل هذه الآية أن من جزاء الذين أنكروا الآخرة في هذه الدنيا الحرمان من البصيرة التي تبين لهم الخير والشر؛ فهم مثل الأعمى يرون الشر حيراً والخير عكسه، أما المؤمنون فقال تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾^٣، ولنستخرج الألوان البلاغية من الآية التي تبين جزاء الكفار والمشركين في الدنيا.

١ المحرر ٣٩، ٤٠

٢ المل. ٤

٣ المحررات. ٧

من بلاغة النظم القرآني:

﴿إِنَّ الدِّينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ "جملة مؤكدة لتحقيق الخبر والفعل المضارع يدل على استمرارهم على الكفر، "ووقع هذا الاستئناف البياني لبيان سبب استمرارهم على ضلالهم. --- وتأکید الخبر بحرف التوكيد للاهتمام به لأنه بحيث يلتبس على الناس سبب افتراق الناس في تلقي الهدى بين مبادر ومتقاعس ومصر على الاستمرار في الضلال. --- وقد أشارت الآية إلى معنى دقيق جدا وهو أن تفاوت الناس في قبول الخير كائن بمقدار رسوخ ضد الخير في نفوسهم وتعلق فطرتهم به".^١

التزيين في الآية ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ إما مستعار للتمتع بطول العمر وسعة الرزق وإما حقيقة؛ وإسناد التزيين إلى الله ﷻ مجاز وهو حقيقة للشيطان كما في قوله ﷻ ﴿زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾^٢، وبعد بيان الدلائل على وجوب إجراء هذه الآية على ظاهرها قال الإمام الرازي: "ثبت أن الله تعالى هو الذي زين لكل عامل عمله. والمراد من التزيين هو أنه يخلق في قلبه العلم بما فيه من المنافع واللذات ولا يخلق في قلبه العلم بما فيه من المضار والآفات".^٣

ولعل الفعل الماضي في ﴿زَيَّنَّا﴾ يدل على تحقق الوقوع، ويشير أن هذه سنة إلهية ثابتة عبر العصور والأزمان، قد ورد فعل التزيين في القرآن الكريم غالبا في عدم الخير^٤ نحو قوله ﷻ ﴿رُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ

١ التحرير والتبوير ٢٢٠/١٩٠

٢ الأعمال ٤٨

٣ بطلر الكشاف. ٣/٣٤٨، وحاشية الشهاب: ٢٢٠/٧

٤ التفسير الكبير: ٥٤٢/٢٤

٥ بطلر. آل عمران: ١٤، الأعمال ٤٨، التوبة: ٣٧، يونس: ١٢، الرعد ٣٣، فاطر: ٨، غافر: ٣٧، محمد: ١٤

يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ^١ ونحو ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ
شُرَكَائِهِمْ لِيُرْذَوْهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ^٢﴾، ونجد
تأييد هذا المعنى في قوله تعالى قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَعُودِيْتَنِي لِأَرْتِنِّي أَنِّي لَأَكُونُ فِي الْأَرْضِ وَالْأَعْيُنُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ
عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ^٣، ونلاحظ أن
الله ﷻ أضاف فعل التزيين إلى ضمير العظمة مرتين، ومنهما الآية التي نحن بصدد تحليلها
والآية ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ
عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^٤﴾، وهاتان الآيتان نزلتا في الكفار
والمشركين من قريش، ولعل إسناد التزيين إلى ضمير العظمة يوحي بغضب الله ﷻ وعقابه
بسبب استمرارهم على الكفر دون تفكير وتعقل، والله أعلم.

ويمكن أن يكون تقديم الجار والمجرور في ﴿هُمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ للتخصيص، والله أعلم. "وفزع
على تزيين أعمالهم لهم أنهم في عمه متمكن منهم بصوغ الإخبار عنهم بذلك بالجملة الاسمية
﴿فَهُمْ يَعْمَلُون﴾ وأفادت صيغة المضارع أن العمه متجدد مستمر فيهم، أي فهم لا يرجعون
إلى اعتداء لأنهم يحسبون أنهم على صواب. --- وهذا الاستمرار متفاوت الامتداد فمته

١ القرعة ٢١٢

٢ الأنعام ١٣٧

٣ الحجر ٢٩-٤٣

٤ الأنعام ١٠٨

أشدّه وهو الذي يمتد بصاحبه إلى الموت، ومنه دون ذلك" ^١، والمراد ﴿يَعْمَهُونَ﴾ بتحيرون. ^٢
كما يكون حال الصال عن الطريق. ^٣

تدل هذه الآية على العذاب للكفار والمشركين في الدنيا بسبب عدم الإيمان بالدار الآخرة، وقيام الساعة، والمعاد إلى الله بعد الممات والنواب والعقاب. فهم أعرصوا عن الحق وكذبوه بالاستمرار حتى قصي عليهم عذاب الضلال؛ وهو أنهم يحسون قبيح أعمالهم، وسهل ذلك عليهم؛ فهم فقدوا البصيرة ويعيشون كالأعمى، ويتيهون في ضلال أعمالهم القبيحة، وليس عندهم نور الإيمان للإرشاد إلى حياة طيبة في هذه الدنيا كما جاء في قوله تعالى أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْعُقُونَ ^٤.

ثالثاً: كنّ القلوب

يبين الله ﷻ خلق الإنسان قائلاً ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ^٥ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ^٦، ولكن حينما لا يستخدم حواسه للوعي والعقل لكي يصل إلى الحق، يضل الصراط المستقيم ويصير كالحیوان، كما قال تعالى ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ^٧. إذا تلى سيدنا محمد ﷺ على الكفار والمشركين آيات الله ﷻ كانوا لا يستمعون إليها، ونتيجة هذا الإهمال وعدم الاستماع للحق، تعطية القلوب وتغليظها والوقر في الآذان، كما جاء في القرآن

١ التحرير والتوير. ٢٢٠/١٩، ٢٢١

٢ يطر: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، معاني القرآن وإغريه، المحقق. عند الحليل عده شلي، الماشر عالم الكتب - بيروت، ط: ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، ١٠٨/٤

٣ يطر: الكشاف: ٣/٣٤٨، حاشية الشهاب ٢٢٠/٧

٤ فاطر: ٨

٥ الدهر: ٢، ٣

٦ الفرقان ٤٤

الكريم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾^١ ولنخرج الآن إلى استخراج الألوان البلاغية من هذه الآية.

من بلاغة النظم القرآني:

وفي حمله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ استفهام على سبيل التقرير، ولكنه أظهر للتسبيه على الوصف الموجب للإنكار على من شك في أنهم أظلم. "ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ" أي: "بالقرآن، ولذلك رجع إليها الضمير مذكرا في قوله ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾. "ولعل ذكر ربوبية الله في ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ تزيد شعور شناعة حرم الكفار. "والمراد بـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ المشركون من العرب الذين ذكروا بالقرآن فأعرضوا عنه. وعطف إعراضهم عن الذكر على التذكير نفاء التعقيب إشارة إلى أنهم سارعوا بالإعراض ولم يتركوا لأنفسهم مهلة النظر والتأمل."^٢

﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ "والنسيان مستعمل في التعاضّي عن العمل، ومعنى ما قدمت يده ما أسلفه من الأعمال، وأكثر ما يستعمل مثل هذا التركيب في القرآن في العمل السيء، فصار جاريا مجرى المثل، قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْتُمْ لِلْعَذَابِ﴾^٣، والآية مصوغة بصيغة العموم، والمقصود الأول: منها مشركو أهل مكة"^٤.

١ الكهف ٥٧

٢ نظم الدرر - ٩٠/١٢، وبيطر: روح المعاني: ٢٨٦/٨

٣ الكشف - ٧٢٩/٢، وبيطر: تفسير البحر المحيط - ١٩٤/٧

٤ التحرير والتوير ٣٥٤/١٥

٥ آل عمران: ١٨٢

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ كلمة ﴿أَكِنَّةً﴾ "واحدها كنان، ومجازها عطاء"^١ (المراد من الحجار عند صاحب مجاز القرآن هو معنى الكلمة) ولعل كلمة ﴿عَلَى﴾ في الجملة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ تدل على غطاء كلي كما قال البقاعي: "أي أغطية مستعيلة عليها استعلاء يدل سياق العظمة على أنه لا يدع شيئاً من الحيز يصل إليها، فهي لا تعي شيئاً من آياتنا"^٢.

والمراد بـ ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ في الآية "مدارك العلم، وجملة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ "مستأنفة بيانية نشأت على جملة ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمْتُ يَدَاةً﴾، أي إن لم تعلم سبب نسيانه ما قدمت يداه فاعلم أنا جعلنا على قلوبهم أكنة. وهو يفيد معنى التعليل. و﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ مجرور بحرف محذوف، أي من أن يفقهوه، لتضمنين أكنة معنى الحائل أو المانع." ويشعر القارئ بمجئ ضمير الجمع في ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ للإشعار بنوع من الهيبة والدلالة على قدرة الله الكاملة.

كلمة "وفر" في الجملة ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ "مجازه: الثقل والصمم، وإن كانوا يسمعون، ولكنهم صمّ عن الحق والخير والهدى" ولعل هذه الجملة جاءت على وجه التقرير والتوكيد للجملة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ والله أعلم.

﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ "وجع بعد الأفراد حملاً على لفظ من ومعناه ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا﴾ فلا يكون منهم اهتداء البتة، كأنه محال منهم لشدة تصميمهم ﴿أَبَدًا﴾ مدة التكليف كلها. و﴿إِذَا﴾ حراء وحواء، فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول ﷺ، بمعنى أنهم جعلوا ما يحب أن يكون سبب وجود الاهتداء سبباً في انتفائه، وعلى

١ التحرير والتنوير: ٣٥٥/١٥

٢ مجاز القرآن: ١٨٨/١

٣ نظم الدرر: ٩٢/١٢

٤ التحرير والتنوير: ٣٥٥/١٥

٥ مجاز القرآن: ١٨٩/١

أنه جواب للرسول ﷺ على تقدير قوله: ما لي لا أدعوهم حرصاً على إسلامهم؟ فقيل ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا﴾^١.

وقد وردت كلمة ﴿أَكِنَّةٌ﴾ في بيان كيفية قلوب الكفار، واستخدمت كلمة ﴿وَقَرَأَ﴾ في الأذان لتصوير كيفية عدم استماعهم الحق في آيات أخرى في القرآن الكريم، نحو ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ ونقل قول الكفار في سورة فصلت ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^٢ وقالوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ، يرى قارئ القرآن أنَّ كلمة "أكِنَّة" وكلمة "وقر" وردتا نكرتين دائماً، ويدل التنكير على الكثرة والتسوع في أغطية وصمم، والله اعلم. وتمنعهم أغطية وصمم عن قبول الهداية أبداً؛ فلا يزالون يعيشون في ظلمات الضلال حتى يروا العذاب الأليم في الآخرة.

تبين هذه الآية الكريمة - مستخدمة المفردات في غاية الجمال لتوضيح المعنى - بأن لا أحد أشد ظلماً ممن وعظ بآيات الله تعالى فأعرض عنها فلم يتدبرها ولم ينتفع بها؛ فلذلك جعل الله على قلوبهم أغطية تحجب مدارك عقولهم دون فقهه، وجعل في آذانهم وقراً فصاروا كالصمم فلا يستطيعون أن يستمعوا إليه كما حقه. وقدر عليهم الضلال بسبب إعراضهم فلن يهتدوا إذن أبداً.

رابعاً: ران على القلوب

حينما يرتكب الإنسان ذنباً تكنت نكتة سوداء على قلبه، ثم يستمر في الذنوب حتى تحيط الذنوب قلبه وتغشاه، كما قال تعالى ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ

١ الكشاف ٢٠/٧٣

٢ الأنعام ٢٥، وبطرس الإسراء ٤٦، ولقمان ٧

فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^١ فيقال الرين على قلبه، يعني كثرت المعاصي منه والذنوب، فأحاطت قلبه، فيصيح الحرمان من إمكانيات اتباع الفضيلة والطريق المستقيم إلى مرصات الله ﷻ، والران على القلوب من العذاب الداخلي للكفار والمشركين كما قال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^٢ قد يرى القارئ في هذه الآية تصوير قلوب المجرمين الذين يصرون على الكفر إصراراً مستمراً؛ فمن أجل الإصرار والاستمرار ران على قلوبهم؛ فلذلك فقدوا قدرة التفكير والتدبر لكي يعرفوا الحق في دعوة سيدنا محمد ﷺ. واليكم الآن دراسة هذه الآية دراسة بلاغية.

من بلاغة النظم القرآني:

كلمة ﴿كَلاَّ﴾ "ردع للأثيم عن القول الباطل ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وتكذيب له.^٣ وفيه نوع من الزجر الشديد في هذه الكلمة في بداية الجملة، والله أعلم، و﴿بَلْ﴾ في جملة ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ للإضراب الإبطالي.^٤

وجاء حرف ﴿بَلْ﴾ تأكيداً لمضمون ﴿كَلاَّ﴾ ويبين ما حملهم على أن يقولوا في القرآن ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وأنه ما أعمى بصائرهم من الرين.^٥

وكلمة ﴿رَانَ﴾ من رين وهو صدأ يعلو الشيء الجليل فالمراد بـ ﴿رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ صار ذلك كصدأ على حلاء قلوبهم فعمى عليهم معرفة الخير من الشر.^٦ وقال صاحب "مجاز القرآن" عن ﴿رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ "غلب على قلبه والخمر ترين على عقل السكران"

١ النقرة. ٨١

٢ المطمعي. ١٤

٣ المطمعي: ١٣

٤ يطر: حاشية الشهاب. ٤٤٣/٩

٥ يطر: التحرير والتوير: ١٩٩/٣٠

٦ يطر. المفردات في غريب القرآن. كتاب الرءاء، مادة رين، ص ٢١٦

والموت يرين على الميت^١، والمراد هنا "بل رانت قلوبهم وغشاها ما كانوا يكسبون من الكفر والجرائم حتى صارت عليهم كالصدأ للمرأة، فحال ذلك بينهم وبين معرفة الحق." **﴿وَأَنَّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾** استعارة مصرحة^٢، وهي كما قال السكاكي "أن يكون الطرف المذكور من طرفي التشبيه هو المشبه به"^٣، قد تعتبر الاستعارة من أوائل فنون التعبير الجميلة في اللغة العربية، وهي عبارة عن جعل الشيء الشيء أو جعل الشيء للشيء لأجل المبالغة في التشبيه^٤.

" ومجيء **﴿يَكْسِبُونَ﴾** في الحملة **﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** بصيغة المضارع دون الماضي لإفادة تكرار ذلك الكسب وتعدده في الماضي^٥. تبين هذه الآية علة حرمان الكفار من الإيمان؛ وهي الانطمان في قلوب المكذبين بسبب الاعتداء والإصرار على الإثم. وهذا ما كسبت أيديهم؛ فعطى على قلوبهم ما كانوا يكسبونه من الإثم والمعصية، وفقدت قلوبهم الحساسية التي يدرك بها نور الإيمان.

تتبرر هذه الآية إلى أن الكفار والمشركين فقدوا صلاحية معرفة الحق بسبب الران الذي على قلوبهم، وهذا من كسب أيديهم، لأنهم استمروا على طريق الكفر، ونتيجة لهذا الاستمرار دون الرجوع إلى الحق والاستغفار، حصول الران على القلوب، وتتضح صورة هذه باستخدام الإضراب الإبطالي، وصيغة المضارع والاستعارة من الألوان البلاغية في الآية الكريمة.

١ عار القرآن ٢٨٩/٢، ويطر: الكشف ٧٢١/٤

٢ الحر المديد ٢٨/٧

٣ يطر: حاشية الشهاب: ٤٤٣/٩

٤ يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الحواري الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: ٦٢٦هـ)، مفتاح العلوم، صطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، ص ٣٧٣

٥ يطر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ١٣٦/١، ١٤٠

٦ يطر: التحرير والتوير: ٢٠٠/٣٠

خامساً: الختم والطبع على القلوب

يخبر الله ﷻ أن الكفار والمشركين لا يستمعون إلى دعوة سيدنا محمد ﷺ، فيتساوى في حقهم الإنذار وعدمه، ونتيجة إعراضهم وكفرهم المستمر هو الختم والطبع على قلوبهم، فلن يؤمنوا بما جاء به سيدنا محمد ﷺ حتى يروا العذاب العظيم، كما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ❀ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ^١.

وقال الإمام الطبري "إن الذنوب إذا تابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أعلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله عز وجل والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر منها مخلص، فذلك هو الطبع. والختم الذي ذكره الله تبارك وتعالى في قوله ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾، نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف، التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلها. فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصّف الله أنه حتم على قلوبهم"^٢، فمن العذاب الداخلي الكلي الختم والطبع على قلوب الكفار والمشركين الذين شرحوا صدورهم بالكفر واطمأنوا به، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْنَاهُمْ غَضَبًا مِنْ اللَّهِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ❀ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ❀ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ❀ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ^٣.

١ المزة: ٦، ٧

٢ تفسير الطبري: ١/ ٢٦١

٣ النحل: ١٠٦-١٠٩

قد تحكم هذه الآية على الذين كفروا بآيات الله بعد الإيمان غير المكرهين بأنهم مغضوب عليهم ومستحقوا العذاب، وهذا الحب للكفر بسبب حبهم للحياة الدنيا، وسببت حالتهم هذه حرمانهم من الهدى، والطبع على مدارك علمهم كلها؛ فهم لا يرون الحق ولا يسمعون ولا يتفكرون حتى يجيبوا دعوة سيدنا محمد ﷺ؛ فلذلك هم خسروا أنفسهم خسارة كلية. ولنستخرج الألوان البلاغية من الآية.

من بلاغة النظم القرآني:

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ "استثناء^١ من عموم من كفر لثلاث يقع حكم الشرط عليه، أي إلا من أكرهه المشركون على الكفر، أي على إظهاره فأظهره بالقول لكنه لم يتغير اعتقاده. وهذا فريق رخص الله لهم ذلك. ومصحح الاستثناء هو أن الذي قال قول الكفار قد كفر بلفظه. والاستدراك^٢ بقوله ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ استدراك على الاستثناء، وهو احتراز^٣ من أن يفهم من الاستثناء أن المكره مرخص له أن ينسلخ عن الإيمان من قلبه. و﴿مَنْ شَرَحَ﴾ معطوف بـ لكن على من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، لأنه في معنى المنفي لوقوعه عقب الاستثناء من المثبت، فحرف لكن عاطف ولا عبرة بوجود الواو على التحقيق^٤، "وقوله ﴿شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ معناه انبسط

١ الاستثناء: "هو الإحراج، إلا أو إحدى أحوالها لما كان داخلًا أو مرادًا منزلة الداخل، وهو صر من الديدع"

معجم المصطلحات البلاغية ونظورها: ١٠٥ / ١

٢ الاستدراك: رفع التوهم الذي يتولد من الكلام السابق رفعاً شبيهاً بالاستثناء وهو معنى "لكن". معجم

المصطلحات البلاغية ١٢٤ / ١

٣ "الاحتراز من احتراز منه معنى تحفظت منه، وعنده اس رقيق من تنميط المعنى والمالعة في اللفظ وسماء في العمدة

التنميط. معجم المصطلحات البلاغية: ٦٣ / ١، "ومعنى التنميط. أن يحاول الشاعر معنى، فلا يدع شيئاً يتم به

حسه إلا أوردته وأنشأ به إما مبالغة، وإما احتياطاً واحترازاً من التقصير. "أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني

الأردني (المتوفى: ٤٦٣ هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه: المحقق. محمد يحيى الدين عبد الحميد الناشر. دار

الجيل: ط ٥ ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، ٥٠ / ٢

٤ التحرير والتنوير: ٢٩٣ / ١٤، ٢٩٤

إللكفر باختياره.^١ "وحذف الصمير في 'صَدْرًا' لأنه لا يتكل بصدر غيره إذ البشر لا يقدر على شرح صدر غيره فهو نكرة يراد بها المعرفة. **﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ﴾** والمعنى أنه تعالى حكم عليهم بالعذاب.^٢

ولماذا جاء قوله: **﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾** في صيغة الجمع بعد 'مَنْ' في الجملة السابقة **﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾**؟ فقال أبو عبيدة معمر المشني بأنه جاء "على معنى الجميع لأن 'مَنْ' يقع على الجميع."^٣ لعل التنكير في التركيب **﴿غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ﴾** للتحويل كما يوحى اسم الجلالة بالتعظيم، وتقوية تعظيم العذاب، إذ لا جُرم أعظم من جرمهم،^٤ وقد يشعر القارئ بالهيبه والخوف بهذا التركيب. **﴿وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** الجملة الاسمية تفيد الدوام، والتنكير لكلمة عذاب وعظيم تدل على التفخيم، والله أعلم. وفي الجملة **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾** **﴿ذَلِكَ﴾** إشارة إلى الوعيد، وأنَّ الغضب والعذاب يلحقانهم بسبب استحبابهم الدنيا على الآخرة، واستحقاقهم خذلان الله بكفرهم.^٥ **﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾** "سبب ثان للغضب والعذاب، أي وبأن الله حرمهم الهداية فهم موافونه على الكفر. وهو تذييل^٦ لما في صيغة القوم الكافرين من العموم الشامل للمتحدث عنهم وغيرهم، --- وإقحام لفظ (قوم) للدلالة على أن من كان هذا شأنهم فقد عرفوا به وتمكن منهم وصار سجية حتى كأنهم يجمعهم هذا الوصف. وجريان وصف أو خبر على لفظ (قوم)

١ أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي الحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، المحرر الوحيز في تفسير الكتاب العزيز، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، ٣/٤٢٣

٢ التفسير الكبير: ٢٠/٢٧٦

٣ محاز القرآن: ١/٣٦٨

٤ بطر: تفسير أبي السعود: ٥/١٤٣

٥ الكشاف: ٢/٦٣٧

٦ التذييل: "آخر كل شيء"، وهو أن يدل الظم أو التائر كلاماً بعد تمامه، معجم للمصطلحات البلاعية وتطورها، ٢/١٢٢

يؤذن بأنه من مقومات قوميتهم.^١ كما في قوله تعالى ﴿لَا يَأْتِ لِقَوْمٍ يُفْقِلُونَ﴾^٢. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَتَعْمَهُمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ "جملة مبيية لجملة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ بأن حرمانهم الهداية بحرمانهم الانتفاع بوسائلها... وافتتاح الجملة باسم الإشارة لتمييزهم أكمل تمييز تبييها لمعنى الصلة المتقدمة، وهي اتصافهم بالارتداد إلى الكفر بعد الإيمان بالقول والاعتقاد."^٣

عندما تتأمل السachte في مفردات الآية ﴿قُلُوبِهِمْ وَتَعْمَهُمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ تجد أن القلوب والأبصار جاءت في صيغة الجمع فلمادا جاء السمع مفردا؟ فيحيب ابن عطية بأن: "السمع" اسم جنس وهو مصدر في الأصل، فلذلك وحده. "وَالطَّبْعُ: 'الْحُتْمُ' وهو التأثير في الطين. وقوله تعالى ﴿وَنَطَّبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، أى نحتم عليها محازاة لهم فلا يدخلها الإيمان. وهو أعم من الحتم وأحص من النقص."^٤ وهذه الكلمة هنا مستعارة لمع وصول الإيمان وأدلتها، على طريقة تشبيه المعقول بالمحسوس. وجاءت كلمة 'طبع' في إحدى عشرة آية في القرآن الكريم^٥، واستخدمت في معنى الدم، والغالب في نفي العلم أو الإيمان.^٦ ويرى

١ التحرير والتنوير: ٢٩٦/١٤

٢ البقرة: ١٦٤

٣ التحرير والتنوير: ٢٩٨/١٤

٤ المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٥

٥ محمد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب العمري وآبادي (المتوفى: ٨١٧هـ)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المحقق: محمد علي البحار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ٣/ ٤٩٤

٦ التحرير والتنوير: ٢٩٧/١٤

٧ ومنها: النساء: ١٥٥، التوبة: ٨٧، ٩٣، الأعراف: ١٠٠، ١٠١، يونس: ٧٤، الروم: ٥٩، غافر: ٣٥، محمد: ١٦، المنافقون: ٣

٨ ينظر: عبد العظيم إبراهيم محمد المطيعي (المتوفى ١٤٢٩هـ)، حصائص التفسير القرآني وسماته البلاغية (رسالة دكتوراه)، مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م ٢/ ٣٢٠

الزحشري: "الكاملون في العفلة، الذين لا أحد أغفل منهم، لأن الغفلة عن تدبير العواقب هي غاية الغفلة ومنتهاها."^١

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ "تقرير المعنى بتعريف الطرفين وتوسط ضمير الفصل بينهما. وهذا يفيد القصر والتوكيد."^٢

افتتحت الجملة ﴿لَا جَزَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ بكلمة نفي الشك؛ لأن ما قبلها صار كالدليل على مضمونها.^٣ والتعبير بالخسارة استعارة في الآية المباركة لأنهم باعوا نعيم الآخرة بخسيس من الدنيا قليل بسبب عدم قبول الإيمان؛ فهم مثل التجار الذين أصابتهم الخسارة من حيث أرادوا الربح.

وهل هناك سر بلاغي في استخدام المفردة 'الخاسرون'؟ قال الإمام الرازي: "معلوم أنه تعالى إنما أدخل الإنسان الدنيا ليكون كالتاجر الذي يشتري بطاعته سعادات الآخرة، فإذا حصلت هذه الموانع العظيمة عظم خسارته، فلهذا السبب قال: ﴿لَا جَزَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي هم الخاسرون لا غيرهم، والمقصود التبيه على عظم خسارتهم والله أعلم."^٤ وقال ابن عاشور إن "الخسران مستعار لإضاعة ما شأنه أن يكون سبب نفع... وذلك أنهم لما أعرضوا عن التدبير في صدق الرسول ﷺ فقد أضاعوا عن أنفسهم أنفع سبب للفوز في العاجل والآجل، فكان ذلك سبب أن لا يؤمنوا بالله والرسول واليوم الآخر. فعدم الإيمان مسبب عن حرمانهم الانتفاع بأفضل نافع. ويتسبب عن عدم الإيمان خسران آخر، وهو خسران الفوز في الدنيا بالسلامة من العذاب، وفي الآخرة بالنجاة من النار."^٥

١ الكشاف: ٢/ ٦٣٧

٢ حقائق التعبير القرآني وسماته الملائمة: ٢/ ٣٠٣

٣ ينظر: التحرير والتنوير: ١٤/ ٢٩٨

٥ التفسير الكبير: ٢٠/ ٢٧٧

٥ التحرير والتنوير: ٧/ ١٥٤

وقد أشار القرآن الكريم إلى خسران الكفار في آيات أخرى، ومنها: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^١ وقال عن الذين يفترون على الله الكذب في سورة هود: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ❀ لا جرم أنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ^٢

"وقيل: ورد الخاسر في القرآن على سبعة أوجه:

الأول: بمعنى العجز والعاجز ﴿وَنَحْنُ غَضَبَةٌ إِنَّآ إِذَا لَخَّسِرُونَ﴾ أي لعاجزون.

الثاني: بمعنى العَبَث والخاسر المغبون ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي عَبَثُوهَا.

الثالث الخسران بمعنى: الضلالة ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ أي ضلَّ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أي في ضلال.

الرابع: بمعنى نقصان الكيل والميزان ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ وإذا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أي ينقصون.

الخامس: بمعنى ضِدَّ الرِّيح ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَاُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

السادس: بمعنى العقوبة ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ أي عقوبة ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي من الباقيين في العقوبة.

السابع: بمعنى الهلاك ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي الهالكين ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي الهلاك البين.^٣

١ الأنعام: ١٢

٢ هود: ٢١، ٢٢

٣ بصائر ذوي التمييز: ٢ / ٥٣٨، ٥٣٩

تبين هذه الآيات جزاء الكفار والمشركين في الدنيا وهي أنهم فقدوا قدرة تلقى الإيمان بسبب إصرارهم على الكفر فطبع على قلوبهم فهم لن ينتفعوا بعممة الإيمان حتى يذوقوا عذاباً عظيماً في الآخرة.

سادساً: ضيق الصدر

حين قام النبي ﷺ ينكر منكراً خرافات الشرك والوثنية، ومبيناً آيات الله ﷻ خافت قريش أن تحقق هذه الدعوة تقاليدها، وضائق بها الأمر حينئذ، وظنّ الكفار ألا يمكن استجابة دعوة سيدنا محمد ﷺ، فشعروا بالضيق الشديد في صدورهم كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^١.

تمثل هذه الآية أمام القارئ شخصيتين مختلفتين في الهيئة؛ فأحدهما في حالة انشراح الصدر والسكينة في حياته وهو يتحمل تكاليف شرعية للإسلام بكل سرور وطمأنينة ويستمتع بها، والآخر في حالة ضيق وقلق لأنه لا يستطيع أن يلبي دعوة الحق كأن هذا عمل غير ممكن له. ولنخرج إلى استخراج الألوان البلاغية من هذه الآية.

من بلاغة النظم القرآني:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ "الفاء في ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ﴾ مرتبة الجملة التي بعدها على مضمون ما قبلها من قوله ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ﴾^٢ وما ترتب عليه من التفاريع^١ والاعتراض^٢.

١ الأنعام: ١٢٥

٢ السورة نفسها: ١٢٢

وهذا التفريع إبطال لتعللاتهم بعلّة ﴿حَتَّى تُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾^٢ "نسبة إرادة الهدى والضلال إلى الله إسناد حقيقي لأنه تعالى هو الخالق ذلك والموجد له." أما تعبير ﴿يُشْرَحُ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ فأصل الشرح سطر اللحم، ومنه شرح الصدر أي بسط الصدر بنور وسكينة من جهة الله.^٣ "واستعمل الشرح في الكلام مجازاً في البيان والكشف، واستعمل أيضاً مجازاً في انجلاء الأمر، ويقين النفس به، وسكون البال للأمر، بحيث لا يتردد فيه ولا يغتم منه."^٤

ويرى أبوحيان بأن كلمة ﴿يُشْرَحُ﴾ "كناية عن جعله قابلاً للإسلام متوسعاً لقبول تكاليفه، ونسبة شرح إلى صدره مجاز عن ذات التحصن ولذلك قالوا: فلان واسع الصدر إذا كان الشخص محتملاً ما يرد عليه من المشاق والتكاليف ونسبة إرادة الهدى والضلال إلى الله إسناد حقيقي لأنه تعالى هو الخالق ذلك والموجد له والمريد له وشرح الصدر تسهيل قبول الإيمان عليه وتحسينه وإعداده لقبوله : وضمير فاعل الهدى عائد على الله أي يشرح الله صدره"^٥، ويعين كلا المعنيين في تصوير الشخص المطمئن في ظل الإسلام، ويقبل التكاليف

١ التفريع: "هو أن يثبت لمتعلق أمر حكم بعد إثباته لمتعلق له آخر" معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٢ / ٣١، التفريع "هو من الاستطراد كالتدرج والتقسيم، وذلك أن يقصد الشاعر وصفاً ما ثم يعرج منه وصفاً آخر يزيد الموصوف توكيداً"، العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ٢ / ٤٢

٢ الاعتراض: "هو عبارة عن حملة تعترض بين الكلامين تعيد زيادة في معنى عرض المتكلم." معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ١ / ٢٤٦، "قد وردت الاعتراض في القرآن كثير، وذلك في كل موضوع يتعلق بوع من خصوصيته المبالغة في المعنى المقصود" المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٣ / ٤٢

٣ السورة نفسها: ١٢٤

٤ التحرير والتنوير: ٨-١/٥٧

٥ البحر المحیط: ٤ / ٦٣٩

٦ ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب الشين، مادة شرح، ص ٢٦٦

٧ التحرير والتنوير: ٨-١/٥٨

٨ البحر المحیط: ٤ / ٦٣٩، وبمطر: تفسير البصاوي: ٢ / ١٨١

الشرعية بقلب منشرح. ولعل الفعل المضارع في ﴿يُشْرَحُ﴾، و ﴿يَجْعَلُ﴾ يفيد التجدد والاستمرار، والله أعلم.

﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ أصل كلمة حرج مجتمع الشيء بحيث لا يدخل فيه شيء، وقيل للضيق حرج و للإثم حرج^١، "والصدر مراد به الباطن، مجازا في الفهم والعقل بعلاقة الحلول، فمعنى يشرح صدره يجعل لنفسه وعقله استعدادا وقبولا لتحصيل الإسلام، ويوطئه لذلك حتى يسكن إليه ويرضى به"^٢، "واتباع الضيق بالخرج: لتأكيد معنى الضيق، لأن في المخرج من معنى شدة الضيق ما ليس في ضيق."^٣ قد تصور استخدام تعبير ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ أمام القارئ كيفية ضيق نفس الكافر، كأن قلب الكافر لا يكاد يدخل فيه نور الإيمان.

ويرى الإمام البيضاوي بأن الله ﷻ "شبهه بمبالغة في ضيق صدره في قوله تعالى ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ من يزاول ما لا يقدر عليه، فإن صعود السماء مثل فيما يبعد عن الاستطاعة، ونبه به على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع الصعود"^٤.

﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ "أي: كما يضيق صدره ويبعد قلبه عن الحق. يجعل العذاب أو الخذلان عليهم، فوضع الظاهر موضع المضمّر للتعليل."^٥ وقال البقاعي "ولما كان ما وصف به صدر الضال مما ينفر منه، وكان الرجس في الأصل لما يستقذر، والمستقذر ينفر منه، وكان هذا الكلام ربما أثار سؤالاً، وهو أن يقال: هل هذا - وهو جعل الضال على هذه الصفة - خاص بأهل هذا الزمان، أجب بما حاصله:

١ ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب الحاء، مادة حرج، ص ١١٨

٢ التحرير والتوير: ٨-أ، ٥٨

٣ التحرير والتوير: ٨-أ، ٥٨

٤ تفسير البيضاوي: ٢ / ١٨١، وبطرس: الكشف ٢ / ٦٤

٥ تفسير البيضاوي: ٢ / ١٨١

لا، "كَذَلِكَ" أي مثل ما جعل الله الرجس على من أراد ضلاله من أهل هذا الزمان ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ﴾ أي بما له من القدرة التامة والعظمة الباهرة ﴿الرَّجْسَ﴾ أي الاضطراب والقدر ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ من أهل كل زمان لإرادته سبحانه دوام ضلالهم، فالآية من الاحتباك: ذكر أولاً الضلال دليلاً على حذفه ثانياً، وذكر الرجس ثانياً دليلاً على حذفه أولاً، والآية نص في أن الله يريد هدى المؤمن وضلال الكافر.^١

أما كلمة رجس فقال صاحب "مجاز القرآن" بأن الرجز والرجس سواء، وهما العذاب^٢، وأصل الرجز الاضطراب، والرجس الشيء القذر، وجعل الكافرين رجساً من حيث إن الشرك بالعقل أقبح الأشياء^٣، ويرى الزمخشري بأن المراد بالرجس هنا "الخذلان ومنع التوفيق، وصفه بنقيض ما يوصف به التوفيق من الطيب. أو أراد الفعل المؤدى إلى الرجس وهو العذاب من الارتجاس وهو الاضطراب."^٤ ولعل كلمة "رجس" توحى بنوع من الاضطراب وقذارة في قلب الكافر.

وكلمة ﴿عَلَى﴾ في قوله ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ "تفيد تمكن^٥ الرجس من الكافرين، فالعلاوة مجاز في التمكن، والمراد تمكنه من قلوبهم وظهور آثاره عليهم. وجيء بالمضارع في يجعل لإفادة التجدد في المستقبل، أي هذه سنة الله في كل من ينصرف عن الإيمان، ويعرض عنه"^٦.

١ نظم الدرر: ٢٦٣/٧

٢ ينظر: أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري (المتوفى: ٢٠٩هـ)، محار القرآن، المحقق: محمد فواد سركين،

الناشر: مكتبة الخايمي - القاهرة، ط: ١٣٨١ هـ، ٢٠٦/١

٣ ينظر: المعردات في عريب القرآن: كتاب الرءاء، مادة رجز، ص ١٩٤، ١٩٥

٤ الكشف: ٦٤/٢

٥ تمكن: والمراد به "ثبت فيه" معجم المعردات البلاغية وتطورها: ٢ / ٣٥١

٦ التحرير والتنوير: ٦١/أ-٨

ويرى قارئ القرآن الكريم صورة شخص مضطرب أمامه، يحاول أن يصل العلى بالاستمرار ولكنه في ضيق شديد، كلما يسعى يفشل، وهذا يزيد قلقه؛ وتدل حالته أنه ليس أهلاً للعلى أي للإيمان لأنه فقد قدرته على فهم حقيقة الإسلام.

سابعاً: الحرمان من الهدى

من العذاب الوجداني للكفار أنهم محرومون من نور الهدى ويعيشون في ضلال مبين، ونتيجة هذا الضلال الحياة التعسة الشقية في ظلمات الجهل والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^١. تبين هذه الآية أمام القارئ الجريمة أولاً ثم تعلن الحكم على هذه الجريمة، وهي الحرمان من الهدى والعذاب المؤلم. وإليك الآن دراسة هذه الآية دراسة بلاغية.

من بلاغة النظم القرآني:

يفيد التوكيد في الجملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ صراحة كفرهم، وهذا سبب جزائهم في الدنيا أبحر ما نهم من الهدى. وإضافة آيات إلى اسم الجلالة في الآية ﴿بآيَاتِ اللَّهِ﴾ لتعظيم شأنها وهذا يوحي استعظام جرمهم بأنهم يجروون على الكفر بآيات الله ﷻ. ولعل استخدام الفعل المضارع في ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وفي ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ يدل على استمرار كفرهم وجزائهم المستمر في الدنيا حتى يذوقوا العذاب الأليم، والله أعلم. ومعنى ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ "أن سبب عدم إيمانهم هو أنه تعالى لا يهديهم لختمه على قلوبهم أو عدم هدايتهم مجازاً لعدم إيمانهم بأن تلك الآيات من عنده تعالى"^٢، ومجيء اسم الجلالة في الجملة ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ يوحي الحكم على جريمة الكفر من قبل السلطان الأعظم؛ وهو الله ﷻ.

١ النحل: ١٠٤

٢ حاشية الشهاب: ٦٥٤/٥، وينظر: البحر المحيط: ٩٧/٦

وجملة ﴿وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ معطوفة على جملة ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ "للدلالة على حرمانهم من الخير والقائهم في الشر لأنهم إذا حرموا الهداية فقد وقعوا في الضلالة، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ويشمل العذاب عذاب الدنيا وهو عذاب القتل مثل ما أصاب أبا جهل يوم بدر من ألم الجراح وهو في سكرات الموت"^١، وقال الزمخشري: "أى يعلم الله منهم أنهم لا يؤمنون لا يهديهم الله لا يلفظ بهم، لأنهم من أهل الخذلان في الدنيا والعذاب في الآخرة"^٢

بناءً على الدراسة ممكن أن يقال أن هذا الحرمان من الهدى نتيجة إنكار دعوة سيدنا محمد والإصرار عليه مع الإيذاء، فلذلك فقدوا صلاحية قبول الإسلام؛ فعاشوا في الدنيا بغير نور العلم والهدى، وماتوا على الكفر لكي يذوقوا عذاباً أليماً في الآخرة، ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾^٣ فوصف من لا يهديه الله بوصفين الكذب وشدة الكفر.

ثامناً: الحرمان من ولاية الله ورسوله والمؤمنين

ومن الجزاء الوجداني الحرمان من ولاية الله، ورسوله والمؤمنين ولو كان من ذوي القرى، فأمر الله ﷻ المؤمنين في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^٤، وعكس ذلك بشر المؤمنين أنه ولي المؤمنين فقال تعالى ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^٥، قد أعلن الله عز وجل في سورة التوبة "البراءة المطلقة من المشركين ، واستنكار أن

١ التحرير والتنوير: ٢٨٩/١٤

٢ الكشف: ٦٣٥/٢

٣ الزمر: ٣

٤ التوبة: ٢٣

٥ البقرة: ٢٥٧

يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله، وقد تضمنت السورة في المقطع الأول منها - من أولها إلى ختام الآية الثامنة والعشرين - تحديدا للعلاقات النهائية بين المعسكر الإسلامي والمشركين عامة في الجزيرة مع إبراز الأسباب الواقعية والتاريخية والعقدية التي يقوم عليها هذا التحديد ، بالأسلوب القرآني الموحى المؤثر، وفي تعبيرات قوية الإيقاع، حاسمة الدلالة ، عميقة التأثير^١، ولنستخرج الآن الألوان البلاغية من الآية الأولى من هذه السورة.

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾^٢
من بلاغة النظم القرآني:

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿بَرَاءَةٌ﴾ "خبر مبتدأ محذوف أى هذه براءة"^٣ ويرى أبو السعود بأن "تنوينه للتفخيم، ﴿مَنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لها ليفيدها زيادة تفخيم وتحويل أى هذه براءة مبتدأة من جهة الله تعالى ورسوله. --- وإنما نسبت البراءة إلى الله ورسوله مع شمولها للمسلمين واشتراكهم في حكمها- --- وأصل فيها أن في ذلك تفخيماً لشأن البراءة وتحويلاً لأمرها وتسجيلاً على الكفرة بعاية الذل والهوان ونهاية الخزي والخذلان وتنزيهاً لساحة السبحان والكبرياء عما يوهم شائبة النقص والتدناء تعالى عن ذلك علواً كبيراً وإدراجهم ﴿﴾ في النسبة الأولى وإخراجهم عن الثانية لتنويه شأن الرفيع وإجلال قدره المنيع في كلا المقامين ﴿﴾ وإيثار الجملة الاسمية على الفعلية كأن يقال قد برئ الله ورسوله من الذين أو نحو ذلك للدلالة على دوامها واستمرارها وللتوسل إلى تحويلها

١ في طلال القرآن: ٣/ ١٥٦٥

٢ توبة: ٢٤١

٣ الكشف: ٢/ ٢٤٤، ويظر: المهرر الوجيز: ٤/٣

بالتنوين التفخيمي^١، تستخدم كلمة ﴿بِرَاءة﴾ بمعنى "التقصّي مما يكره مجاورته"^٢، والمعنى في هذه الآية بريء من عهودهم وأديانهم براءة عامة تقتضي المحارجة وإعمال السيف^٣

الفاء في الجملة ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ للتفريع على معنى البراءة، لأنها لما أمر الله بالأذان بها كانت إعلاما للمشركين، الذين هم المقصود من نقض العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين، فضمير الخطاب في فعل الأمر معلوم منه أنهم الموجه إليهم الكلام وذلك التفات^٤. فالتقدير: فليسيحوا في الأرض ونكته هذا الالتفات إبلاغ الإنذار إليهم مباشرة^٥، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ "لقصّد التعميم لأقطارها من دار الإسلام وغيرها والمراد إباحة ذلك لهم وتخليتهم وشأنهم من الاستعداد للحرب أو تحصين الأهل والمال وتحصيل المهاب أو غير ذلك".^٦

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ عطف على ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ داخل في حكم التفريع، لأنه لما أنبأهم بالأمان في أربعة أشهر أعقبه بالتخويف من بأس الله احتراسا من تطرق الغرور، وتهديدا بأن لا يطمئنوا من أن يسلط الله المسلمين عليهم في غير الأشهر الحرم، وإن قبعوا في ديارهم. وافتتاح الكلام بـ ﴿وَاعْلَمُوا﴾ للتنبيه على أنه مما يحق وعيه، والتدبر فيه، -- والمعنى: ﴿أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أنكم غير خارجين عن قدرة الله، ولكنه أمنكم وإذا شاء أوقعكم في الخوف والباس... وكان ذكر الكافرين في الجملة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ إخراجا على خلاف مقتضى الظاهر: لأن

١ تفسير أبي السعود: ٣٩ / ٤

٢ المعردات في عريب القرآن: كتاب الباء، مادة برأ، ص ٥٠

٣ المحرر الوحيد: ٧/٣، مكتوب في التفسير المحارجة، ممكن خطأ مطبعي والكلمة. المحاربة، والله أعلم.

٤ "الالتفات في علم البيان قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، وذلك على عادة افتناهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن نظرية لشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقع بموائد".

الكشاف: ١٤، ١٣ / ١

٥ التحرير والتوير: ١٠ / ١٠٥

٦ تفسير أبي السعود: ٤٠ / ٤

مقتضى الظاهر أن يقول: وإن الله مخزيكم، ووجه تخريجه على الإظهار الدلالة على سببة الكفر في الخزي. والإخزاء: الإذلال. والخزي - بكسر الخاء - الذل والهوان، أي مقدر للكافرين الإذلال: بالقتل، والأسر، وعذاب الآخرة، ما داموا متلبسين بوصف الكفر^١.

تاسعاً: الحرمان من الدور القيادي في المجتمع

كان للكفار والمشركين الدور القيادي في البلاد قبل بعثة النبي ﷺ، ولكن تم حرمانهم من الدور القيادي بسبب رفضهم المتعالي لدعوة سيدنا محمد ﷺ حتى حرموا من دخول البيت الحرام - الذي كانوا يتولونه - وطردهوا من رحمة الله ﷻ فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَءُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^٢

ولندرس الآية دراسةً بلاغيةً.

من بلاغة النظم القرآني:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ "استئناف ابتدائي للرجوع إلى غرض إقصاء المشركين عن المسجد الحرام المفاد بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾^٣، جيء به لتأكيد الأمر بإبعادهم عن المسجد الحرام مع تعليقه بعلة أخرى تقتضي إبعادهم عنه: وهي أنهم نجس، فقد علل فيما مضى بأنهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، فليسوا أهلاً لتعمير المسجد المبني للتوحيد، وعلل هنا بأنهم نجس فلا يعمرؤا المسجد لطهارته^٤.

١ التحرير والتنوير: ١٠٦/١٠، ويطر: نظم الدرر: ٣٧٢/٨، تفسير أبي السعود: ٤١/٤

٢ توبة: ٢٨

٣ التوبة: ١٧

٤ التحرير والتنوير: ١٠٩/١٠

وردت كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ في الجملة ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ "للحصر، وهذا يقتضي أن لا نجس إلا المشرك"^١، ويرى ابن عاشور أن "صفة الحصر هنا لإفادة نفي التردد في اعتبارهم نجساً، فهو للمبالغة في اتصافهم بالنجاسة حتى كأنهم لا وصف لهم إلا النجسية"^٢، ونجد كلاماً جليلاً عند الإمام عبدالقاهر الجرجاني في بلاغة "إِنَّمَا"، فهو يقول "إِنَّمَا تجيء الخبر لا بجعله المحاطب، وإنك تركت الخبر في موضعه فلم تقدمه على المبتدأ، كان الاختصاص فيه، وإن قدمته على المبتدأ، صار الاختصاص الذي كان فيه مبتدأ"^٣.

في ضوء كلام عبدالقاهر الجرجاني نرى أن الاختصاص في الخبر وهي نجاسة المشركين، يعني صفة النجاسة مختصة بالمشركين، وهذا الخبر كان معروفاً عند المخاطبين.

ولما إذا قال الله إنهم نجس؟ يرى صاحب الكشف "لأنَّ معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، ولأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملازمة لهم. أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها، مبالغة في وصفهم بها."^٤ ويرى سيد قطب في ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ "يَجَسُّم التعبير نجاسة أرواحهم فيجعلها ماهيتهم وكيانهم. فهم بكليتهم وبحقيقتهم نجس، يستقدره الحس، ويتطهر منه المتطهرون! وهو النجس المعنوي لا الحسي في الحقيقة، فأحسامهم ليست نجسة بذاتها. إنما هي طريقة التعبير القرآنية بالتجسيم"^٥، ويمكن يراد به كلمة ﴿نَجَسٌ﴾ نجاسة معنوية وظاهرية معاً، والله أعلم.

١ التفسير الكبير ٢٢/١٦

٢ التحرير والتوير: ١٠ / ١٦٠

٣ دلائل الإعجاز ص ٣٣٠، ٣٤٥

٤ الكشف ٢٦١/٢

٥ في طلال القرآن: ١٦١٨/٣

﴿فَلَا يَقْرَبُوا﴾ "أي المشركون، وهذا نهي للمسلمين عن تمكينهم من ذلك، عبر عنه بنهيهم مبالغة فيه"^١، وقال أبو السعود: "فإن تقييد النهي بذلك أي ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ يدل على اختصاص النهي عنه بوقت من أوقات العام أي لا يحجوا ولا يعتمروا بعد حج عامهم هذا وهو عام تسعة من الهجرة"^٢ ﴿عِيْلَةً﴾ الافتقار ويراد به ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً﴾ خوف الفقر هنا.^٣ "أي فقرا بسبب منعهم من الحج وانقطاع ما كانوا يجلبونه إليكم من الإرفاق والمكاسب"^٤، "وكلمة ﴿مَنْ﴾ في الجملة ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ تفيد التبعية."^٥ أي: "من عطائه أو من تفضله بوجه آخر فأرسل الله تعالى السماء عليهم مدرارا أغزر بها خيرهم وأكثر ميرهم وأسلم أهل تباله^٦ وجرش^٧ فحملوا إلى مكة الطعام وما يعاش به فكان ذلك أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته. --- ومعنى قوله ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ إن أوجبت الحكمة إعناءكم وكان مصلحة لكم في دينكم"^٨. "إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" أي عليم بأحوالكم، وحكيم لا يعطي ولا يمنع إلا عن حكمة وصواب"^٩.

"هذه هي الخطوة النهائية الأخيرة التي أعلنت أنه لا يمكن التعايش بين منهجين للحياة بينهما هذا الاختلاف الجذري العميق البعيد المدى الشامل لكل جزئية من جزئيات

١ نظم الدرر / ٨ / ٤٢٩

٢ تفسير أبي السعود: ٥٧/٤، ويطر: التحرير والتنوير: ١٠ / ١٦٠

٣ بطر. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ٤ / ١١٧

٤ تفسير أبي السعود: ٥٧/٤

٥ التفسير الكبير: ٢٣ / ١٦

٦ "تالة بالفتح قبل تالة التي جاء ذكرها في كتاب مسلم بن الحجاج موضع بلاد اليمس وأطها عبر تالة الحجاج

بن يوسف فإن تالة الحجاج بلدة مشهورة من أرض تامة في طريق اليمس قال المهلب تالة في الإقليم الثاني

عرصها تسع وعشرون درجة وأسلم أهل تالة وجرش من غير حرب" ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله،

معجم البلدان، دار الفكر - بيروت، ٩ / ١

٧ "قيل إن جرش مدينة عظيمة باليمس وولاية واسعة" معجم البلدان: ٢ / ١٢٦

٨ الكشاف: ٢ / ٢٦٢

٩ التفسير الكبير: ٢٣ / ١٦

الاعتقاد والتصور، والخلق والسلوك، والتنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي - والإنساني - وهو الاختلاف الذي لا بد أن ينشأ من اختلاف الاعتقاد والتصور .. منهجين للحياة أحدهما يقوم على عبودية العباد لله وحده بلا شريك والآخر يقوم على عبودية العباد للعباد، وللآله المدعاة، وللأرباب المتفرقة. ثم يقع بينهما التصادم في كل خطوة من خطوات الحياة لأن كل خطوة من خطوات الحياة في أحد المنهجين لا بد أن تكون مختلفة مع الأخرى، ومتصادمة معها تماماً، في مثل هذين المنهجين وفي مثل هذين النظامين".^١

وهذا هو مظهر من الإعلان على لسان النبي في سورة الكافرون:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ❀ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ❀ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ❀ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ❀ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ❀ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^٢

الجزء الجسماني:

والنوع الثاني من جزء الكفار والمشركين في الدنيا الجزء الجسماني، وهناك إشارات في القرآن الكريم إلى هذا النوع من الجزء للكفار والمشركين، ومنها على سبيل المثال أذكر الجوع والخوف، والقتل والأسر.

أولاً: الجوع:

يبين الله ﷻ ضابطة الهدى في القرآن الكريم قائلاً ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^٣، ويذكر سبب عدم اتباع الهدى من قبل الكفار والمشركين، فقال ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُخْطِفُ مِنْ أََرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ

١ في طلال القرآن: ١٥٨٦/٣

٢ الكافرون: ١-٦

٣ القصص: ٥٦

حَرَمًا آمِنًا يُجَنَّى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ^١
ثم يعلن الله عز وجل ﴿وَكُنَّا أَهْلُكُمْ مِنْ قَرْيَةٍ نَقُورُ مَعِيشَتَهَا فَبِئْسَ مَسَاكِينُكُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ
نَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رِثْكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رُسُلًا
يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ^٢﴾ حينما أصرت واستمرت قريش
على الكفر والشرك- وهو ظلم عظيم- قد سلط الله ﷻ عليها العذاب الجسماني في صورة
الخوف والجوع، فقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا
مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا
يَصْنَعُونَ ﴿٥٩﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ
ظَالِمُونَ^٣﴾.

نرى السياق "يقوي هذا الاحتمال إذا كانت هذه الآية قد نزلت بعد أن أصاب
أهل مكة الجوع الذي أُنذروا به في قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ
﴿٥٨﴾ يَعُشِّي النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ وهو الدخان الذي كان يراه أهل مكة أيام القحط
الذي أصابهم بدعاء النبي ﷺ. ويؤيد هذا قوله بعد: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ^{٥٩}﴾.

وقال ابن عباس "إن القرية المضروب بها المثل مكة كانت بهذه الصفة التي ذكر الله
لأنها كانت لا تُعزى ولا يغير عليها أحد. وكانت الأرزاق تجلب إليها، وأنعم الله عليها رسوله
والمراد هذه الضمائر كلها أهل القرية، فكفروا بأنعم الله في ذلك وفي جملة الشرع والهداية،

١ السورة بمعناها ٥٧

٢ السورة بمعناها: ٥٨، ٥٩

٣ الحبل ١١٢، ١١٣

٤ الدخان: ١٠، ١١

٥ التحرير والتنوير. ٣٠٣/١٤

فأصابتهم السون والخوف، وسرايا رسول الله ﷺ وغزواته، هذا إن كانت الآية مدنية وإن كانت مكية فحوق السنين وخوف العذاب من الله بحسب التكذيب^١. ولنستخرج الآن الألوان البلاغية من هذه الآيات الكريمة:

من بلاغة النظم القرآني:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ والتعبير عن ضرب المثل الواقع في حال نزول الآية بصيغة الماضي للتشويق إلى الإصغاء إليه، وهو من استعمال الماضي في الحال لتحقيق وقوعه^٢.
 ﴿كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ هذه صفات ثلاثة لقريّة، قال الإمام الرازي "آمنة إشارة إلى الأمن، وقوله: مطمئنة إشارة إلى الصحة، لأن هواء ذلك البلد لما كان ملائماً لأمرجتهم اطمأنوا إليه واستقروا فيه، وقوله: يأتيها رزقها رغداً من كل مكان إشارة إلى الكفاية"^٣ ومعنى ﴿فَكَفَّرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ﴾ "الكفر بالنعمة، لأنهم أشركوا غيره في عبادته فلم يشكروا المنعم الحق. وهذا يشير إلى قوله تعالى ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾"^٤. واقتران فعل ﴿كَفَّرَتْ﴾ بفاء التعقيب بعد أن كانت آمنة مطمئنة باعتبار حصول الكفر عقب النعم التي كانوا فيها حين طرأ عليهم الكفر، وذلك عند بعثة الرسول إليهم. وأما قرن ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ بفاء التعقيب فهو تعقيب عربي في مثل ذلك المعقب لأنه حصل بعد مضي زمن عليهم وهم مصرّون على كفرهم والرسول يكرر الدعوة وإنذارهم به، فلما حصل عقب ذلك بمدة غير طويلة وكان جزاء على كفرهم جعل

١ المحرر الوحي: ٤٢٦ / ٣

٢ التحرير والتوير: ٣٠٤ / ١٤

٣ التفسير الكبير: ٢٧٩ / ٢٠

٤ المحل ٨٣

كالشيء المعقب به كفرهم" ^١، قال الزمخشري: "الإذاقة واللباس استعارتان، والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار" -- فكأنه قيل: فأذاقه ما غشيه من الجوع والخوف ^٢، "والإذاقة تفيد ما لا تفيد الكسوة من التأثير والإدراك وأوثر اللباس على الطعم للدلالة على الشمول والإذاقة على الكسوة للدلالة على التأثير والتأثر الموجب لقوة الإدراك" ^٣ ولصاحب 'في ظلال القرآن' تفسير جميل في هذا المضمون، فقال "يجسم التعبير الجوع والخوف فيجعله لباساً؛ ويجعلهم يدوقون هذا اللباس ذوقاً، لأن الذوق أعمق أثراً في الحس من مساس اللباس للجلد. وتتداخل في التعبير استجابات الحواس فتضاعف مس الجوع والخوف لهم ولذعه وتأثيره وتغلله في النفوس. لعلهم يشفقون من تلك العاقبة التي تنتظرهم لتأخذهم وهم ظالمون" ^٤، "وقد يجتمع التحقيق والتخييل في الاستعارة في قوله تعالى ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ والظاهر من هذه الاستعارة هو التخييل لأن الله ﷻ لما ابتلاهم لكفرهم باتصال هاتين البليتين، ولما استعار اللباس ههنا مبالغة في الاشتمال عليهم أخذ الوهم في تصوير ما للمستعار منه من التغطية والستر والإرسال رعاية لمزيد البيان في ذلك، وإن جعلت من باب التحقيق فهو أن ما يرى على الإنسان عند شدة الجوع والخوف من الضعف والهزال وانتقاع اللون وعلو الصفرة وراثاة الهيئة وركاكة الحال وحصول القلق والخبية يضاهي الملابس في اختلاف أحوالها وألوانها" ^٥.

واستخدمت في الجملة ﴿فَكَفَّرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ﴾ "الأنعم جمع قلة، فكان المعنى: أن أهل تلك القرية كفرت بأنواع قليلة من النعم فعذبها الله، وكان الأنسب في الظاهر أن يقال: إنهم كفروا بنعم عظيمة لله فاستوجبوا العذاب، فما السبب في ذكر جمع القلة؟ والجواب: المقصود

١ التحرير والتنوير: ٣٠٦/١٤

٢ الكشف: ٦٣٨/٢

٣ حاشية الشهاب: ٣٧٤/٥، ويطر: تفسير الطبري: ٣١١/١٧، والتفسير الكبير: ٢٧٩-٢٨٠

٤ في ظلال القرآن: ٤٩٥/٤

٥ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ١٠٢/١

التنبية بالأدنى على الأعلى يعني أن كفران النعم القليلة لما أوجب العذاب فكفران النعم الكثيرة أولى بإيجاب العذاب.^١ وقوله ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي: بما كانوا يصنعون من الكفر بأنعم الله، ويحذون آياته، ويكذبون رسوله.^٢

وعندما نتأمل في الآية ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ نرى أن الكلام عن القرية التي ﴿كَانَتْ أَمَةً مَطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ يغير في آخر الآية فقوله ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، فما السّر في هذا الأسلوب؟ فهو أن المراد بـ "قَرْيَةٍ" أهلها على سبيل المجاز المرسل^٣ (علاقته المحلية لأنه ذكر لفظ "قرية" وأريد بها أهلها)، لأجل أنها مكان الأمن وظرف له، والظروف توصف بما حل فيها.^٤ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ تأكيد الجملة بلام القسم وحرف التحقيق "وَلَقَدْ" للاهتمام بهذا الخبر تبييناً للسامعين المعرض بهم لأنه محل الإنذار.^٥ "والضمير في 'جاءهم' لأهل مكة، والرسول محمد ﷺ، ﴿وَالْعَذَابُ﴾ الجوع وأمر بدر ونحو ذلك إن كان التمثيل بمكة وكانت الآية مدنية، وإن كانت مكية فهو الجوع فقط"^٦

﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي حال التباسهم بما هم عليه من الظلم الذي هو كفران نعم الله تعالى وتكذيب رسوله غير مقلعين عنه بما ذاقوا من مقدماته الزاجرة عنه وفيه دلالة على

١ التفسير الكبير: ٢٧٩ / ٢٠

٢ تفسير الطبري، ٣١١ / ١٧

٣ الخار المرسل، أحد أنواع المجاز اللغوي علاقته بين ما استعمل فيه وما وضع له ملازمة غير التشبيه، معجم

المصطلحات البلاغية وتطورها: ٢٠٥ / ٣

٤ التفسير المنير: ٢٥٠ / ١٤

٥ التحرير والتبوير: ٣٠٨ / ١٤

٦ المهرر الوحي: ٤٢٧ / ٣

تماديهم في الكفر والعباد وتجاوزهم في ذلك كل حد^١، ولعل التعبير بالجملة الاسمية يدل
الاستمرار في الظلم.

ومن المعلوم أن الله ﷻ سلط على الكفار والمشركين الجوع سنين متوالية بدعاء رسول
الله ﷺ، حتى أكلوا العلهز والجيف^٢، وكانوا يرون الدخان بسبب الجوع الشديد، وهذا مظهر
كبير من مظاهر العذاب الجسماني للكفار والمشركين مع الآلام والمصائب الأخرى كالأمراض
والخوف والقتل والأسر.

ثانيًا: القتل والأسر

يرى قارئ القرآن أن من جزاء الكفار والمشركين الجسماني في الدنيا القتل والأسر حيث
أمر الله ﷻ المؤمنين بـ ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ
﴿١﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا
تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾^٣،
ثم نسخ الله ﷻ ذلك بقوله عن مشركي قريش "الذين عاهدكم رسول الله ﷺ في الحديبية، وكان
بقي من مدتهم أربعة أشهر بعد يوم النحر. فأمر الله ﷻ نبيه أن يوفي لهم بعهدهم إلى مدتهم، ومن
لا عهد له إلى انسلاخ الحرم، ونبد إلى كل ذي عهد عهده، وأمره بقتالهم حتى يشهدوا أن لا إله
إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأن لا يقبل منهم إلا ذلك"^٤؛ فقال تعالى ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ
الْحَرَامُ فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذَلُوهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ وَأَقْبِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَأَيَّوْا
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^٥.

١ تفسير أبي السعود: ١٤٦/٥

٢ والعلهر: الوبر يمحس بالدم والفراد يأكلونه. ينظر: تفسير الطبري: ٣١١ / ١٧

٣ البقرة: ١٩٠، ١٩١

٤ تفسير الطبري: ١٣٣ / ١٤

٥ التوبة: ٥

قد يوجد التصوير الحسى لتبيين غضب الله ﷻ على الكفار والمشركين إذ أضاف
جل وعلى قتلهم إلى نفسه ونفاه عن المؤمنين به الذين قاتلوا المشركين، وأعلن أن الله ﷻ مع
المؤمنين فلا يمكن أن يصلح كيد الكافرين والمشركين أبداً، فقال الله ﷻ:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ
مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ دَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّ تَسْتَفْتِحُوا
فَقَدْ خَاءَكُمْ الْفَتْحَ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً
وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^١

والآن ندرس هذه الآيات دراسة بلاغية:

من بلاغة النظم القرآني:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ قد نفى الله ﷻ قتل الكفار والمشركين عن المؤمنين وأضافه إلى نفسه
لأنه مسبب قتلهم^٢، وقال الزمخشري أن "الفاء جواب شرط محذوف تقديره: إن افتخرتم
بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾" لأنه هو الذي أنزل الملائكة وألقى الرعب في
قلوبهم، وشاء النصر والظفر وقوى قلوبكم، وأذهب عنها الفزع والجزع"^٣.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ "وجه الاستدراك المفاد بـ 'لكن' أن الخير نفى أن يكون القتل
الواقع صادراً عن المخاطبين فكان السامع بحيث يتطلب أكان القتل حقيقة أم هو دون
القتل، ومن كان فاعلاً له، فاحتيج إلى الاستدراك بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾. وقدم المسند
إليه على المسند الفعلي في قوله: ولكن الله قتلهم دون أن يقال ولكن قتلهم الله، لمجرد

١ الأنفال: ١٧ - ١٩

٢ يطر: تفسير الطبري: ١٣ / ٤٤١

٣ الكشف: ٢ / ٢٠٧

الاهتمام لا الاختصاص، لأن نفي اعتقاد المخاطبين أنهم القاتلون قد حصل من جملة النفي، فصار المخاطبون متطلبين لمعرفة فاعل قتل المشركين فكان مهمما عندهم تعجيل العلم به^١.

﴿وَمَا زَمِنَتْ إِذْ زَمِنْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ "يعنى أن الرمية التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة، لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يلفه أثر رمى البشر، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم، فأثبت الرمية لرسول الله ﷺ لأن صورته وجدت منه، ونفاها عنه لأن أثرها الذي لا تطيقه البشر فعل الله عز وجل، فكان الله هو فاعل الرمية على الحقيقة، وكأنها لم توجد من الرسول ﷺ أصلاً"^٢.

﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ "فهذا معطوف على قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ والمراد من هذا البلاء الإنعام، أي ينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصرة والغنيمة والأجر والثواب، ولولا أن المفسرين اتفقوا على حمل الابتلاء هاهنا على النعمة، وإلا لكان يحتمل المحنة بالتكليف فيما بعده من الجهاد"^٣.

لعل تكبير ﴿بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ يفيد كثرة النعمة، والجملة الاسمية مؤكدة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ غَلِيمٌ﴾ تدل على استمرار مراقبة الله السميع العليم على خلقه، والله أعلم.

﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ "ذَلِكُمْ إشارة إلى البلاء الحسن، أي الغرض ذلكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ﴾ معطوف على ذلك. يعنى: أن الغرض إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين"، وهذا سؤال: ما المراد بتوهين كيد الكافرين؟ فيجيب الرازي أن "توهين الله تعالى

١ التحرير والتبوير: ٩ / ٢٩٤

٢ الكشف: ٢ / ٢٠٧

٣ التفسير الكبير: ١٥ / ٤٦٧

٤ الكشف: ٢ / ٢٠٧

كبدهم يكون بأشياء بإطلاع المؤمنين على عوراتهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، وتفريق كلمتهم، ونقض ما أبرموا بسبب اختلاف عزائمهم^١.

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْقِتَابُ﴾ "خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم، وذلك أنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أقرانا للضيف وأوصلنا للرحم وأفكنا للعاني، إن كان محمد على حق فانصره، وإن كنا على حق فانصرنا"^٢، وهنا التفات من المؤمنين إلى الكفار والمشركين، وقد يشعر القارئ بغضب الله ﷻ في هذا الخطاب.

"وصيغ ﴿تَسْتَفْتِحُوا﴾ بصيغة المضارع مع أن الفعل مضى لقصد استحضار الحالة من تكريرهم الدعاء بالنصر على المسلمين، وبذلك تظهر مناسبة عطف ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا فَنُفُو خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ - إلى قوله - وأن الله مع المؤمنين أي تنتهوا عن كفركم بعد ظهور الحق في جانب المسلمين. وعطف الوعيد على ذلك بقوله: ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعَذِّبْكُمْ﴾ أي: إن تعودوا إلى العناد والقتال نعد، أي نعد إلى هزيمكم كما فعلنا بكم يوم بدر"^٣، (أي نعد لكم بالأسر والقتل^٤)

﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فيه انقطاع رجاء الكفار من الانتصار حتى في المستقبل على أي حال.

والجملة الاسمية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ "زيادة في تأييس المشركين من النصر، وتنويه

١ التفسير الكبير. ١٥ / ٤٦٨

٢ الكشف. ٢ / ٢٠٨

٣ التحرير والتنوير ٩ / ٢٩٩

٤ فتح القدير للشوكاني ٢ / ٣٤٠

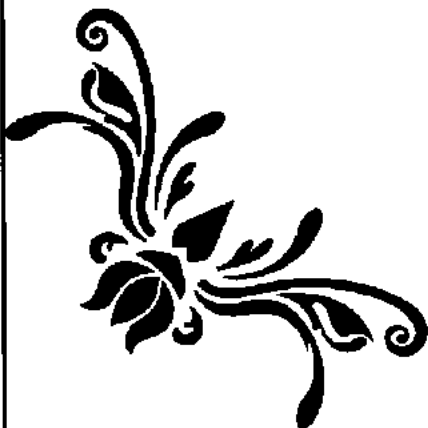
نفصل المؤمنين بأن النصر الذي انتصروه هو من الله لا بأسبابهم فإنهم دون المشركين عددا وعدة".^١

في الختام يمكن القول أن الكفار والمشركين واجهوا مكافأة مزدوجة على إنكارهم دعوة سيدنا محمد ﷺ، وهذا هو مكافأة جسدية وعاطفية وهذا أمر فظيع بالتأكيد.



المبحث الثاني:

من بلاغة النظم القرآني في بيان جزاء الكفار والمشركين في الآخرة



المدخل:

من المعلوم أن في كثير من الأحيان يعطي الله ﷻ الكفار نصيبا وافرا من الدنيا؛ لأن منافع الدنيا وطبيعتها حقيرة وخسيسة عنده، والدنيا هي دار الفناء والآخرة دار البقاء، كما في قوله ﷻ «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوقِعَهُمْ سِقْظًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ» * وَلِيُوقِعَهُمْ أُنُوبًا وَسُرْرًا عَلَيْهَا يُتَكَفَّوْنَ * وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ»^١، وبين القرآن الكريم بأن الله ﷻ يمهلهم ليتبعوا أهواءهم ويكتسبوا السيئات، ولكن هذا الإمهال ليس فيه خير للذين كفروا كما ذكر في قوله ﷻ «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَيْرٌ لِمَنْ يَتَّقِي» * وَلِيُوقِعَهُمْ أُنُوبًا وَسُرْرًا عَلَيْهَا يُتَكَفَّوْنَ * وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ»^٢، وجدت أن القرآن الكريم اشتمل على آيات كثيرة جداً تناولت ذكر جزاء الكفار والمترفين في الآخرة، ولذلك رأيت أن أدرجها تحت محاور ثلاثة وأختار في كل محور منها بعض الآيات للدراسة البلاغية، والمحاور الثلاثة هي كالآتي..

• من سكرات الموت إلى البعث

• من البعث إلى الحشر

• من دخول النار إلى الخلود في النار

أولاً: من سكرات الموت إلى البعث

إن أول مرحلة يواجهها الكافر والمترك من الجزاء في الآخرة هي مرحلة سكرات الموت، ويصور القرآن الكريم هذه الحالة في عدد من المواضع منها ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ

١ الرحرف: ٣٣-٣٥

٢ آل عمران: ١٧٨

بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ^١، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الرَّاقِيَةَ﴾ وقيل من راقى
 ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ والتفت الساق بالساق ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ^٢﴾.

وقال الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾
 لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ
 بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ^٣

توضح هذه الآية صورة حياة للكافر عند سكرات الموت، وكيفية اليأس والخوف
 الشديد التي تغمر الكافر عند مجيء الملائكة لنزع روحه، ولستنبط الآن الألوان البلاغية من
 هذه الآية.

من بلاغة النظم القرآني:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ "﴿حَتَّىٰ﴾ ابتدائية وغاية لمقدر
 يدل عليه ما قبلها والتقدير فلا أكون كالكفار الذين تممهم الشياطين وتحضرهم حتى إذا
 جاء إلح^٤، ويتفق مع الألوسي ابن عطية، وابن حيان، والخفاجي، وابن عاشور في أن
 ﴿حَتَّى﴾ ابتدائية^٥، ﴿إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ "وقدم المفعول ليذهب الوهم
 في فاعله كل مذهب فقال ﴿أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ فكشف له الغطاء، وظهر له الحق، ولاحت له
 بوارق العذاب، ولم يبق في شيء من ذلك ارتياب^٦."

١ ق ١٧-١٩

٢ القيامة ٢٦-٣٠

٣ المؤمنون ٩٩، ١٠٠

٤ روح المعاني ٩/ ٢٦١

٥ يطر الخمر الوحير. ١٥٥/٤، البحر المحيط. ٥٨٣/٧، حاشية الشهاب: ٦/ ٣٤٥، التحرير والتنوير: ١٨/ ١٢٢

٦ نظم الدرر: ١٣/ ١٨٤

"والصمير في قوله ﴿أَخَذَهُمْ﴾ للكفار، وقوله ﴿ارْجِعُونَ﴾ معناه إلى الحياة الدنيا، وجمع الصمير يتخرج على معيين إما أن يخاطبه مخاطبة الجمع تعظيماً على نحو إخباره تعالى عن نفسه بنون الجماعة في غير موضع، وإما أن تكون استغاثة بربه أولاً ثم خاطب ملائكة العذاب بقوله ﴿ارْجِعُونَ﴾^١.

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ "ليس المراد بلعل الشك فإنه في هذا الوقت باذل للجهل في العزم على الطاعة إن أعطي ما سأل، بل هو مثل من قصر في حق نفسه وعرف سوء عاقبة ذلك التقصير فيقول مكنوني من التدارك لعلني أتدارك فيقول هذه الكلمة مع كونه حازماً بأنه سيتدارك، والمراد بقوله: ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ "فيما قصرت فیدخل فيه العبادات البدنية والمالية والحقوق، وهذا أقرب كأنهم تمنوا الرجعة ليصلحوا ما أفسدوه ويطيعوا في كل ما عصوا."^٢

﴿كَأَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ "كألاً" ردع عن طلب الرجعة، وإنكار واستبعاد. والمراد بالكلمة: الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض، وهي قوله ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ هُوَ قَائِلُهَا لا محالة، لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه وتسلب الندم. أو هو قائلها وحده لا يجاب إليها ولا تسمع منه.^٣ "والوراء هنا مستعار للشيء الذي يصيب المرء لا محالة وبناله وهو لا يظنه يصيبه، شبه ذلك بالذي يريد اللحاق بالسائر فهو لاحقاً"، وهذا كقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾^٤ وقوله ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾^٥ وقال

١ المحرر الوحيد: ١٥٥/٤، ١٥٦، ويطر: روح المعاني: ٢٦٢/٩

٢ التفسير الكبير: ٢٣/٢٩٣

٣ الكشف: ٢٠٣/٣

٤ التحرير والتوير: ١٨/١٢٤

٥ الروح: ٢٠

٦ الحانية: ١٠

الميرور آنا دي عن البرج: "هو الحاجر بين الشيتين. والتبرّخ من وقت الموت إلى القيامة: من مات دخله"^١

﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي الكفار برّخ حاجر بينهم وبين الرجعة إلى وقت البعث. وفي هذه الجملة إقباط كلي أن لا رجوع إلى الدنيا، وإنما الرجوع إلى الآخرة استعير البرج للمدة التي بين موت الإنسان وبعثه"^٢.

تصوّر الآية كيفية اليأس والخوف التي تحيط بالكفار عند سكرات الموت، وهي أول مرحلة حراء الكفار في الآخرة، فالكافر يتمنى أن يعود إلى الدنيا لكي يؤمن بالله ويصدق بالرسول ويعمل من الصالحات التي ترك قبل ذلك، ولكن هذا الأمر غير ممكن في ذلك الوقت. وبين القرآن الكريم - مستخدماً المفردات والتراكيب في غاية المناسبة نحو "ارجعون"، "لعلي أعمل صالحاً"، "من ورائهم"، "إلى يوم يبعثون" لتصوير يأس الكفار والمشرّكين في أول مرحلة جزائهم في الآخرة - أن الحقيقة تكشف أمام كل شخص عند الموت، وأن من أصّر على الكفر حتى يحضره الموت، طلب الرجوع إلى الدنيا ليصلح ما أفسده، ولكن دعاؤه في ضلال.

تم يرسم القرآن الكريم مشهداً مفرعاً مرعباً مكروباً مرهوباً لهؤلاء الكفار والمشرّكين حيث يطهر الملائكة وهم باسطو أيديهم بالعذاب لاستخراج أرواحهم وهم يتابعونهم بالتأنيب يقول عرّس قائل ﴿وَلَوْ تَرَى إِدِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ غَدَاتُ الْمُؤْمِنِينَ مَا كُنْتُمْ تُقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾^٣.

١ بصائر ذوي التمييز ٢/ ٢٣٨

٢ المحر المحيط: ٧/ ٥٨٤، ومطر: الكشف: ٣/ ٢٠٣

٣ الأنعام: ٩٣

وبعد استخراج أرواح الكفار يبين الله عز وجل كيفية معاملة ملائكة العذاب لهم في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْذِبَارُهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^١

وإذا نظرنا إلى الألوان البلاغية في هذه الآية نجدها تحتوي على أساليب متعددة، فلنتقل إلى دراستها بالتفصيل.

من بلاغة النظم القرآني:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ مخاطب غير معين فهنا ليعم كل مخاطب^٢، وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمراً عظيماً عحيماً فطبعاً إلخ^٣، ﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ "وكلمة إذ ظرف لترى والمفعول محذوف أي ولو ترى الكفرة أو حال الكفرة حين تنوفاهم الملائكة ببدر وتقديم المفعول للاهتمام به وقيل الفاعل صمير عائد إلى الله عز وجل والملائكة مبتدأ وقوله تعالى ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْذِبَارُهُمْ﴾ حرة والجملة حال من الموصول.^٤ يقول ابن عاشور "إن كان المراد بالذين كفروا مشركي يوم بدر، وكان ذلك قد مضى يكن مقتضى الظاهر أن يقال ولو رأيت إذ توفى الذين كفروا الملائكة. فالإتيان بالمضارع في الموضعين مكان الماضي لقصد استحضار تلك الحالة العجيبة، وهي حالة ضرب الوجوه والأذبار، ليخيل للسامع أنه يشاهد تلك الحالة، وإن كان المراد المشركين حينما كانوا كان التعبير بالمضارع على مقتضى الظاهر"^٥. ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْذِبَارُهُمْ﴾ وقوله ﴿وَأَذْذِبَارُهُمْ﴾ قال جمهور المفسرين يريد

١ الأعمال: ٥٠، ٥١

٢ بطر. التحرير والتنوير ٤٠/١٠

٣ بطر. المحرر الوجيز: ٦١٨/٢، حاشية الشهاب: ٢٨١/٤، البحر للمديد: ٣٣٩/٢، التحرير والتنوير: ٤٠/١٠،

البحر للمديد: ٥٢/٣

٤ تفسير أبي السعود: ١٢١/٣، ويطر: الكشف. ٢٢٩/٢

٥ التحرير والتنوير: ٤٠/١٠

أستأههم، ولكن الله كريم كفى، وقال ابن عباس أراد ظهورهم وما أدير منهم، ومعنى هذا أن الملائكة كانت تلحقهم في حال الإدبار فتضرب أديارهم، فأما في حال الإقبال فبين تمكن ضرب الوجوه.^١ ولعل هذا للتعميم أي يضربون جميع أجسادهم.^٢

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ معطوفة على جملة **﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ﴾** تقديره يقولون لهم، وهذه الجملة من قول الملائكة.^٣ "و'الذوق' مستعمل في مطلق الإحساس، بعلاقة الإطلاق. وإضافة العذاب إلى الحريق من إضافة الجنس إلى نوعه، لبيان النوع، أي عذابا هو الحريق، فهي إضافة بيانية. والحريق هو اضطرام النار، والمراد به جهنم، فلعل الله عجل بأرواح هؤلاء المشركين إلى النار قبل يوم الحساب."^٤

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ "يحتمل أن يكون من كلام الله ومن كلام الملائكة"،^٥ "واسم الإشارة ذلك بما قدمت أيديكم إلى ما يشاهدونه من العذاب، وجيء بإشارة البعيد لتعظيم ما يشاهدونه من الأهوال. ومعنى **﴿قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾** أسلفته من الأعمال فيما مضى، أي من الشرك وفروعه من الفواحش. وذكر الأيدي استعارة مكينة تشبيه الأعمال التي اقترعوها، وهي ما صدق بما قدمت بما يجتنيه المجتني من الثمر، أو يقصده النافع من الأثمات، تشبيه المعقول بالمحسوس، وذكر رديف المشبه وهو الأيدي التي هي آلة الاكتساب، أي: بما قدمته أيديكم لكم"^٦، وقال الزمخشري: "و'ذَلِكَ' رفع بالابتداء و**﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ﴾** حره **﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾** عطف عليه، أي ذلك العذاب بسببين بسبب كفركم ومعاصيكم و**﴿بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾** لأن تعذيب الكفار من العدل كإثابة المؤمنين.

١ المحرر الوحيد ٥٤٠/٢، ويطر الكشاف ٢٢٩/٢

٢ يطر البحر المنيد ٣٣٩/٢، والتحرير والتوير: ٤١/١٠

٣ يطر: تفسير الطبري ١٧/١٣، التحرير والتوير: ٤٠/١٠، البحر المنيد. ٣٣٩/٢

٤ التحرير والتوير ٤١/١٠، ويطر: الكشاف: ٢٢٩/٢

٥ الكشاف: ٢٢٩/٢

٦ يطر التحرير والتوير ٤١/١٠

وقيل: طلام للتكثير لأجل العيد أو لأن العذاب من العظم بحيث لولا الاستحقاق لكان المعدب بمثله ظلاما بليغ الظلم متفاقمه.^١

يمكن للقارئ أن يتخيل كيفية حال الكفار عند سكرات الموت من خلال الآيات الواردة في هذا المبحث في صورة محسوسة كأنه يرى بعينه مشهد سكرات موت الكفار. وبدأ جزاؤهم في الآخرة عندما يأتي الموت، ثم تبدأ العذاب الذي لا نهاية له.

ثانياً: من البعث إلى الحشر

والمحور الثاني في بيان جزاء الكفار والمشركين في الآخرة كيفية حالهم من النشور إلى دخول النار، فهناك آيات كثيرة تبين حالة الكفار والمشركين عند البعث من القبور لما يشاهدونه من أحوال يوم القيامة ويصور القرآن الكريم حالتهم تلك في قوله عز وجل ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا؟ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ^٢، وهناك آيات أخرى تصوّر كيفية ذلّ وخوف هؤلاء الكفار عند وقوع القيامة في صورة مشخّصة، وإذا قرأ هذه الآيات نشعر بالإيقاع الذي يهز قلوبنا هراً، يقول الله عز وجل: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٍ﴾ * خُشْعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ^٣.

ولنستخرج الآن الألوان البلاغية من هذه الآية:

من بلاغة النظم القرآني:

١ الكشاف ٢٢٩/٢، ويطر التحرير والتوير ٤٢/١٠

٢ يس ٥٢، ٥١

٣ القمر ٦، ٧، ٨

﴿فَتَسَوَّلُ عَنْهُمْ يُومٌ يَذْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ "تفريع على ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾^١، أي أعرض عن محادثتهم فإهم لا تفيدهم النذر كقوله ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾^٢، أي إنك قد بلغت فما أنت بمسؤول عن استجابتهم. وهذا تسلية للنبي ﷺ وتطمين له بأنه ما قصر في أداء الرسالة.^٣ "والداعي إسرافيل أو حيريل"، كقوله تعالى ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ﴾^٤ إلى شَيْءٍ نُّكْرٍ "عظيم الوصف في الكرامة بما تكرهه النفوس فتوحل منه القلوب لأنه لا شيء منه إلا وهو خارج عما تقدمه من العادة"^٥، "وتأمل الضميتين على الحرفين الأول والثاني في كلمة ﴿نُّكْرٍ﴾ وما فيها من معنى ارتفاع الشدة، وأنها سيطرت على القلوب فخشعت الأبصار واهطعت الأعماق"^٦.

﴿خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ "خشوع الأبصار كناية عن الذلة والانخزال؛ لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما"^٧.

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي من القبور كما قال تعالى ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُؤْفَضُونَ﴾ ❀ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْمَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا

١ القمر: ٥

٢ الحم: ٢٩

٣ التحرير والتوير. ١٧٦/٢٧

٤ يطر: البحر المديد: ٥٢٣/٥، والكشاف: ٤٣٢/٤

٥ ق: ٤١

٦ نظم الدرر. ١٠٠/١٩، ويطر: الكشاف: ٤٣٢/٤

٧ دكتور محمد محمد أبو موسى، التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، منشورات جامعة

قاريونس، مطابع الشروق - بيروت، ط ١، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م، ص ٢٣

٨ الكشاف: ٤٣٢/٤

يُوعِدُونَ^١، وفي سورة يس قوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾^٢ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ^٣.

﴿كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ الجراد مثل في الكثرة والتموج.^٤ "وهذا التشبيه تمثيلي لأنه تشبيه هيئة خروج الناس من القبور متراكمين بهيئة خروج الجراد متعاطلا يسير غير ساكن".^٥

استخدم الله عروجاً كلمة ﴿يَخْرُجُونَ﴾ مرتين و مرة ذكر كلمة ﴿يَنْسِلُونَ﴾ لبيان حالة خروج الكفار من قبورهم، وأضاف بعد كلمة ﴿يَخْرُجُونَ﴾ في سورة القمر ﴿كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾، وزاد في سورة المعارج ﴿سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفِضُونَ﴾ ولكن اكتفى في سورة يس بكلمة واحدة لتصوير حالة خروجهم وهي ﴿يَنْسِلُونَ﴾ معناها "يخرجون سراعاً" لأن "السيل الانفصال عن الشيء سريعاً"^٦، وكلمة ﴿يَنْسِلُونَ﴾ تعطي معنى "الإسراع في المشي"^٧، واستخدم كل مرة الفعل المضارع ﴿يَخْرُجُونَ﴾، ﴿يَنْسِلُونَ﴾، وكل هذا يصور أمام القارئ حالة خروجهم في عاية الوضوح حتى يشعر كأنه يراهم بعينه في حالة الخروج أنهم في غاية الدلة والهوان والاضطراب والتهويل.

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ "المهطع الذي ينظر في ذل وحشوع لا يقلع بصره، وقيل: المهطع الساكت المطلق إلى من هتف به."^٨ والمراد هنا "مسرعين مآذِي أعناقهم إليه، أو

١ المعارج ٤٣، ٤٤

٢ يس ٥١، ٥٢

٣ الكشف، ٤/٤٣٢

٤ التحرير والتبوير، ٢٧/١٧٩

٥ تفسير الطبري ٢٠/٥٣١

٦ المفردات في غريب القرآن. كتاب البون، تحت مادة نسل، ص ٥١٣

٧ تفسير الطبري: ٢٠/٥٣١

٨ نوائر دوي التمييز. ٥/٣٣٠

ناطرين إليه"١، ونرى من خلال هذا التعبير المصور جميع ولد آدم وأعناقهم ممدودة جادين مسرعين إلى الداعي الذي يدعو إلى هول مكر فظيع^٢.

﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ استخدام كلمة ﴿الْكَافِرُونَ﴾ في الآية "إظهار في مقام الإصمار لوصفهم بهذا الوصف الذميمة"^٣، وقال أبوحيان إن ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ "استئناف بياني، وقع جواباً عما نشأ من وصف اليوم بالأهوال، وأهله بسوء الحال، كأن قائلها قال: فماذا يكون حينئذ؟ فقال: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ صعب شديد. وفي إسناد هذا القول إلى الكفار تلويح بأن المؤمنين ليسوا في تلك المرتبة، والله تعالى أعلم"^٤، يرى قارئ القرآن الكريم أنه "هو مشهد من مشاهد ذلك اليوم، يناسب هوله وشدته ظلال السورة كلها ويتناسق مع الإرهاص باقتراب الساعة، ومع الإنباء بانشقاق القمر، ومع الإيقاع الموسيقي في السورة كذلك! وهو متقارب سريع. وهو مع سرعته شاخص متحرك، مكتمل السمات والحركات: هذه جموع خارجة من الأحداث في لحظة واحدة كأنهم جراد منتشر(ومشهد الجراد المعهود يساعد على تصور المنظر المعروض) وهذه الجموع خاشعة أنصارها من الذل والهول، وهي تسرع في سيرها نحو الداعي، الذي يدعوها لأمر غريب نكير شديد لا تعرفه ولا تطمش إليه.. وفي أثناء هذا التجمع والخشوع والإسراع يقول الكافرون: «هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ».. وهي قولة المكروب المحمود، الذي يخرج لمواجهة الأمر الصعب الرعب!"^٥.

١ البحر المديد ٥٢٣/٥

٢ يطر. التصوير البياني: ص ٢٣ تتصرف

٣ التحرير والتوير. ١٧٨/٢٧

٤ التلويح. "من أساليب العرب القديمة، يعد نوع من الكناية عند بعض البلاغيين" معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٣٤٧/٢، "والتلويح هو أن تشير على غيرك عن بعد وإن كانت ذات مسافة قريبة مع نوع من الخفاء" مفتاح العلوم. ٤١١/١

٥ البحر المديد ٥٢٣/٥، ويطر. الكشاف: ٤٣٢/٤، تفسير أبي السعود: ١٦٨/٨

٦ في طلال القرآن: ٣٤٢٩/٦

قال الله ﷻ عن هؤلاء الظالمين في سورة إبراهيم ﴿إِنَّمَا يُؤَجِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ * مُهْطِعِينَ مُقْبِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾^١، فمنذ بداية سكرات الموت إلى كل مرحلة من مراحل الآخرة سوف يكون الكفار والمشركون في الحيرة والقلق والهول، ويقولون هل إلى مرد من سبيل لكي نعمل عملاً صالحاً، كما قال الله ﷻ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾^٢، ويأتون مسودي الوجوه^٣، تلعو وجوههم غيرة وفترة^٤، حيث يقول الله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَيُرْفَعُهُمْ ذِلَّةً مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَاصِبٍ سَاءَ مَا كَانُوا عَاشِينَ﴾ * وَأَجْزَيْتَ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^٥ وعندما يشاهد الكافر أعماله حاضرة لديه معروضة عليه صغيرها وكبيرها، فينادي في شدة القلق ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾^٦، ويزيد همهم وغمهم عندما تنقطع الروابط والأنساب بينهم كما قال تعالى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾^٧ بل الأمر يكون أشد وأفظع عليهم عندما يرون أن أعضاءهم وجوارحهم وحواسهم تشهد عليهم، فيصور لنا القرآن الكريم كيفية حالهم في الآيات التالية:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا دُرُودُهُمْ لَمْ شَهِدْهُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَنْ

١ إبراهيم ٤٢، ٤٣

٢ السجدة ١٢

٣ الرمر ٦٠

٤ عس ٤١/٤٠

٥ يونس ٢٧

٦ السا ٤٠

٧ عس ٣٤، ٣٥، ٣٦

يَشْهَدُ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَنْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ طَسْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ وَذَلِكُمْ طَسْتُمْ الَّذِي طَسْتُمْ بَرْتَكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَإِنْ يَصِيرُوا فَالْثَّارُ مَتَوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٦﴾، ويحيط أعمالهم؛ فلا يجدون أعمالهم الحسنة في طهم؛ فلا فائدة في التعب والإنفاق في الدنيا تعود بعد الموت، كما قال الله ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُخْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ ﴿٢٧﴾ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَحَقَلْنَاهُ حَبَاءً مَسْنُونًا ﴿٢٨﴾.

ولا استخراج الألوان البلاغية تنتقل إلى الآية التالية:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾^٢

من بلاغة النظم القرآني:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ هو مبتدأ محذوف الخبر تقديره وفيما يقص عليك ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ فقول: أعمالهم كرماد^٣، ويرى ابن عاشور بأنه "تمثيل لحال ما عمله المشركون من الخيرات حيث لم ينتفعوا بها يوم القيامة. وقد أثار هذا التمثيل ما دل عليه الكلام السابق من شدة عذابهم، فيخطر ببالهم أو ببال من يسمع من المسلمين أن يسأل نفسه أن لهم أعمالا من الصلة والمعروف من إطعام الفقراء، ومن عتق رقاب، وقرى ضيوف، وحمالة ديات، وفداء أسارى، واعتمار، ورفادة

١ وصلت: ١٩-٢٤

٢ المرقا: ٢٢، ٢٣

٣ إبراهيم-١٨

٤ الكشف. ٥٤٧/٢، وبظر: تفسير أبي السعود. ٢٧/٤

الححيح، فهل يجدون ثواب ذلك؟ وأن المسلمين لما علموا أن ذلك لا ينفع الكافرين تطلبت نفوسهم وجه الجمع بين وجود عمل صالح وبين عدم الانتفاع به عند الحاجة إليه، فضرب هذا المثل لبيان ما يكشف جميع احتمالات^١.

﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ حملته وأسرعت الذهاب به **﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾** العصف اشتداد الريح وصف به زمانها مبالغة^٢، "ومشهد الرماد تشتد به الريح في يوم عاصف مستهود معهود، يحسم به السياق معنى ضياع الأعمال سدى، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشيء منها، ولا الانتفاع به أصلاً. يحسمه في هذا المشهد العاصف المتحرك، فيبلغ في تحريك المشاعر له ما لا يبلغه التعبير الذهني المحرد عن ضياع الأعمال ودهانها بدداً^٣، "ومن لطائف هذا التمثيل أن احتير له التشبيه بحفنة الرماد المتجمع، لأن الرماد أثر لأفضل أعمال الدين كفروا وأشيعها بينهم وهو قري الضيف حتى صارت كثرة الرماد كناية في لسانهم عن الكرم".

﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ "أي يوم القيامة مما كسبوا من تلك الأعمال على شيء ما، أي لا يرون له أثراً من ثواب أو تخفيف عذاب كدأب الرماد المذكور، وهو فدلكنه التمثيل"^٤.

﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ ذلك إشارة إلى ضلالهم مع حساباتهم أنهم محسنون. هو الضلال البعيد فإنه الغاية في البعد عن طريق الحق.^٥ كما جاء في قوله تعالى **﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾** الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ

١ التحرير والتوير: ٢١٢/١٣

٢ تفسير أبي السعود: ٤٠/٥

٣ في طلال القرآن. ٢٠٩٤/٤، وبطر. المخرر الوحير: ٣٣١/٣

٤ تفسير أبي السعود: ٢٧/٤

٥ تفسير البصاوي: ١٩٦/٣

صُنْعًا ❁ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا^١، وإضافة ضمير ﴿هُوَ﴾ تفيد التوكيد وتقوية المعنى.

كما سبق رأينا كيف أن الله عز وجل صور حالة الكفار والمشركين أثناء بعثهم من القبور وسوقهم إلى ميدان الحشر بأسلوب بليغ مشخص للهيئة التي سوف يكون عليها هؤلاء المنكرون لدعوة سيدنا محمد ﷺ، وهم في غاية الذل والهوان والخسيران المبين حيث يجدون أنفسهم في مشهد رهيب مفزع حشعت أبصارهم وحبطت أعمالهم؛ فلا يقدرون على شيء مما كسبوا.

ثالثاً: من دخول النار إلى الخلود في النار

والمحور الثالث في بيان جزاء الكفار والمشركين في الآخرة هو من دخول النار إلى الخلود في النار. ويشعر القارئ بكمال الروح والهيئة عندما يرى أن جهنم تنتظر الكفار في حالة غيظ كأنها حيوان مفترس؛ كما جاء في قوله تعالى ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ❁ إِذَا رَأَوْهُم مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَرَفِيرًا ❁ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنَيْنِ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ❁ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا^٢، ويرى قارئ القرآن الكريم أن الكفار سيدخلون النار بالذل والمهانة، فيقول الله ﷻ لحرنة جهنم ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ❁ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ❁ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ^٣﴾

ولنعرج إلى دراسة هذه الآية دراسةً بلاغيةً:

من بلاغة النظم القرآني:

١ الكهف ١٠٣-١٠٥

٢ المرقا ١١-١٤

٣ الحاقة ٣٠-٣٢

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ "خُذُوهُ" مقول لقول محذوف والتقدير يقال خُذُوهُ، والأخذ الإمساك باليد. وغلوه أمر من غله إذا وضعه في العل وهو القيد الذي يجعل في عنق الجاني أو الأسير وعطف نداء التعقيب لإفادة الإسراع موضعه في الأعلال عقب أحذه^١، **﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾** "أي أدخلوه، أي: لا تصلُّوه إلا للجحيم، وهي النار العظيمة؛ ليكون الجراء على وفق المعصية"^٢، "صلي النار معناه أصابه حرقها أو تدفأ بها"^٣، ولعل تقديم المفعول به للحرص أي لا تصلُّوه إلا للجحيم - النار العظمى.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ "سلكه في السلسلة أن تلوى على حسده حتى تلتف عليه أنساؤها، وهو فيما بينها مرهق مضيق عليه لا يقدر على حركة، وجعلها سبعين ذراعا إرادة الوصف بالطول، لأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد. والمعنى في تقديم السلسلة على السلك مثله في تقديم الجحيم على التصلية أي لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة، كأنها أظنع من سائر مواضع الإرهاق في الجحيم، ومعنى ثُمَّ الدلالة على تفاوت ما بين العل والتصلية بالجحيم، وما بينها وبين السلك في السلسلة، لا على تراخي المدة إِنَّهُ تعليل على طريق الاستشاف، وهو أبلغ^٤."

ودخلهم في النار يكون في غاية الذل والهوان، فيخبر الله ﷻ عن حالة دخولهم، فيقول **﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا فَاتَّبَعْنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَا تَعْلَمُونَ﴾** **﴿وَقَالَتْ لِأُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذَوْقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾**^٥، قد ينخيل

١ التحرير والتوير ١٣٧/٢٩

٢ البحر المديد ١٢٨/٧

٣ التحرير والتوير ١٣٧/٢٩

٤ الكشف ١٦٠٤/٤، ١٦٠٥، ويطر البحر المديد ١٢٨/٧، تفسير أبي السعود ٢٦/٩

٥ الأعراف ٣٩، ٣٨

القارئ أنهم يدخلون جهنم وهي كالسحر المظلم المرقع وهم في حالة يأس وقنوط من دخول الجنة، حيث يقول الله ﷻ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ هُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ^١

ولنستنبط الآن الألوان البلاغية من الآية:

من بلاغة النظم القرآني:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ هذه ورقة الاتهام التي يحاسب عليها المجرمون الكافرون أي إنهم كذبوا بآياتنا واستكبروا عن الإيمان بها؛ فعظمت جرماتهم. وهذا "استئناف ابتدائي مسوق لتحقيق خلود الفريقين في النار، الواقع في قوله ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^٢؛ فأخبر الله بأنه حرّمهم أسباب النجاة، فسد عليهم أبواب الخير والصلاح، وبأنه حرّمهم من دخول الجنة. وأكد الخبر بـ ﴿إِنَّ﴾ لتأيسهم من دخول الجنة... ووقع الإظهار في مقام الإضمار لدفع احتمال أن يكون الضمير عائداً إلى إحدى الطائفتين المتحاورتين^٣ في النار"^٤.

١ السورة نفسها ٤٠، ٤١

٢ السورة نفسها ٣٦

٣ بطر الأعراف: ٣٨، ٣٩ ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْحَيِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمْ نَجِدْ لَهَا قَبْلَ إِذَا دَارَكُوا مِنْهَا حَيْبًا قَالَتْ أَذْهَبْتُمْ لَأُولَانَا رِثًا هَؤُلَاءِ أَصْلَوْا قَاتِلَهُمْ عَذَابًا صِغْفَاءً مِنَ النَّارِ قَالَ يَكُلُّ صِغْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقالت أولاهم لأخراهم فما سخا لكم علينا من فضل فدووا العذاب بما كنتم تكسبون

٤ التحرير والتبوير: ٨-ب / ١٢٥، ١٢٦

﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ "لا يصعد لهم عمل صالح ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾"،^١ ﴿كَأَنَّهُمْ كَاتِبُونَ الْآثَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾^٢. وقيل: إن الجنة في السماء، فالمعنى لا يؤذن لهم في صعود السماء ولا يطرق لهم إليها ليدخلوا الجنة. وقيل: لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين^٣، ذكر الإمام الطبري "إن الكافر إذا أجد روحه، صرته ملائكة الأرض حتى يرتفع إلى السماء، فإذا بلغ السماء الدنيا صرته ملائكة السماء فهبط، فصرته ملائكة الأرض فارتفع، فإذا بلغ السماء الدنيا صرته ملائكة السماء الدنيا فهبط إلى أسفل الأرضين"^٤.

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ "إحمار عن حالهم في الآخرة وتحقيق لخلودهم في النار. وبعد أن حقق ذلك تأكيدات الحر كله بحرف التوكيد، زيد تأكيدا بطريق تأكيد الشيء بما يشبه صده، المستنهر عند أهل البيان بتأكيد المدح بما يشبه الذم، وذلك بقوله تعالى ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ فقد جعل لانتفاء دخولهم الجنة امتدادا مستمرا، إذ جعل غايته شيئا مستحيلا، وهو أن يلج الجمل في سم الخياط، أي لو كانت لانتفاء دخولهم الجنة غاية لكانت غايته ولوج الجمل - وهو البعير - في سم الخياط، وهو أمر لا يكون أبدا"^٥، "و لا يخفى التناسب في التشبيه: حيث إن الكفار بلحاظ توغلهم في الطلعة و المادية و سيات الأعمال و الأخلاق، مبعدون عن اللطافة و الروحانية و النورانية و الصفاء، فلا تناسب بينهم و بين الجنة التي هي دار النور و اللطف و الرحمة و الروحانية. وهذا كدحول جبل ضخيم على منفذ دقيق"^٦.

١ فاطر: ١٠

٢ للطعنين ١٨

٣ الكشف: ١٠٣/٢

٤ تفسير الطبري. ٤٢٢/١٢

٥ التحرير والتوير: ٨-ب/١٢٧، ويطر: تفسير أبي السعود: ٢٢٧/٣

٦ حسن للصطعوي، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، الناشر: غير مكتوب، ط١، طهران- ١٣٩٣ هـ، ص ١٥٧٣

وجملة **﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾** "تذليل يؤذن بأن الإجماع هو الذي أوقعهم في ذلك الجراء، فهم قد دخلوا في عموم المجرمين الذين يجزون بمثل ذلك الجزاء، وهم المقصود الأول منهم، لأن عقاب المجرمين قد شبه عقاب المجرمين بعقاب هؤلاء، فعلم أنهم مجرمون، وأنهم في الرعي الأول من المجرمين، حتى شبه عقاب عموم المجرمين بعقاب هؤلاء وكانوا مثلاً لذلك العموم"^١.

﴿هُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ "المهد ما تمشى للصبي"^٢ والمراد هنا "فراش من تحتهم والتبوين للتمحيص"^٣ **﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾** "غواش جمع غاشية وهي ما يعشى الإنسان، أي يعطيه كاللحاف، --- وذلك كناية عن انتفاء الراحة لهم في جهنم، فإن المرء يحتاج إلى المهاد والغاشية عند اصطحاعه للراحة، فإذا كان مهادهم وغاشيتهم البار. فقد انتفت راحتهم، وهذا ذكر لعذابهم السوء بعد أن ذكر حرمانهم من الخير."^٤ والكناية من أُلطف أساليب البلاغة وأدقها، وهي أبلغ من الحقيقة والتصريح.

وقال الإمام النقاقي: "صرح في هذا بالقوية لأن العاشية ربما كانت عن يمين أو شمال، أو كانت بمعنى مجرد الوصول والإدراك، ولعله إنما حذف الأول لأن الآية من الاحتشاك، فذكر جهنم أولاً دليلاً على إرادتها ثانياً، وذكر الفوق ثانياً دليلاً على إرادة التحت أولاً"^٥، "وقال المفسرون: المراد من هذه الآية الإخبار عن إحاطة النار بهم من كل جانب فلهم منها غطاء ووظاء وفراش ولحاف"^٦.

١ المرجع نفسه: ٨-ب/١٢٧

٢ المفردات في غريب القرآن. كتاب الميم مادة مهد، ص ٤٩٧

٣ تفسير أبي السعود. ٣/٢٢٨

٤ التحرير والتبوير: ٨-ب/١٢٧، ١٢٨

٥ نظم الدرر ٧/٤٠٠

٦ التفسير الكبير: ١٤/٢٤١

وجملة ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ليدل على أن سبب ذلك الجزاء بالعقاب هو الظلم. وهو الشرك. ولما كان جزاء الظالمين قد شبه بجزاء الذين كذبوا بالآيات واستكبروا عنها، علم أن هؤلاء المكذبين من جملة الظالمين. وهم المقصود الأول من هذا التشبيه، بحيث صاروا مثلاً لعموم الظالمين، وبمهددين العموميين كانت الجملتان تذييلين. "١" "عبر عنهم بالمجرمين تارة، وبالظالمين أخرى إشعاراً بأنهم بتكذيبهم الآيات، اتصفوا بالجرم والظلم، وذكر مع الحرمان من الجنة: الحرم، ومع التعذيب بالنار: الظلم تنبيهاً على أن الظلم أعظم الإجرام." "٢" عندما يدخل المجرمون السجن يلبسون لباساً خاصاً للمجرمين؛ فيصور لنا القرآن الكريم أن الكفار يلبسون لباس العذاب، ويعبر لباسهم تارة بثياب النار وتارة بسرابيلهم من قطران، فقال الله ﷻ ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٠﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿١١﴾ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿١٢﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ "٣"

وقد بين الله ﷻ ثياب النار في سورة إبراهيم حيث يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَتَرَوُنَّ اللَّهَ الْوَاحِدَ الْقَهَّارَ ﴿٢٢﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٢٣﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٢٤﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ "٤"

ولنستخرج الألوان الملاغية من الآية:

من بلاغة النظم القرآني:

١ التحرير والتوير ٨-١٢٩/ب

٢ البحر المديد ٢/٢١٦، ويطر تفسير أبي السعود ٣/٢٢٨

٣ الحج ١٩-٢٢

٤ إبراهيم. ٤٨-٥١

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ وقيل في الآية السابقة: **﴿فَلَا تُحْسِبَنَّ**
اللَّهُ تَخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾^١ من مشركي قومك يا محمد ﷺ من قريش،
 وسائر من كفر بالله وجحد نبوتك ونبوة رسله من قبلك. فيوم من صلة الانتقام^٢، **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ**
الْأَرْضُ﴾ "استثاف لزيادة الإنذار بيوم الحساب --- وحاصل المعنى استبدال العالم المعهود بعالم
 جديد"^٣. وقال سيد قطب: "ولا ندري نحن كيف يتم هذا ، ولا طبيعة الأرض الجديدة
 وطبيعة السماوات ، ولا مكانها ولكن النص يلقي ظلال القدرة القادرة التي تبدل الأرض
 وتبدل السماوات في مقابل ذلك المكر الذي مهما اشتد فهو ضئيل عاجز حسير"^٤،
 و{عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ
 فَيَسْطُطُهَا وَيُسْطَطِحُهَا وَيَمُدُّهَا مَدَّ الْأَدِيمِ الْفُكَاظِي لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا، ثُمَّ يَرْجُرُ اللَّهُ
 الْخَلْقَ رَجْرَجَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْمُبَدَّلَةِ فِي مِثْلِ مَوَاضِعِهِمْ مِنَ الْأَوَّلَى مَا كَانُوا فِي
 بَطْنِهَا كَانُوا فِي بَطْنِهَا وَمَا كَانُوا عَلَى ظَهْرِهَا كَانُوا عَلَى ظَهْرِهَا، وَذَلِكَ حِينَ يَطْوِي السَّمَاوَاتِ
 كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ، ثُمَّ يَدْخُو بِهِمَا، ثُمَّ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} {١}.

﴿وَيَرْزُقُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ "وأحسوا أنهم مكشوفون لا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم
 واق. ليسوا في دورهم وليسوا في قبورهم. إنما هم في العراء أمام الواحد القهار .. ولفظة
 «القهار» ها تشترك في ظل التهديد بالقوة القاهرة التي لا يقف لها كيد الجبابة. وإن كان
 مكرمهم لتزول منه الجبال. ثم ها نحن أولاء أمام مشهد من مشاهد العذاب العنيف القاسي

١ السورة نفسها: ٤٧

٢ بطر. تفسير الطبري. ٤٥/١٧

٣ التحرير والتنوير: ٢٥٢/١٣، ٢٥٣

٤ بطر. إبراهيم: ٤٦ ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾

٥ في طلال القرآن ٢١١٣/٤

٦ الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، البعث والشور للبيهقي، تحقيق: الشيخ عامر أحمد حيدر، مركز

الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت، ط أولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، ٣٣٦/١، ح ٦٠٩.

المدل ، يماس ذلك المكر وذلك الجبروت"^١، «وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ» "قرن بعضهم مع بعض بحسب مشاركتهم في العقائد والأعمال، أو قرنوا مع الشياطين، أو مع ما اكتسبوا من العقائد الرائعة والملكات الباطلة، أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال، وهو يحتمل أن يكون تمثيلاً لمؤاخذتهم على ما اقترفته أيديهم وأرجلهم (في الأصفاد) متعلق بمقرنين أو حال من صميده، والصفد قيد، وقيل العل"^٢، وقال الراغب الأصفهاني أن "الأصفاد الأغلال"^٣

﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ﴾ "القطران وهو ما يتحلب من شحر يسمى الأهل فيطبخ، فتها به الإبل الحربي، فيحرق الجرب بحره وحدته، والجلد، وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار، وقد يستسرح به، وهو أسود اللون منتن الريح، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسراويل وهي القمص، لتجتمع عليهم الأربع: لدغ القطران. وحرقته، وإسراع النار في حلودهم، واللون الوحش، وبتن الريح. على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين البارين، وكل ما وعده الله أو أوعده به في الآخرة، فبینه وبين ما نشاهد من حسه ما لا يقادر قدره، وكأنه ما عدنا منه إلا الأسمى والمسميات ثمة، فكرمه الواسع نعود من سحطه، ونسأله التوفيق فيما ينجينا من عذابه"^٤، وقال الإمام الرازي "وأقول حظ العقل من هذا أن حوهر الروح جوهر مشرق لامع من عالم القدس وغيبية الحلال، وهذا البدن حار محرق السراويل والقمص له، وكل ما يحصل للنفس من الآلام والغموم، فإنما يحصل بسبب هذا البدن، فلهذا البدن لدغ وحرقة في حوهر النفس، لأن الشهوة والحرص والعضب إنما تنسارع إلى حوهر الروح بسبه، وكونه للكثافة والكدورة والظلمة هو الذي يخفي لمعان

١ في طلال القرآن ٢١١٣/٤

٢ تفسير البصاوي ٣٥٧/٣

٣ المعردات في عريب القرآن: كتاب الصاد، تحت مادة صعد، ص ٢٩٣

٤ الكشاف ٥٦٧/٢، وبسط: التحرير والتنوير: ٢٥٣/١٣

الروح وضوءه وهو سبب لحصول النور والنفوس، فتشبه هذا الجسد بسرايل من القطران"^١، وهذا الكلام في غاية الجمال في توضيح الآية الكريمة ويهز القلب البشري هزاً بروعة البيان.

وهي جملة من مبتدأ وخبر^٢، التي تفيد الثبات والدوام، والله أعلم.

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ "وتلغى وجوههم النار فتحرقها."^٣ كما قيل ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾^٤ و ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾^٥، "وتكسوها وتاكلها لأنهم لم يتوجهوا بها إلى الحق، ولم يخضعوا بها إلى الخالق، كما تطلع على أفئدتهم لأنها فارغة من المعرفة والنور، مملوءة بالجهالات والظلمة"^٦، "ولما كان الوجه أشرف ما في الحيوان، فإهانته إهانة عظيمة لصاحبه، ذكره وقدمه تعجيلاً لإفهام الإهانة فقال: ﴿وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ أي تعلقوها واشتعلالها"^٧.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ "التقدير يحري الله كل نفس بما كسبت يوم تبدل الأرض.. إلخ"^٨، وأشار الله عز وجل إلى هذه الحقيقة في عدد من المواضع في القرآن الكريم منها ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^٩، وقوله تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^{١٠}

١ التفسير الكبير ١١٣/١٩

٢ بظر تفسير أبي السعود ٦١/٥

٣ تفسير الطبري ٥٦/١٧

٤ المؤمنون ١٠٤

٥ القمر: ٤٨، وبظر: الأبياء: ٣٩، ٤٠، الأحرار: ٦٦

٦ البحر المديد ٧٤/٣

٧ نظم الدرر ٤٤٠/١٠، وبظر الكشف: ٥٦٨/٢

٨ التحرير والتوير ٢٥٢/١٣

٩ البقرة: ٢٨١

١٠ آل عمران: ٢٥

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ جملة اسمية مؤكدة بـ 'إِنَّ' تفيد الدوام، واسم الجلالة يذكر قدرة الله وعظمته، وقد يشعر القارئ بالتهويل والخوف من حساب الله عزوجل، وهذه الجملة تذييل^١.

ترسم هذه الآيات مشهد المجرمين وهم في غاية الذل والتحقير، ويلبسون ثيابا من نار لزيادة العذاب بسبب كفرهم ومكرهم واستكبارهم، ثم ترى أن القرآن الكريم يصور طعام أهل النار وشراهم بعبارات مختلفة تشير إلى بشاعته وشدته ما ينفر منه الطبع، ومنها قوله تعالى :

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾^٢ ﴿وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غَسِيلِينَ﴾^٣ و ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾^٤ ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾^٥ و ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ أَثِيمَةٍ﴾^٦ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ^٧ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ^٨ فكل ما ذكره الله ﷻ من طعام وشراب الكفار في النار يدل على مدى بشاعته وكراهته وقبحه، مما يفر النفوس منه ويجعلها تطلب كل وسيلة للفرار والبعد منه، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتَهِمُ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾^٩ لَا كِيلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ^{١٠} ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾^{١١} فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ^{١٢} ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ﴾^{١٣} هَذَا نُزِّلَتْكُمْ يَوْمَ الدِّينِ^{١٤}، و ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾^{١٥} كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ^{١٦} كَغَلْيِ الْحَمِيمِ^{١٧}، فشجرة الزقوم مشهورة بمراراتها هي من طعام الكفار في جهنم، وبين الله ﷻ وصف شجرة الزقوم وصفا مرعبا بقوله: ﴿أَذْلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ﴾^{١٨} إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ^{١٩} ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ

١ ينظر التحرير والتبوير ٢٥٢ / ١٣

٢ المزمع. ١٣

٣ الحاقة. ٣٦

٤ السأ. ٢٤، ٢٥

٥ العاشية. ٧-٥

٦ الواقعة: ٥١-٥٦

٧ الدخان: ٤٣-٤٦

﴿ طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ فَإِنَّهُمْ لَا كِلُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونُ ﴿
ثُمَّ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا
آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴾ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ^١

ولندرس الآية دراسة بلاغية:

من بلاغة النظم القرآني:

﴿أَذَلِكْ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ﴾ الاستفهام مكثى به عن التنبيه على فضل حال
المؤمن وفوزه وحساسة الكافر. وهو خطاب لكل سامع. والإشارة بـ ﴿أَذَلِكْ﴾ إلى ما تقدم من
حال المؤمنين في العيم والخلود، وجيء باسم الإشارة مفردا بتأويل المذكور، بعلامة بعد المشار
إليه لتعظيمه بالبعد، أي بعد المرتبة وسموها لأن الشيء النفيس الشريف يتخيل عاليا والعالي
يلازمه البعد عن المكان المعتاد وهو السفلى، وأين الثريا من الثرى. "أصل النزول الفضل
والريع فاستعير للحاصل من الشيء فانتصابه على التمييز أي أذلك الرزق المعلوم الذي
حاصله اللذة والسرور خير نزلا أم شجرة الزقوم التي حاصلمها الألم والغم"^٢، "ومعلوم أنه لا
خير في شجرة الزقوم، ولكن المؤمنين لما احتاروا ما أدى إلى الرزق المعلوم، واختار الكافرون ما
أدى إلى شجرة الزقوم، قيل لهم ذلك تويخا على سوء اختيارهم"^٣، ذكر ابن عطية أن "في
بعض البلاد الجذبة المجاورة للصحارى شجرة مرة مسمومة لها لبن إن مس جسم أحد تورم،
ومات منه في أغلب الأمر تسمى شجرة الزقوم، والترقم في كلام العرب البلع على شدة

١ الصافات ٦٢ - ٧٠

٢ التحرير والتوير ١٢١/٢٣

٣ تفسير أبي السعود ٤٤١/٥، ويطر تفسير البصاري ١١/٥

٤ الكشاف ٤٦/٤

وجهد"١، وقال النبي ﷺ عن شجرة الرقوم: {لو أن قطرة من الرقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم. فكيف بمن يكون الرقوم طعامه!}٢.

﴿وَأَنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ أي "محنة وعذابا لهم في الآخرة، أو ابتلاء في الدنيا فإنهم لما سمعوا أنها في النار قالوا كيف ذلك والنار تحرق الشجر، ولم يعلموا أن من قدر على خلق حيوان يعيش في النار ويلتذ بها فهو أقدر على خلق الشجر في النار وحفظه من الإحراق."٣

﴿وَأَنَّا شَجَرَةً تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ واستأنف لوصفها استئنافا ثانيا مكررا فيه كلمة إنها للتهويل. "٤ والمراد بـ ﴿تَخْرُجُ﴾ منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها"٥، ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّيَاطِينِ﴾ "هو تشبيه بالمتخيل"٦، "والطلع للنخلة، فاستعير لما طلع من شجرة الرقوم من حملها: إما استعارة لفظية، أو معنوية، وشبه برؤوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر، لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس، لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير، فيقولون في القبيح الصورة: كأنه وجه شيطان، كأنه رأس شيطان. وإذا صورته المصورون: جاءوا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله"٧.

١ المخرر الوخير: ٤/٤٧٥

٢ محمد بن عيسى بن مغيرة بن موسى بن الصحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت: ٢٧٩هـ)، سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر والأحرار، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ط ٢، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م، أبواب صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، ٤/٧٠٦، ح ٢٥٨٥.

٣ تفسير البصاوي ١١/٥

٤ التحرير والتوير. ٢٣/١٢٣

٥ تفسير البصاوي: ١٢/٥

٦ المصدر نفسه: ١٢/٥

٧ الكشاف: ٤/٤٦

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْلُونُ مِنْهَا فَمَالِؤُنَّ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ "من الشجرة أو من طلعتها"^١، "وملء البطون كناية عن كثرة ما يأكلون منها على كراهتها. وإسناد الأكل وملء البطون إليهم إسناد حقيقي وإن كانوا مكرهين على ذلك الأكل والملء. والفاء في قوله ﴿فَمَالِؤُنَّ﴾ فاء التفريع، وفيها معنى التعقيب، أي لا يلبثون أن تمتلئ بطونهم من سرعة الانتقام، وذلك تصوير لكراهتها فإن الطعام الكريه كالدواء إذا تناوله آكله أسرع يبلعه وأعظم لقمة لئلا يستقر طعمه على آلة الدوق"^٢.

وبين صاحب الكشاف معنى التراخي في قوله ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ يُمِلُّونَ إِلَيْهَا﴾ "ثُمَّ إِنَّهُمْ يُمِلُّونَ إِلَيْهَا" ر "أَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ الْبُطُونَ من شجر الرقوم، وهو حارّ يحرق بطونهم ويعطشهم، فلا يسقون إلا بعد ملئ تعديا بذلك العطش، ثم يسقون ما هو أحر وهو الشراب المستوب بالحميم. والوجه الثاني: أنه ذكر الطعام بتلك الكراهة والمشاعة، ثم ذكر الشراب بما هو أكره وأنتع، فحاء يتم للدلالة على تراخي حال الشراب عن حال الطعام ومما ية صفته لصفته في الريادة عليه. ومعنى الثاني: أَنَّهُمْ يَذْهَبُ عَنْهُمْ عَنْ مَقَارِزِهِمْ وَمَازِلِهِمْ فِي الْجَحِيمِ، وهي الدرجات التي أسكنوها إلى شجرة الرقوم، فيأكلون إلى أن يمتلئوا، ويسقون بعد ذلك، ثم يرجعون إلى دركاتهم، ومعنى التراخي في ذلك بين."^٣

"ثم ذكر سبب عذابهم، فقال ﴿إِنَّهُمْ أَتَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ ﴿فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ علل استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد بتقليد آبائهم في الضلال، وترك اتباع الدليل. والإهراع: الإسراع الشديد. كأنهم يحشون حشا. وفيه إشعار بأنهم بادروا إلى اتباعهم من

١ تفسير البصاوي ١٢/٥

٢ التحرير والتنوير ١٢٥/٢٣

٣ الكشاف: ٤/٤٧

غير توقف ولا نظر." وقال ابن عاشور: "يهرعون تنبيه حال الكفرة بحال من يزجي ويدفع إلى السير وهو لا يعلم إلى أين يسار به".

تصور هذا المشهد يثير الفزع والرعب، والقارئ يشعر بالتهويل والكراهة عندما يرى أنه هو طعامهم إذا جاعوا، فإذا أكلوا منه التهبت أكبادهم بالعذاب المؤلم المذل بسبب حالتهم الفكرية والعملية التي ذكرنا في المباحث السابقة.

الخلاصة:

لقد تناولت الباحثة الحديث عن جزاء الله عزوجل لمنكري دعوة نبيه المصطفى ﷺ من خلال مبحثين حيث تحدثت عن جزاء الله ﷻ لهم في الدنيا من خلال المبحث الأول وعن جزائه لهم في الآخرة من خلال المبحث الثاني، وتطرقت إلى آيات كثيرة في هذا المضمون واستخرجت الألوان البلاغية منها قدر المستطاع.

وبما أن القرآن الكريم هو معجزة هذه الأمة منذ نزوله على النبي ﷺ إلى يوم القيامة فإن أسلوبه أيضاً أسلوب عربي بلاغي فصيح معجز لم ولن يستطيع أحد حتى قيام الساعة الإتيان بمثله أبداً. أما الأساليب البلاغية التي استخرجتها الباحثة كانت متمثلة في الطواهر البلاغية من علم المعاني من التقديم والتأخير والاستفهام الحقيقي والمجازي واستخدام حروف العطف وأدوات الشرط والملامح البيانية من التشبيه والمجاز والكناية واختيار القنن البديعية من المحسنات اللفظية والمعوية وفي كل هذا كان كلام الله عزوجل في قمة الفصاحة والبلاغة وهو في سماء الرفعة والسمو لأنه كلام ملك الملوك وكلام الملك يكون ملك الكلام.

١ البحر المديد ٦٠٣/٤ ويطر: الكشاف: ٤٧/٤

٢ التحرير والتوير ١٢٧/٢٣



الباب الثاني

من بلاغة النظم في حديث القرآن عن إنكار أهل الكتاب وجرائهم

يشتمل هذا الباب على فصلين:

الفصل الأول:

من بلاغة النظم في حديث القرآن عن إنكار أهل الكتاب

الفصل الثاني:

من بلاغة النظم في حديث القرآن عن جزاء أهل الكتاب



فاتحة:

يرى قارئ القرآن الكريم أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ليسوا سواء عند الله عروحل حيث أثنى على طائفة منهم ودم طائفة أخرى من كلا الفريقين، فأثنى على الذين آمنوا بدعوة سيدنا محمد ﷺ، ودم من أهل الكتاب من نافق أو كفر بعد معرفة الحق. وقد تنوع أسلوب الخطاب مع أهل الكتاب فتارة واجههم الله تعالى بالملاطفة وذكر الإنعام عليهم وعلى آبائهم، وتارة بالتحذير، وتارة بإقامة الحجة وتوبيخهم على سوء أعمالهم، وذكر العقوبات التي عاقبهم بها وما إلى ذلك. ونحن نركز على حديث القرآن الكريم عن إنكار أهل الكتاب لدعوة سيدنا محمد ﷺ، وذكر جزائهم في الدنيا والآخرة من خلال الباب الثاني من هذه الرسالة.

ذكر القرآن الكريم حال أهل الكتاب في زمان النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ❀ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ❀ فِيهَا كُتِبَ قِیمَةٌ❀^١.

كانت حالة أهل الكتاب أسوأ من الكفار والمشركين في إنكارهم للدعوة حيث كانوا ينتظرون بعث نبي آخر الزمان من بينهم أي من بني إسرائيل، كما جاء في القرآن الكريم ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ❀^٢ ولكنهم لما بُعث افترقوا فيه. أنكر أهل الكتاب بعثة النبي ﷺ وهم قد عرفوه؛ فكفروا به جحوداً وعناداً وبغياً، وآمن به

١ البية: ٢، ١

٢ الفرة: ٨٩

بعضهم، وقد كانوا قبل البعثة غير متفرقين فيه، فهم يعرفون صفته. كما قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^١.

قد بين الله ﷻ حالة أهل الكتاب الفكرية التي سببت حالتهم العملية، ويصور جزاءهم في الدنيا والآخرة في القرآن الكريم بصورة واضحة وأسلوب بلاغي رائع جداً، ونحاول أن ندرس من هذه المجموعة من الآيات القرآنية دراسة بلاغية في هذا الباب.



الفصل الأول:

من بلاغة النظم في حديث القرآن عن إنكار أهل الكتاب

يتكون هذا الفصل من مبحثين:

المبحث الأول:

من بلاغة النظم في حديث القرآن عن أحوال أهل الكتاب الفكرية المتعلقة
بإنكارهم الدعوة

المبحث الثاني:

من بلاغة النظم القرآني في بيان أحوال أهل الكتاب العملية المتعلقة بإنكارهم
الدعوة





المبحث الأول:

من بلاغة النظم في حديث القرآن عن أحوال أهل الكتاب الفكرية
المتعلقة بإنكارهم الدعوة



المدخل:

كان أهل الكتاب يتظرون نعمة حاتم البيين عليه السلام منذ سنوات، ولكن عندما بُعث النبي عليه السلام علبت عليهم شقوتهم؛ فأنكروه، واعترضوا معللين اعتراضهم بأن النبوة من حق بني إسرائيل؛ فكيف جاء حبريل عليه السلام إلى محمد عليه السلام وهو من بني إسماعيل؟ "وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود الذين زعموا أن حبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم." فقال الله عليه السلام: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٣﴾ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا تَبَدَّلَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ تَبَدَّلَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^٢

وعندما تأملت في أحوال أهل الكتاب الفكرية المتعلقة بإنكارهم دعوة سيدنا محمد عليه السلام رأيت أنهم أشد من الآخرين عداوة لهذه الدعوة لأنهم كفروا وهم يعلمون أنه الحق من ربهم؛ فتزيد شدة جريمة أصحاب المعرفة من شدة جريمة الذين كفروا- أي الكفار من أهل مكة- بسبب عدم الوعي والفهم والعقل.

ويمكن تقسيم حالة أهل الكتاب الفكرية كما يلي:

- الأمانى الباطلة
- الحسد والبغض

١ تفسير الطبري: ٢ / ٣٧٧

٢ البقرة ٩٧-١٠١

أولاً: الأمانى الباطلة

أنكر أهل الكتاب دعوة سيدنا محمد ﷺ بسبب أمانيتهم الباطلة، واستمعوا على طريقتهم القديمة وكانوا مطمئنين بها، كما قال تعالى ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَتَّبِعُونَ﴾^١، ذكر القرآن الكريم أمانى أهل الكتاب الباطلة في آيات متعددة، نحو قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾^٢، وأبان موقفهم قائلاً ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْحَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^٣، ومن أمانيتهم أنهم أساء الله وأحباؤه؛ فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾^٤

تشير هذه الآية إلى إحدى أمانيتهم الباطلة وهي أنهم أساء الله ﷻ ومحبيه؛ فلهذا لا خوف عليهم من عقاب الله ﷻ، وقال ابن عباس إن النبي ﷺ دعا جماعة من اليهود إلى دين الإسلام وحوّهم من عقاب الله تعالى فقالوا: كيف نخوفنا من عقاب الله ونحن أبناء الله وأحباؤه، فهذه الرواية إنما رويت عن تلك الطائفة، وأما النصارى فإنهم يتلون في الإنجيل الذي لهم أن المسيح قال لهم: أذهب إلى أبي وأبيكم وجملة الكلام أن اليهود والنصارى كانوا يرون لأنفسهم فضلاً على سائر الخلق بسبب أسلافهم الأفاضل من الأنبياء حتى انتهوا في تعظيم

- ١ النقرة ٧٨
- ٢ بيطر النقرة ١١١، ١١٣، آل عمران: ٢٤
- ٣ النقرة ٨٠
- ٤ السورة بعسها ١١١
- ٥ المائدة: ١٨

أنفسهم إلى أن قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه^١. وهذه الآية الكريمة تحتوي على ألوان بلاغية جميلة، فلنحاول استنباط ما أمكن منها في هذا الموضوع.

من بلاغة النظم القرآني:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ عطف على الآية ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ... إلخ﴾^٢ وتوضح هذه الجملة الجملة التي قبلها، وتزيد قوة المعنى فيهما، "ظاهر اللفظ" ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى﴾ أن جميع اليهود والنصارى قالوا عن جميعهم ذلك وليس كذلك، بل في الكلام لف^٣ وإيجاز^٤. والمعنى: وقالت كل فرقة من اليهود والنصارى عن نفسها خاصة: نحن أبناء الله وأحباؤه^٥، استخدام صيغة الماضي 'قالت' تدل على التحقق والثبوت.

عطف ﴿وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ على ﴿أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ لاشتراك المعنى^٦ لأهم قصدوا أنهم أبناء محبوبون إذ قد يكون الالاس معصوبا عليه. "قال الله ﷻ لرسوله الكريم ﷺ ﴿قُلْ﴾ إلزاما لهم وتبكيثا^٧". وفيه التفات من العيبة إلى الخطاب. وقد يتعر القارئ أن بسب قولهم الباطل لا يحب الله ﷻ أن يحاطبهم بصيغة المحاطب بل اختار نيته الخاتم لبيان إبطال دعوتهم وأمنيتهم

١ التفسير الكبير: ٣٢٩/١١

٢ المائدة: ١٧

٣ لف: "هو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال." الإيضاح: ص ٢٢٥

٤ "الإيجاز: هو أداء المقصود بأقل من عبارات متعارف الأوساط": الإيضاح في علوم البلاغة للغزوي: دار إحياء

العلوم، بيروت، ط ٤، ١٩٩٨م، ص ١٧٠، ويظر: عند المتعال الصعيدي، نعية الإيضاح لتلخيص المعناح في

علوم البلاغة. ١١٠ / ٢

٥ البحر المحيط: ٢١١ / ٤

٦ يطر: دلائل الإعجاز: ص ٢٢٢، ٢٢٤ (مائدة العطف في المرد الإشارك في الإعراب والمعنى).

٧ يطر: التحرير والتنوير ١٥٦/٦

٨ تفسير أبي السعود: ٢١ / ٣

فقال ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ "أي إن كنتم جامعين بين كونكم أبناء وأحباء بين عطف البنوة وحمو المحبة، وعذابهم مذكور في نص توراتهم في غير موطن ومشهور في تواريتهم يجعلهم قردة وخنازير وغير ذلك، أي فإن كان المراد بالبنوة الحقيقة فابن الإله لا يكون له ذنب فضلاً عن أن يعذب به، لأن الابن لا يكون إلا من جنس الأب - تعالى الله عن النوعية والجنسية والصاحبة والولد علواً كبيراً وإن كان المراد المجاز، أي بكونه يكرمكم إكرام الولد والحبيب، كان ذلك مانعاً من التعذيب. ولما كان معنى ذلك أن يعذبكم لأنكم لستم أبناء ولا أحباء. عطف عليه نقضاً آخر أوضح من الأول فقال ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ وذلك أمر مشاهد، والمشاهدات من أوضح الدلائل، فأنتم مساوون لغيركم في البشرية والحدوث، لا مزية لأحد منكم على غيره في الخلق والبشرية، وهما يمنعان البنوة، فإن القديم لا يلد بشراً، والأب لا يخلق ابنه، فامتنع بهذين الوصفين البنوة، وامتنع بتعذيبهم أن يكونوا أحباء الله؛ فبطل الوصفان اللذان ادعوهما."

وقوله تعالى ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أي لستم كذلك بل أنتم بشر ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي من جنس من خلقه الله تعالى من غير مزية لكم عليهم"، ويرى صاحب التحرير والتنوير أن "في الجملة: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ تعريض^٣ بأن المسيح بشر، لأنه ناله ما يبال البشر من الأعراض والخوف، وزعموا أنه ناله الصلب والقتل. وجملة قوله ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ كالاقتباس، لأنه لما رتب على نوال العذاب إياهم أهم بشر دفع توهم النصارى أن الشريعة مقتضية استحقاق العذاب بوراثته

١ نظم الدرر. ٦٧/٦ ويضطر الكشاف ٦١٨/١

٢ تفسير أبي السعود ١٨/٣

٣ "التعريض هو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المحاري "مثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ٥٦/٣ "التعريض خلاف التصريح، وهو من الأساليب العربية العريفة، والطف وأحسن من الكشف والتصريح" معجم المصطلحات الدلالية. ٢/٢٧٦، ٢٧٧ ولعل فائدة التعريض هنا الملامة والتوبيخ والله أعلم

نعة حطيطة آدم فقال ﴿يَعْرِضُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي من السرر ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾^١، ولعل تكبير كلمة ﴿تَشْرُ﴾ للتحقير هما أي كيف تزعمون أنتم أبناء الله عروحل وأحارؤه وأنتم بشر ممن خلق الله ﷻ؟ والله أعلم.

يوجد طباق الإيجاب^٢ بين ﴿يَعْفِي﴾ و﴿يُعَذِّبُ﴾.

وفي جملة ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قدم الجار والمجرور للتحصيل ويفيد القصر، ويوجد بين ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ و﴿الْأَرْضِ﴾ الطباق أيضاً.

جملة ﴿وَالْيَهُ الْمَصِيرُ﴾ معطوفة على الجملة ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، وفيه أيضاً تقديم الجار والمجرور على المبتدأ لإفادة التحصيل والقصر، وبعطف الجملة على الجملة هما ازداد المعنى، ويشعر القارئ بأن الآية توحى بقدره الله الكاملة وغلبته على الجميع؛ فكيف يسجو أهل الكتاب من عذاب الله ﷻ؟

ثانياً: الحسد والبغض

لما بعث سيدنا محمد ﷺ من بني إسماعيل بدأ أهل الكتاب يحسدونه^٣ وأصحابه بسبب أمانتهم الباطلة، والكبر. كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾، واختاروا أهل الكفر والشرك أصدقاءهم من دون المؤمنين حتى قالوا إن المشركين أهدى من المسلمين، كما أشار الله ﷻ في قوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّاعُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾^٤ أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن يجد له نصيراً^٥ أم لهم نصيب من الملك فإذا

١ التحرير والتوير: ١٥٧/٦

٢ "هو الجمع بين الشيء وصدء". الإيضاح: ص ٢١٤

٣ يطر: المقرة ١٠٥، ١٠٩، النساء: ٥٤

٤ المقرة: ٨٧

لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٤﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ۚ ١

وقد نهي الله ﷻ المؤمنين أن يتحدثوا من أهل الكتاب أخلاء وأصدقاء؛ فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَقْوَائِهِمْ وَمَا تَخْصِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ تَيَّأَ لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تُغْفِلُونَ ﴿٥٥﴾ هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا يَعْلَبُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥٦﴾ إِنْ تَسْتَسْخِمُوا حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٥٧﴾ ٢ لأنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا كما ذكر القرآن الكريم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ٣. والحقيقة أن "اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه. فلما بعثه الله من العرب، كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه. فقال لهم معاذ بن جبل ؓ: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته! فأجابوا: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كما نذكر لكم! فأنزل الله جل ثناؤه في ذلك من قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾" ٤، وبيّن قولهم هذا حالة أهل الكتاب الفكرية بكل وضوح ويرسم كيفية حسدهم بعد دعوة سيدنا محمد ﷺ، وعدم الإيمان بالقرآن مع إقرارهم به قبل الإتيان، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى

١ آل عمران: ٥١-٥٤

٢ آل عمران: ١١٨-١٢٠

٣ المائدة: ٨٢

٤ من أصحاب سيدنا محمد ﷺ.

٥ تفسير الطبري: ٢/ ٣٣٣

الْكَافِرِينَ ﴿بِفَسْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^١

ولفهم الآية بلاغياً ننقل إلى دراستها واستخراج الأساليب البلاغية منها لتتضح معانيها أكثر.

من بلاغة النظم القرآني:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ المراد بكتابها القرآن الكريم وتكثيره للتعظيم، والتفخيم ووصفه بقوله عز وجل ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي كائن من عنده تعالى للتعريف^٢

"جواب ﴿لَمَّا﴾ محذوف وهو نحو: كذبوا به، واستهانوا بمجيئه، وما أتبه ذلك." ^٣ ﴿وَمُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ مصدق صفة القرآن الكريم والمراد بهم التوراة، ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي "يستصرون على المشركين، إذا قاتلوهم قالوا اللهم انصربا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نعته وصفته في التوراة، ويقولون لأعدائهم من المشركين: قد أطل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فقتلكم معه قتل عاد وإرم: وقيل معنى ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يفتحون عليهم ويعرفونهم أن نبيا يبعث منهم قد قرب أوايه. والسين للمبالغة، أي يسألون أنفسهم الفتح عليهم، كالسين في استعجب واستسحر، أو يسأل

١ النقرة: ٨٩، ٩٠

٢ يطر: روح المعاني: ٣١٩ / ١، وتفسير أبي السعود: ١٢٨ / ١

٣ الكشف: ١٦٤ / ١

٤ يطر: المحرر الوجيز: ١٧٧ / ١

بعضهم بعضا أن يفتح عليهم"^١، واستخدام الفعل المضارع يدل على استمرارهم في عملهم هذا.

وقد يتساءل القارئ لماذا قيل ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾؟ فيجيب الإمام الرازي بـ: "أنهم كانوا يظنون أن المبعوث يكون من بني إسرائيل لكثرة من جاء من الأنبياء من بني إسرائيل وكانوا يُرْعَبُونَ الناس في دينه ويدعونهم إليه، فلما بعث الله تعالى محمدا من العرب من نسل إسماعيل صلوات الله عليه، عظم ذلك عليهم فأظهروا التكذيب وخالفوا طريقهم الأول. وثانيها: اعترافهم بنبوته كان يوجب عليهم زوال رئاساتهم وأموالهم فأبوا وأصروا على الإنكار"^٢، والفعل الماضي في كلمتي ﴿عَرَفُوا﴾ و ﴿كَفَرُوا﴾ يدل على التحقق والثبوت.

وتعجيل للمساءة بالعطف بالفاء في الجملة ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ تفيد التعقيب جزاء وفاقا، "وأتى بالمظهر ﴿الْكَافِرِينَ﴾ للدلالة على أنهم لعنوا لكفرهم"^٣، وجميء الجملة الاسمية يفيد الدوام والثبات.

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ "بئس الشيء شيء اشتروا به أنفسهم. و ﴿اشْتَرَوْا﴾ هنا بمعنى باعوا، كشروا على خلاف الأصل، وقد يمكن أن يبقى على أصله"^٤، استعارة في ﴿اشْتَرَوْا﴾ إذ استعار الشراء لمعنى الاستبدال، فقد استبدلوا الكفر بأنفسهم فباعوها بهلكتها، ولذلك ناسب أن يصدر الكلام بالدم، وقال ابن عاشور "بجاز أطلق فيه الاستراء على استثناء الشيء المرعوب فيه تشبيها لاستنقائه بابتياح شيء مرغوب فيه فهم قد آثروا أنفسهم في الدنيا فألقوا عليها بأن كفروا بالقرآن حسدا، فإن كانوا يعتقدون أنهم محقون في إعراصهم

١ الكشاف ١/ ١٦٤

٢ التفسير الكبير ٣/ ٥٩٩، ويطر الكشاف ١/ ١٦٤

٣ تفسير البصاوي. ١/ ٩٣ ويطر. الكشاف: ١/ ١٦٥

٤ البحر المديد. ١/ ١٣٤

عن دعوة محمد ﷺ لتمسكهم بالتوراة فهما تمثيل لخالهم بحال من حاول تحارة ليربح فأصاه حسران، وهو تمثيل يقبل بعض أجزائه أن يكون استعارة وذلك من محاسن التمثيلية^١.

﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ "وجيء بصيغة المضارع في قوله: **﴿أَنْ يَكْفُرُوا﴾** ولم يؤت به على ما يناسب المبين وهو ما اشتروا المفتضي أن الاشتراء قد مضى للدلالة على أنهم صرحوا بالكفر بالقرآن من قبل نزول الآية فقد تبين أن اشتراء أنفسهم بالكفر عمل استقر ومضى، ثم لما أريد بيان ما اشتروا به أنفسهم نبه على أنهم لم يزالوا يكفرون ويعلم أنهم كفروا فيما مضى أيضا إذ كان المبين بأن يكفروا معبرا عنه بالماضي بقوله: **﴿بَغْيًا﴾** بضم الباء. أما كلمة **﴿الْبَغْيُ﴾** فهي: "على ضربين: أحدهما محمود، وهو تجاوز العدل إلى الإحسان، والفرض إلى التطوع. والثاني مذموم، وهو تجاوز الحق إلى الباطل."^٢ وبين القرآن الكريم هنا معنى **﴿بَغْيًا﴾** حسد كما شرح في بقية الآية وهي **﴿أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾** وتأني كلمة **﴿بَغْيٍ﴾** في الذم في أكثر الأحيان.^٣ "والبغي هنا مصدر بغي يبغي إذا ظلم وأراد به هنا ظلما خاصا وهو الحسد وإنما جعل الحسد ظلما لأن الظلم هو المعاملة بغير حق والحسد تمني زوال النعمة عن المحسود ولا حق للحاسد في ذلك لأنه لا يناله من زوالها نفع، ولا من بقائها ضرر"^٤.

﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ "للكفر والحسد على من هو أفضل الخلق"^٥ ويمكن تكرار كلمة **﴿غَضَبٍ﴾** في جملة **﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾** أن يكون الغضب الثاني مؤكدا

١ التحرير والتوير: ٦٠٤، ٦٠٥ / ١

٢ التحرير والتوير: ٦٠٥ / ١

٣ المفردات في غريب القرآن: كتاب الماء: تحت مادة بغي: ص ٦٠

٤ المصدر نفسه ص ٦١

٥ التحرير والتوير: ٦٠٥ / ١

٦ تفسير البصاوي ٩٤ / ١

لأول، والمراد بالأول لكفرهم بـ **عيسى عليه السلام** والثاني لكفرهم بالنبي **ﷺ**، أو يكون الأول لكفرهم بالإنجيل، والثاني لكفرهم بالقرآن الكريم، والله أعلم. ويشعر القارئ بأن المراد **يَغْضَبُ عَلَى عَظَبٍ** غضب شديد كما جاء في قوله تعالى **﴿ثُورٌ عَلَى ثُورٍ﴾** أي نور عظيم، ولعل تنكير كلمة **﴿عَظَبٍ﴾** للتفخيم والتهويل. اللام في جملة **﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾** للاستحقاق، وتقديم ما حقه التأخير للحصر والتوكيد، "ووضع المظهر موضع المصمر للإشعار بأن حلول اللعنة عليهم بسبب كفرهم كما أن الفاء للإيدان بترتيبها عليه أو للجس وهم داخلون في الحكم دحولا أولياء إد الكلام فيهم وأياما كان فهو محقق لمضمون قوله تعالى بل لعنهم الله بكفرهم"، ولعل تنكير كلمتي **﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾** للتفخيم والتهويل.

بعد دراسة هذه الآيات دراسةً بلاغيةً وصلت الباحثة إلى أن أهل الكتاب كانوا ينتظرون بعثة حاتم البيين منذ سنوات طويلة، وكانوا يستفتحون على الآخرين بمجيء هذا النبي الذي كانوا يعتقدون أنه سوف يكون منهم - حسب أمنيته - وسيرفع من قدرهم ومكانتهم بين الأمم ويغلبون جميع الأقوام بسبب وجوده الكريم

كان أهل الكتاب يتكبرون على الآخرين لأنهم كانوا يظنون أنهم أبناء الله وأحباؤه. ولكن عندما بُعث حاتم النبيين من بني إسماعيل ما قبلوا هذه الحقيقة. ومنعهم الحسد والبغض أن يؤمنوا بدعوة سيدنا محمد **ﷺ** وظلوا يعيشون في ظلمات أمانيهم الباطلة.



المبحث الثاني:

من بلاغة النظم القرآني في بيان أحوال أهل الكتاب العملية المتعلقة
بإنكارهم الدعوة



المدخل:

عندما يتأمل قارئ القرآن في أحوال أهل الكتاب العملية المتعلقة بإنكارهم الدعوة يرى أنهم لم يعرضوا عن دعوة سيدنا محمد ﷺ فحسب؛ بل حاولوا صد الآخرين عن قبولها حسب قدرتهم. فيمكننا تقسيم حالتهم العملية إلى نوعين أساسيين:

١- الإصرار على إنكار الحق بعد المعرفة

٢- الصّدّ عن سبيل الله ﷻ

واليكم تفاصيل هذين نوعين.

١- الإصرار على إنكار الحق بعد المعرفة

يذكر القرآن الكريم أن كفر أهل الكتاب ليس مبنياً على الجهل بل كانوا يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم، فقال تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^١ وهذه حالتهم العملية نتيجة دعوة سيدنا محمد ﷺ، يعني لم يسكروا الحق فقط بل حاولوا أن يكتموه لكي لا يعرف الآخرون كفرهم، وأصرّ أهل الكتاب على هذا وهم يعلمون؛ فقال تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يَبْذُوثَهَا وَخُفُونَ كَثِيرًا وَغَلِبَتْهُمْ مَا لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَا آتَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ دَرَسَهُمْ فِي حَوْصِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾^٢

وبدل على كفر أهل الكتاب بعد معرفتهم للحق ، قوله تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ ﴿١﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسِنُونَ الْحَقَّ بِالْظُلْمِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^٣ وأشار الله ﷻ إلى حالتهم السيئة بأنهم كانوا يحرفون كلام الله في كتبهم يقول الله ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَغْدٍ مَا عَقَلُوهُ

١ البقرة ١٤٦، وبطّر الأنعام: ٢٠

٢ الأنعام: ٩١

٣ آل عمران: ٧٠، ٧١

وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا لَفُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضُفِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَنُحَدِّثُوكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُخَاجِبُوكُمْ بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُغْلِبُونَ ﴿٨١﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٍّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٨٢﴾ قَوْلَ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلَ لَّهُمْ مِمَّا كَتَبْتُ أَتَيْدِيهِمْ وَوَقِّلَ لَّهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^١. يمكننا أن ندرس إصرارهم على إنكار الحق بعد معرفتهم له من خلال العناوين الآتية.

• التحريف وكتمان الحق

• نقض الميثاق

أولاً: التحريف وكتمان الحق

من مظاهر الإصرار على إنكار الحق بعد المعرفة، التحريف وكتمان الحق. فقد كان التحريف في الكلام من عادة أهل الكتاب كما ورد في القرآن الكريم: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَزَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^٢، وأشار الله عز وجل إلى هذه الحالة العملية لأهل الكتاب المتعلقة بإنكارهم دعوة سيدنا محمد ﷺ في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^٣.

١ الآية ٧٥ - ٧٩

٢ الآية ١٠١

٣ النساء ٤٦

٤ آل عمران ٧٨

"قال ابن عباس نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى جميعاً، حرفوا التوراة والإنجيل، وألحقوا به ما ليس منه، وأسقطوا منه الدين الخفيف، فبَيَّنَّ الله كذبهم"^١. أما الأساليب البلاغية التي تشتمل عليها الآية الكريمة فكثيرة وذلك من صور إعمار القرآن الكريم لتفهيم البشر أنَّ هؤلاء اليهود والنصارى لن يترددوا في إخفاء الحق بكل ما أوتوا من قوة كلما اضطروا لذلك، فيجب على المؤمن أن يضع ذلك في حسبانته عند معاملته لأهل الكتاب.

ولنعرج الآن الى استخراج الألوان البلاغية من الآية السابقة.

من بلاغة النظم القرآني:

استخدام إنَّ ولام التوكيد في بداية الآية **﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾** ينبه القارئ بأنه سيقراً حقيقة ثابتة الآن، **﴿يَلْعَنُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾** قال الإمام الراغب "اللَّيُّ قتل الحبل، يقال لَوَّى لسانه بكذا كناية عن الكذب و تحرَّص الحديث"^٢، يرى ابن عاشور "و كلمة "اللي" في هذه الآية يَحْتَمِلُ أن يكون حقيقة بمعنى تحريف اللسان عن طريق حرف من حروف الهجاء إلى طريق حرف آخر يقاربه لتعطي الكلمة في أذن السامع جرس كلمة أخرى--- ويَحْتَمِلُ أن يكون "اللي" هنا مجازاً عن صرف المعنى إلى معنى آخر كقولهم لوى الحجة أي ألقى بها على غير وجهها، وهو تحريف الكلم عن مواضعه بالتأويلات الباطلة، والأقيسة الفاسدة، والموضوعات الكاذبة، وينسبون ذلك إلى الله ﷻ، وأياماً كان فهذا 'اللي' يقصدون منه التمويه على المسلمين لغرض"^٣، وترى الباحثة أن كلمة "اللي" حقيقة بمعنى تحريف اللسان كما أشار الله عزوجل إلى هذا التحريف في قوله **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**^٤، ووردت مجازاً وهو تحريف الكلم عن مواضعه

١ البحر المنيد: ١ / ٣٧٢

٢ المفردات في غريب القرآن: كتاب اللام تحت مادة لوي: ص ٤٧٧، وبطرس. نصائر دوي التمييز: ٤ : ٤٧٢

٣ التحرير والتوير: ٣ / ٢٩١، ٢٩٢

٤ البقرة: ١٠٤

بالتأويلات الباطلة كما جاء في قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^١ فيمكن أن يراد بها كلا المعنيين، والله أعلم.

﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ "يرجع الضمير في ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ إلى ما دلَّ عليه يلوون ألسنتهم بالكتاب وهو المحرّف. ويجوز أن يراد يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب لتحسبوا ذلك الشبه من الكتاب"^٢، في الجملة ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أثر لفظ ﴿الْكِتَابِ﴾ على الضمير، وأظهره في موضع الإضمار؛ فلم يقل (وما هو منه)؛ ولعل هذا للتأكيد، ولزيادة التّشبيع عليهم. وفيه جحد الإطّاب بالترّار^٣ أو التكرير^٤. "وهو من الأساليب الشائعة في اللغة العربية، ويحس استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها ويحاف بتركه وقوع الغلط والسيان فيها"^٥، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ "أي مجددين التصريح بالكذب في كل وقت بأن يقولوا ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال، ثم صرح بكذبهم بقوله معداً لما لووا به ألسنتهم عن أن يكون فيه ثبوت حق مظهراً في موضع الإضمار لأن الاسم الذي لم يشارك فيه أحد بوجه أنص على المراد وأنفى لكل احتمال ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي الذي لووا به ألسنتهم حتى أحواله عن حقيقته ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي الذي له الإحاطة العامة، فما لم يكن من عنده فلا حق فيه بوجه من

١ آل عمران: ٧٥

٢ الكشف: ٣٧٧/١

٣ ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٣٣٨ / ٢

٤ التكرير: قال ابن الأثير: "أما التكرير فإنه دلالة للفظ على المعنى مرّداً، وإذا كان التكرير هو إيراد المعنى مرّداً

فمه ما يأتي لعائدة، ومه ما يأتي لعبير فائدة، فأما الذي يأتي لعائدة فإنه حرة من الإطّاب، وهو أحص

مه. "الثلث السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٣٤٥ / ٢

٥ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٢٣٦، ٢٣٧

الوجه، لا بكونه من الكتاب ولا من غيره"، وقال الزمخشري ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ "تأكيد لقوله (هو من الكتاب)، وزيادة تشنيع عليهم، وتسجيل بالكذب".^١

وقال أبوحيان ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ "رد عليهم في إخبارهم بالكذب، وهذا تأكيد لقوله ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ نفى أولا أخص، إذ التعليل كان لأخص، ونفي هنا أعم، لأن الدعوى منهم كانت الأعم، لأن كونه من عند الله أعم من أن يكون في التوراة أو غيرها".^٢ ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ "تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله والتعمد فيه"، "وجيء بالمضارع في هاته الأفعال 'يلوون'، و'يقولون'، للدلالة على تجديد ذلك وأنه دائم. وتكرير الكتاب في الآية مرتين، واسم الجلالة أيضا مرتين، لقصد الاهتمام بالاسمين، وذلك يجر إلى الاهتمام بالخبر المتعلق بهما، والمتعلقين به".^٣

تبين هذه الآية حالة أهل الكتاب العملية في إنكارهم الحق بعد المعرفة له، وتصوّر أمامنا صورة أشخاص متكبرين يحاولون خداع الآخرين، ويصرون على محاولة كتمان الحق دون أن يخافوا من عقاب الله ﷻ.

ثانياً: نقض الميثاق

والمظهر الثاني لإنكار أهل الكتاب للحق بعد المعرفة نقض الميثاق. من المعلوم أن أهل الكتاب كانوا حوة ويطعون أن نقض الميثاق أمر حين سبب إنكارهم الحق، كما ذكر القرآن الكريم ذلك في قوله ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا حَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ ❀ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا

١ نظم الدرر: ٤ / ٤٦٦

٢ الكشف: ١ / ٣٧٧

٣ البحر المحيط: ٣ / ٢٢٨

٤ تفسير البضاوي: ٢ / ٢٥، ويطر. نظم الدرر. ٤ / ٤٦٦ وتفسير أبي السعود: ٢ / ٥٢

٥ التحرير والتوير: ٣ / ٢٩٢

وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيِّنَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَقوله تعالى ﴿فَبَيِّنَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ وَمِثَاقَهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٤﴾ ٢، ﴿أَوْكَلْنَا عَاهِدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

ولذلك وصف الله عز وجل أهل الكتاب بأنهم شر الدواب فوق الأرض حيث يقول:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٦٧﴾﴾

نزلت هذه الآية في بني قريظة وبني النضير من قبائل اليهود في المدينة، الذين نقضوا عهدهم بعد أن أخذ سيدنا محمد ﷺ منهم العهد والميثاق بأن لا يحاربوه، ولا يطأهروا عليه محارباً له، فقال تعالى أنهم شر الدواب لأنهم كفروا، ونقضوا موافيقهم، ولم يتقوا الله فيما فعلوه بالمسلمين. وقال الزمخشري في بيان هذه الآيات أن المراد بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ "أي أصروا على الكفر ولجوا فيه، فلا يتوقع منهم إيمان وهم بنو قريظة، عاهدتهم رسول الله ﷺ أن لا يمالئوا

١ المائدة ٧٠، ٧١

٢ آل عمران ١٨٧

٣ النساء ١١٣، ١١٤

٤ البقرة ١٠٠، ١٠١

٥ الأفعال ٥٥ - ٥٦

عليه فمكتوا بأن أعانوا مشركي مكة بالسلاح وقالوا: نسيا وأحطأنا، تم عاهدتهم فمكتوا ومالوا معهم يوم الخندق، وانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم الدين عاهدت منهم بدل من الدين كفروا، أى الدين عاهدتهم من الدين كفروا جعلهم شر الدواب، لأن شر الناس الكفار، وشر الكفار المصرون منهم، وشر المصريين الناكثون للعهود وهم لا يتقون لا يخافون عاقبة الغدر ولا يبالون ما فيه من العار والنار^١.

والآن نستنبط الألوان البلاغية من هذه الآية.

من بلاغة النظم القرآني:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جملة مؤكدة بـ **﴿إِنَّ﴾** تعني أن ليس فيه شك أنهم شر الدواب، ولفظة **﴿الدَّوَابِّ﴾** من "الدَّبْتُ" و"الدَّيْبُ": مشي حفيف، و يستعمل ذلك في الحيوان، و في الحشرات أكثر^٢، والمراد هنا "من يدب على وجه الأرض في علم الله وحكمه"^٣، و"المعنى المقصود تفضيل الدواب الذميمة كالخنزير والكلب العقور على الكافرين الذين ختم عليهم بأنهم لا يؤمنون، وهذا الذي يقتضيه اللفظ"^٤، وسبب قيد **﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾** تحقير هؤلاء وإهانتهم في عين الله عزوجل، والله أعلم.

والفاء في الجملة **﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** للعطف والتنبيه على أن تحقق المعطوف عليه يستدعي تحقق المعطوف^٥، واستخدام الجملة الاسمية تفيد معنى الاستمرار والدوام في عدم الإيمان، وقال أبو السعود إنه "حكم مترتب على تماديهم في الكفر ورسوخهم فيه"^٦، وفصل

١ الكشاف: ٢ / ٢٣٠، ويطر: التفسير الكبير: ١٥ / ٤٩٧

٢ المعجمات في عريب القرآن: كتاب الدال، تحت مادة دب، ص ١٧١

٣ تفسير القرطبي: ٨ / ٣٠

٤ المحرر الوحي: ٢ / ٥٤١

٥ تفسير البضاوي: ٣ / ٦٤

٦ تفسير أبي السعود: ٤ / ٣٠

ابن عاشور الكلام فيه وقال "وأتى بصلة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملة اسمية لإفادة ثبوت عدم إيمانهم وأنهم غير مرجو منهم الإيمان. فإن تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المنفي مع عدم إيلاء المسند إليه حرف النفي، لقصد إفادة تقوية نفي الإيمان عنهم، أي الذين ينتفي الإيمان منهم في المستقبل انتفاء قويا فهم بعداء عنه أشد الابتعاد. وليس التقديم هنا مقيدا للتحصيل؛ لأن التخصيص لا أثر له في الصلة، ولأن الأكثر في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المنفي، إذا لم يقع المسند إليه عقب حرف النفي، أن لا يبعد تقديمه إلا التقوي، دون التخصيص، وذلك هو الأكثر في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾^١ إذ لا يراد وأنتم دون غيركم لا تظلمون"^٢، وللعلامة عبدالقاهر الجرجاني كلام رائع في باب التقديم والتأخير، حيث يقول "واعلم أن هذا الصنيع يقتضي في الفعل المنفي ما اقتضاه في المشت، فإذا قلت: "أنت لا تحس هذا" كان أشد لنفي إحسان ذلك عنه من أن تقول: "لا تحس هذا" ويكون الكلام في الأول مع من هو أشد إعجاباً بنفسه، وكذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^٣، ولاحظت الباحثة أن الجملة ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أيضاً تدخل في هذا الإطار.

وقوله ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ "بدل من الذين كفروا بدل البعض للبيان والتخصيص"^٤، وفي الجملة ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ "منهم للتبويض فإن المعاهدة إنما تكون مع أشرافهم وقوله ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ قال أهل المعاني إنما عطف المستقبل على الماضي، لبيان أن من شأهم نقض العهد مرة بعد مرة"^٥، وقال ابن عاشور "والتعبير، في جانب نقضهم العهد، بصيغة المضارع للدلالة على أن ذلك يتجدد منهم ويتكرر، بعد نزول

١ القرة: ٢٧٢

٢ التحرير والتوير: ٤٧ / ١٠

٣ دلائل الإعجاز: ص ١٣٨

٤ تفسير البضاوي: ٦٤ / ٣

٥ التفسير الكبير: ٤٩٧ / ١٥، ويظر: تفسير القرطبي: ٣٠ / ٨، روح المعاني: ٢١٨ / ٥

هذه الآية، وأنهم لا ينتهون عنه، فهو تعريض بالتأيس من وفائهم بعهدهم".^١

﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ سبة الغدر ومغبته، أو لا يتقون الله فيه أو نصره للمؤمنين وتسليطه إياهم عليهم ولا يبالون بما فيه من العار والنار^٢، ولعل استخدام الجملة الاسمية تفيد معنى الاستمرار والدوام في عدم التقوى، والله أعلم.

٢- الصد عن سبيل الله:

لم يكفر أهل الكتاب فحسب بل حاولوا صد الآخرين عن سبيل الله لأنهم أشدّ عداوة لدعوة سيدنا محمد ﷺ، فكادوا للمسلمين كيداً، ولم يتركوا أي فرصة لتضليل الناس عن الصراط المستقيم، كما ذكر القرآن الكريم ذلك في قوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ۚ وَاللَّهُ أَغْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً﴾^٣ وقوله تعالى ﴿سَيَقُولُ الشُّقْعَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^٤ و ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^٥ وكانوا يحرصون على الفساد وإيقاد الحروب لكي يطفئوا نور الله بأفواههم، واتخذوا دين سيدنا محمد ﷺ هرواً ولعباً. يحاول أن نبين محاولاتهم للصد عن سبيل الله حسب الترتيب الآتي.

• المكر والكيد

• اتخذ دين الله هزواً ولعباً

١ التحرير والتوير: ٤٨ / ١٠

٢ يطر: تفسير البصاوي: ٦٤ / ٣، وتفسير أبي السعود: ٣٠ / ٤

٣ النساء: ٤٤، ٤٥

٤ النقرة: ١٤٢

٥ آل عمران: ٦٩

أولاً: المكر والكيد

من محاولات أهل الكتاب للصد عن سبيل الله عزوجل المكر والكيد. قد ذكر القرآن الكريم كيدهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَاتَّكُفُّوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿١﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنِ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنِ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^١

أشار الله ﷻ إلى كيد أهل الكتاب للصد عن سبيل الله في هذه الآيات، وبين كيدهم أمام المسلمين أنهم لم يؤمنوا حقاً بل كان هذا مكرهم فلذلك كفروا بعد أن أعلنوا إيمانهم لكي يتبعهم الضعفاء في الإيمان، كما قال الإمام الطبري "كان أحبار قرى عربية اثني عشر حبراً، فقالوا لبعضهم ادخلوا في دين محمد أول النهار، وقولوا "نشهد أن محمداً حق صادق"، فإذا كان آخر النهار فاكفروا وقولوا "إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا فسألناهم، فحدثونا أن محمداً كاذب، وأنكم لستم على شيء، وقد رجعنا إلى ديننا فهو أعجب إلينا من دينكم"، لعلهم يشكّون، يقولون: هؤلاء كانوا معنا أول النهار، فما بالهم؟ فأخبر الله عز وجل رسوله ﷺ بذلك".^٢

من بلاغة النظم القرآني:

١ السورة نفسها ٧٢-٧٤

٢ تفسير الطبري. ٥٠٧/٦

جملة ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ عطف على ﴿وَوَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾
لَوْ يُصِلُونَكُمْ وَمَا يُصِلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ^١؛ فالطائفة الأولى حاولت الإصلاص
بالمجاهرة، وهذه الطائفة حاولته بالمحادعة.

لعل كلمة 'من' جاءت للتبويض لأن الله ﷻ ذكر بعضهم ولم يعمهم؛ لأن من منهم من
آمن، والله أعلم.

"وجه النهار هو أوله، والوجه في اللغة هو مستقبل كل شيء، لأنه أول ما يواجه
منه، كما يقال لأول الثوب وجه الثوب." وفي الجملة ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا
وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا آخِرَهُ﴾ اختصاص^٢ لأن الله ﷻ خص هذين الوقتين.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ "متعلق الرجوع محذوف أي يرجعون عن دينهم. وظاهر الآية
الدلالة على هذا القول".

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ "من كلام الطائفة من أهل الكتاب قصدوا به
الاحتباس ألا يظنوا من قولهم آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار أنه إيمان حق،
فالمعنى ولا تؤمنوا إيماناً حقاً إلا لمن تبع دينكم، فأما محمد فلا تؤمنوا به لأنه لم يتبع دينكم فهذا
تعليل للهي. وقوله ﴿قُلْ إِنْ أَهْدَى اللَّهُ هُدىً هُدىً﴾ كلام معترض^٣، أمر النبي ﷺ أن يقول لهم.
كناية عن استبعاد حصول اعتدائهم، وأن الله لم يهدهم، لأن هدى غيره أي محاولته هدى
الناس لا يحصل منه المطلوب، إذا لم يقدره الله. فالحق حقيقي؛ لأن ما لم يقدره الله فهو صورة

١ آل عمران: ٦٩

٢ التفسير الكبير: ٨ / ٢٥٨، ويطر: تفسير الطبري: ٦ / ٥٠٩

٣ اختصاص: من احتص فلان بالأمر إذا ائرد، ويقال: حصصه واحتصه، والاختصاص من أساليب البيان. يطر:
معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ١ / ٧٥

٤ البحر المحيط: ٣ / ٢١١

٥ "الاعتراض: هو عبارة عن حملة تعترض بين الكلامين تفيد زيادة في معنى غرض المتكلم." معجم المصطلحات
البلاغية وتطورها: ١ / ٢٤٦

الهدى وليس يهدى وهو مقابل قولهم آمنوا بالذي أنزل - ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، إذ أرادوا صورة الإيمان، وما هو بإيمان، وفي هذا الجواب إظهار الاستغناء عن متابعتهم^١.

﴿أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدَ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾ أي ولا تصدقوا تصديقا صحيحا وتؤمنوا إلا لمن جاء بمثل دينكم كراهة أو مخافة أن يؤتى أحد من النبوة والكرامة مثل ما أوتيتهم، وحذرا أن يحاجوكم بتصديقكم إياهم عند ربكم إذا لم تستمروا عليه، وهذا القول على هذا المعنى ثمرة الحسد والكفر والتكذيب بمحمد ﷺ على اعتقاد منهم أن النبوة لا تكون إلا في بي إسرائيل^٢، وقال ابن عاشور: "وكلمة أحد اسم نكرة غلب استعمالها في سياق النفي ومعناها شخص أو إنسان وهو معدود من الأسماء التي لا تقع إلا في حيز المعنى فيفيد العموم"^٣، ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ "يحيى في بعض المعاني على معنى عند ربكم في الآخرة، ويحيى في بعضها على معنى عند كتب ربكم، والعلم الذي جعل في العباد، فأضاف ذلك إلى الرب تشريفا، وكأن المعنى أو يحاجوكم عند الحق"^٤.

﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ "فالفضل هو بيد الله. أي متصرف فيه كالشيء في اليد، وهذه كناية عن قدرة التصرف والتمكن فيها، والباري تعالى منزه عن الجارحة"^٥. وهذا زيادة تذكير لهم وإبطال لإحالتهم أن يكون محمد ﷺ رسولا من الله، وتذكير لهم على طرح الحسد على نعم الله تعالى أي كما أعطى الله الرسالة موسى كذلك أعطاه محمد، وهذا كقوله تعالى ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾، وتأكيده الكلام بـ ﴿إِنَّ﴾ لتزيلهم منزلة من ينكر أن الفضل بيد الله ومن يحسب أن الفضل تبع لشهواتهم وجملته ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾

١ التحرير والتوير: ٣ / ٢٨٠، ٢٨١

٢ المهرر الوحير: ١ / ٤٥٤، ٤٥٥

٣ التحرير والتوير: ٣ / ٢٨٢

٤ المهرر الوحير: ١ / ٤٥٧

٥ البحر المحيط: ٣ / ٢١٧، ٢١٨

٦ النساء: ٥٤

عَلَيْهِمْ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةٍ ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ إلخ أي إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ وهو لا يخفى عليه من هو أهل لنوال فضله^١، وقال البقاعي "قال تعالى مجيباً لمن تشوف إلى تعليم ما لعله يكف من مكرمهم ويؤمن من شرهم معرضاً عنهم بالخطاب بعد الإقبال عليهم به إيداناً بشديد الغضب ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ﴾ في التشریف بإنزال الآيات وغيرها ﴿بِيَدِ اللَّهِ﴾ المختص بأنه لا كفوء له، فله الأمر كله ولا أمر لأحد معه، وأتبعه نتيجته فقال ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فله مع كمال القدرة كمال الاجتهاد، ثم قال مرغباً مرهباً وراداً عليهم في الأمر الثاني ﴿وَاللَّهُ﴾ الذي له من العظمة وسائر صفات الكمال ما لا تحيط به العقول ولا تبلغه الأوهام ﴿وَاسِعٌ﴾ أي يوسع على من علم فيه خيراً، ويهلك من علم أنه لا يصلح للخير، ويعلم دقيق أمركم وجليله، فلا يحتاج سبحانه وتعالى إلى تنبيه أحد بمحاجتكم عليه عنده^٢، والجمله الاسمية ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِمْ﴾ تفيد الثبوت والدوام.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ وهذا كالتأكيد لما تقدم، والفرق بين هذه الآية وبين ما قبلها أن الفضل عبارة عن الريادة، ثم إن الزيادة من حسن المرید عليه، فبين بقوله ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ أنه قادر على أن يؤتي بعض عباده مثل ما آتاهم من المناصب العالية ويريد عليها من جنسها، ثم قال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ والرحمة المضافة إلى الله سبحانه أمر أعلى من ذلك الفضل، فإن هذه الرحمة ربما بلغت في الشرف وعلو الرتبة إلى أن لا تكون من حسن ما آتاهم، بل تكون أعلى وأحل من أن تقاس إلى ما آتاهم، ويحصل من مجموع الآيتين أنه لا نهاية لمراتب إعزاز الله وإكرامه لعباده، وأن قصر إعامه وإكرامه على مراتب معينة، وعلى أشخاص معينين جهل بكمال الله في القدرة والحكمة^٣، في جملة ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الاطناب بالتذييل^٤ لتوكيد المعنى، والجمله الاسمية تفيد الثبوت والدوام.

١ التحرير والتوير: ٢٨٣ / ٣

٢ نظم الدرر: ٤٥٩ / ٤

٣ التفسير الكبير: ٢٦٢ / ٨

٤ الاطناب بالتذييل: "هو تعقيب الجملة بحملة تشتمل على معانيها للتوكيد." معجم المصطلحات البلاغية وتطورها. ٢٣٥ / ١، والتذييل: "دليل آخر كل شيء، والتذييل: أن يدل النظم أو الباطن كلاماً بعد تمامه وحسن

وهذه الآية شبيهة بآية سورة البقرة ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^١ التي تبين حسد أهل الكتاب، وتشرح هذه الآية أنَّ هناك لا مانع لما يعطي الله ﷻ من عباده. "الله ﷻ تعظيم ما لديه دفعاً لتوهم من يظن أن اختصاص البعض لضيق الرحمة عن العموم، وكرر الاسم الأعظم هنا تعظيماً لما ذكر من النعم مشيراً بذلك كله إلى التمكن من الإعطاء باختباره وغازاة فضله وإلى القدرة على الإنجاء من حبال المكر بسعة علمه."^٢

ولا يخفى على المتأمل في هذه الآيات أن أهل الكتاب كادوا للصد عن سبيل الله بسبب الحسد والبغض، ولكن الله ﷻ موهن كيد الكافرين، وهو خير الماكرين.

ثانياً: اتخاذ دين الله هزواً ولعباً

ومن محاولات أهل الكتاب للصد عن سبيل الله أنهم اتخذوا دين الله هزواً ولعباً لأجل التحقير والإهانة لدعوة سيدنا محمد ﷺ، فنهى الله ﷻ المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب والكفار حلفاء وأصدقاء قائلاً إنهم اتخذوا دين الله هزواً ولعباً، وأمرهم بالتقوى إن كانوا مؤمنين حقاً، ثم يشير الله ﷻ إلى بعض مظاهر استهزاء هؤلاء أعداء دعوة سيدنا محمد ﷻ، ثم يأمر الله ﷻ سيدنا محمد ﷻ أن يقول لأهل الكتاب: هل أنتم تكرهوننا وتحاربوننا بسبب إيماننا بالله، وبالقرآن الذي أنزل علينا، وبالكتب السماوية التي نزلت من قلنا، يقول الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^٣ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ

السكوت عليه محملة تحقق ما قلها من الكلام وتريده توكيداً، وهو الإطبات بالتدليل "معجم المصطلحات

٢- وتطورها: ١٢٢ / ٢ ، ويطر: التحرير والتنوير: ٢٨٤ / ٣

١- الفقرة: ١٠٥

٢- نظم الدرر: ٤٦٠ / ٤

اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٨﴾

والآن ندرس الآية دراسة بلاغية لنرى فصاحة القرآن الكريم وبلاغته عند حديثه عن منكره من أهل الكتاب.

من بلاغة النظم القرآني:

في جملة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ تخنيس الاشتقاق لأن هنا يجمع بين اللفظين ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ الاشتقاق.^١ وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ يظهر عداوة أهل الكتاب والمشركين ومحاولتهما للصد عن سبيل الله ﷻ، وتبين علة النهي عن موالات أهل الكتاب والكفار. ﴿هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ "الهزاء: مزح في خفية"^٢ وقال ابن عطية إن "الهزاء السخرية والازدراء."^٣ وأصل الكلمة لعب اللعاب وهو البزاق السائل، ولعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً يلعب لعباً."^٤

قال الإمام الرازي: "هذه الآية تقتضي امتياز أهل الكتاب عن الكفار لأن العطف يقتضي المغايرة"^٥، وذكر اسم أهل الكتاب تزيد شناعة جرمهم وغاية ضلالهم؛ لأنهم كانوا

١ المائدة: ٥٧ - ٥٩

٢ يطر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٦١ / ٢

٣ المفردات في غريب القرآن: كتاب الهاء، تحت مادة هزؤ: ص ٥٦٧

٤ المهرج الوحي: ٢ / ٢٠٩

٥ المفردات في غريب القرآن: كتاب اللام، تحت مادة لعب: ص ٤٦٩

٦ التفسير الكبير: ٣٨٧ / ١٢

يستهمزون بشعائر دين الله ﷻ مع أنهم أهل الكتاب^١، ولعل تكرار وتنكير كلمتي ﴿هُزُّوْا﴾ و﴿لَعِبَآءَ﴾ تدل على كمال قبح عملهم ورداءته، والله أعلم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ الأمر للفرض "وهذا هو المعنى الحقيقي للأمر"^٢، وذكر الشرط في ﴿إِنْ

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ استنهاض للهمة في الانتهاء، وإلهاب لفسوس المؤمنين ليطهروا أنفسهم مؤمنون، لأن شأن المؤمن الامتثال^٣.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُّوْا وَلَعِبَآءَ﴾ "قيل إنهم كانوا إذا أذن المؤذن للصلاة تضاحكوا فيما بينهم وتعامزوا على طريق السحف والمجون؛ تجهيلاً، وتنعيماً للناس عنها وعن الداعي إليها. وقيل: إنهم كانوا يرون المنادي بمنزلة اللاعب الهازئ بفعلها، جهلاً منهم بمنزلتها؛ فنزلت هذه الآية، ونزل قوله سبحانه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾^٤ والنداء الدعاء برفع الصوت.^٥ وقوله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي إنهم نزلوا منزلة من لا عقل له يمنعه من القبائح، وهذا يدل على "تحقيرهم إذ ليس في النداء إلى الصلاة ما يوجب الاستهزاء فجعله موجبا للاستهزاء سخافة لعقولهم"^٦، ولعل ﴿ذَلِكَ﴾ استخدمت لإبعادهم عن العقل، والله أعلم.

في جملة ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب للدلالة على المسؤولية لأنهم أهل الكتاب وهذا يقتضي الإيمان بالقرآن الكريم.

١ ينظر - روح المعاني: ٣ / ٣٣٨

٢ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ١ / ٣٢٢

٣ التحرير والتوير: ٦ / ٢٤٢

٤ فصلت: ٣٣

٥ تفسير القرطبي: ٦ / ٢٢٤

٦ التحرير والتوير: ٦ / ٢٤٢

وفي جملة ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾ الاستفهام إنكاري وتعجبي. فالإنكار دل عليه الاستثناء، والتعجب دل عليه أن مفعولات تنقمون كلها محامد لا يحق نقمها، أي لا تجدون شيئاً تنقمون منه غير ما ذكر. وكل ذلك ليس حقيقاً بأن ينقم^١، "كلمة "نقم" جمع نعمة وقيل: أنكره إما باللسان/ وإما بالعقوبة.^٢ وجاء في القرآن الكريم ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾^٣ عن أصحاب الأخدود أيضاً. "ويجوز أن تكون الواو في الجملة ﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ بمعنى مع، أي وما تنقمون منا إلا الإيمان مع أن أكثركم فاسقون.^٤" ولا يخفى على المتأمل في هذه الآيات أن أهل الكتاب حاولوا أن يصدوا الآخرين عن سبيل الله حتى نزلوا منزلة الكفار وصاروا أسفل سافلين غير خائفين من عقاب الله ﷻ.

في الآية ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ الاستفهام إنكاري وتعجبي. فالإنكار دل عليه الاستثناء، والتعجب دل عليه أن مفعولات تنقمون كلها محامد لا يحق نقمها، أي لا تجدون شيئاً تنقمون منه غير ما ذكر، ﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ معطوف على ﴿أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ على ما هو المتبادر ويكون الكلام تحكماً، أي تنقمون ما أسأ آمنا كإيمانكم وصدقنا رسلكم وكتبكم، وذلك نقمه عجب وأنا آمنا بما أنزل إلينا وذلك لا يهمكم. وتنقمون منا أن أكثركم فاسقون، أي ونحس صالحون، أي هذا نقم حسد، أي ونحس لا نملك لكم أن تكونوا صالحين. فظهرت قربة التهكم فصار في الاستفهام إنكار فتعجب فتهكم، تولد بعضها عن بعض وكلها متولدة من استعمال الاستفهام في مجازاته أو في معان كناية^٥.

١ المرجع نفسه: ٢٤٣/٦

٢ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ١١٦/٥

٣ البروج: ٨

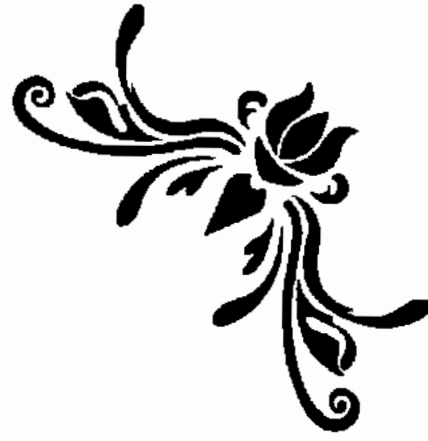
٤ الكشف: ١/٦٥٠

٥ التحرير والتنوير: ٢٤٣/٦، ٢٤٥

الخلاصة:

علم مما درسنا من خلال المبحثين في الفصل الأول أن أهل الكتاب - مع العلم المكتوب عندهم ومعرفة نبوة سيدنا محمد ﷺ - أصروا على إنكار الحق، واستمروا في الصد عن سبيل الله نتيجة عن أحوالهم الفكرية: وهي الأمانى الباطلة والحسد والبغض في قلوبهم. وتظهر إصرارهم على إنكار الحق بعد المعرفة في تحريف كلام الله عزوجل عندهم، ونقض الميثاق الذي عاهدوا عليه النبي ﷺ والمؤمنين كل مرة، ولا يجدون أي حرج في أنفسهم، ولا يستحيون من الله ﷻ ولا من الناس حتى لقبهم الله عزوجل بشرّ الدواب. ويذكر القرآن الكريم أحوالهم العملية مبيّناً مكروهم وكيدهم، واتخاذهم دين الله عزوجل مزواً ولعباً.

يستخدم القرآن الكريم الأساليب البلاغية المختلفة في بيان أحوال أهل الكتاب الفكرية والعملية المتعلقة بإنكار دعوة سيدنا محمد ﷺ، وهي تتمثل في استخدام حروف العطف وأدوات الشرط، والاستفهام الإنكاري والتعجبي، والإطناب، والحذف، والإظهار في موضع الإضمار وتقديم الجار والمجرور على المبتدأ لإفادة التخصيص والقصر من الظواهر البلاغية في علم المعاني، واستعمال الفنون البيانية من التشبيه والاستعارة والكناية، وورد القيد والطباق من الألوان البديعية كما استخدمت أفعال الماضي والمضارع، والتأكيد، والتعريف والتذكير، والمفردات، والجمل الاسمية لتبيين أحوال أهل الكتاب في غاية الوضوح.



الفصل الثاني:

من بلاغة النظم في حديث القرآن عن جزاء أهل الكتاب

يتكون هذا الفصل من مبحثين:

المبحث الأول:

من بلاغة النظم القرآني في بيان جزاء أهل الكتاب في الدنيا

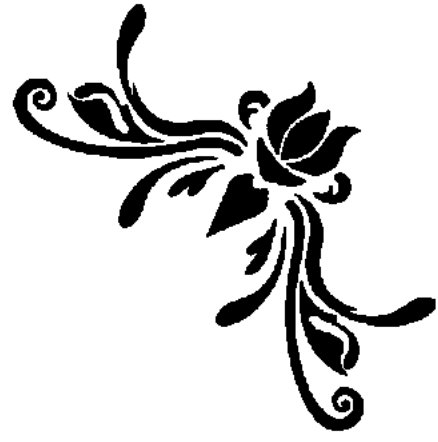
المبحث الثاني:

من بلاغة النظم القرآني في بيان جزاء أهل الكتاب في الآخرة



فاتحة:

حاولت الباحثة في الفصل الأول بيان حالة أهل الكتاب الفكرية والعملية المتعلقة بإسكار دعوة سيدنا محمد ﷺ في الفصل الأول. أما الفصل الثاني فسوف يشتمل على تصوير حراء أهل الكتاب في الدنيا والآخرة. يذكر القرآن الكريم عدداً كبيراً من جرائم أهل الكتاب، ونجد أمثلة صريحة على عدوانهم وطغيانهم وإفسادهم في الأرض، فأخذوا الربا وأكلوا السحت، ونقضوا الميثاق الذي أخذ عليهم في التوراة، وقتلوا النفس التي حرم الله ﷻ، واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل، وظنوا أن ليس عليهم في الأئمين سبيل، واعتدوا على إخوانهم في الدين فأخرجوهم من ديارهم، ولكن لم يعذبهم الله ﷻ عذاباً نهائياً في الدنيا، ولم يحققهم محققاً تاماً، بل أمهلهم لكي يجزيهم في الآخرة جزاءً وفاقاً. يبين القرآن الكريم أن أهل الكتاب لم ينكروا دعوة سيدنا محمد ﷺ على المستوى الفكري والعملي بأنفسهم فحسب، بل حاولوا كل محاولة ليصدوا الآخرين عن صراط الله المستقيم؛ فلذلك حق عليهم العذاب في الدنيا والآخرة.



المبحث الأول:

من بلاغة النظم القرآني في بيان جزاء أهل الكتاب في الدنيا



المُدخل:

إن الله عز وجل لم يمحق أهل الكتاب محققاً تاماً بل أخر جزاءهم الكامل إلى يوم القيامة لكي يحق عليهم العذاب بسبب أحوالهم الفكرية والعملية المتعلقة بإنكارهم دعوة سيدنا محمد ﷺ، والآن ندرس النظم البلاغي في حديث القرآن عن جزاء أهل الكتاب بسبب إنكارهم دعوة سيدنا محمد ﷺ في الدنيا من خلال الآيات المختارة في هذا المبحث، والله المستعان.

يمكن توزيع جزاء أهل الكتاب في الدنيا حسب الترتيب الآتي:

- الحرمان من الرشد والهدى
- اللعنة والعداوة فيما بينهم
- العداوة من الله ﷻ
- العذاب بأيدي المسلمين

أولاً: الحرمان من الرشد والهدى

كتب الله على أهل الكتاب الحرمان من الرشد والهدى بسبب إصرارهم على الكفر والصد عن سبيل الله ﷻ حيث قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿إِلَّا طَرِيقَ خَالِدِينَ فِيهَا أُنْذِرَكَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾، وقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾^١

١ النساء: ١٦٧ - ١٦٩

٢ آل عمران: ٨٦ - ٨٨

تشير هذه الآيات إلى جزاء أهل الكتاب وهو الحرمان من الرشد في الدنيا بسبب جرماتهم العظيمة وهي إنكار الحق بعد المعرفة، وقد ذكر الإمام الطبري عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ "هم أهل الكتاب، عرفوا محمداً ﷺ ثم كفروا به."^١ وقال الإمام الزمخشري "كيف يلطف بهم وليسوا من أهل اللطف، لما علم الله من تصميمهم على كفرهم، ودل على تصميمهم بأنهم كفروا بعد إيمانهم وبعد ما شهدوا بأن الرسول حق، وبعد ما جاءهم الشواهد من القرآن وسائر المعجزات التي تثبت بمثلها النبوة - وهم اليهود - كفروا بالنبي ﷺ بعد أن كانوا مؤمنين به وذلك حين عاينوا ما يوجب قوة إيمانهم من البينات"^٢، وبالتالي استحقوا العذاب من الله تعالى. ولندرس الآن الآية دراسة بلاغية.

من بلاغة النظم القرآني:

﴿كَيْفَ﴾ "ها هنا لفظها لفظ الاستفهام، ومعناها الجحد، أي: لا يهدي الله هؤلاء."^٣ وقال ابن عطية "كَيْفَ سؤال عن حال لكنه سؤال توقيف على جهة الاستبعاد للأمر فالمعنى أنهم لشدة هذه الجرائم يبعد أن يهديهم الله تعالى"^٤، ﴿يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا﴾ مجيء اسم الجلالة يزيد الروعة في النص والفعل المضارع يفيد الاستمرار في عدم الهداية، وتنكير قوم يدل على التعميم في الحكم، والله أعلم.

﴿كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ قد كفر أهل الكتاب برسول الله ﷺ بعد ما كانوا به مؤمنين قبل مبعثه، وقال أبوحيان: "والرسول هنا

١ تفسير الطبري: ٥٧٤ / ٦

٢ الكشاف: ٣٨١ / ١

٣ جمال الدين أبو العزح عند الرحمن بن علي بن محمد الحوري (المتوفى: ٥٥٩٧هـ)، زاد المسير في علم التفسير، المحقق:

عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت ط ١، ١٤٢٢ هـ، ١ / ٣٠١

٤ المحرر الوحي: ٤٦٨ / ١

محمد ﷺ، والبيات هي شواهد القرآن، والمعجزات التي تأتي بمثلها الأنبياء. "١" ويجوز أن تكون الواو للحال بإصمار ﴿قَدْ﴾ بمعنى كفروا وقد شهدوا أن الرسول حق ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لا يُلطف بالقوم الظالمين المعاندين الذين علم أن اللطف لا ينفعهم. "٢".

قال اس عطية أن "قوله تعالى ﴿وَشَهِدُوا﴾ عطف على كَفَرُوا بحكم اللفظ، والمعنى مفهوم أن الشهادة قبل الكفر. "٣"

"وفي قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ما يكشف عن حقيقة الاستفهام الإنكارى الذي بدأت به الآية، وهو ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ .. فهؤلاء القوم قد اتخذوا الظلم مركبا، فاعتدوا اعتداء منكرا على الحق الذي بين أيديهم، حتى لقد اجتروا على إفساد الكتاب السماوي الذي يؤمنون به، ويعيشون فيه.. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فكيف يهدي الله هؤلاء القوم الظالمين، الذين يشهدون الحق، ويستيقنونه، ثم يكفرون به؟ إنهم ليسوا أهلا لخير أبدا، هنا يأتي السؤال "لم سُمي الكافر ظالما؟ فالجواب قوله تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ° والسبب فيه أن الكافر أورد نفسه موارد البلاء والعقاب بسبب ذلك الكفر، فكان ظالما لنفسه. "٤".

١ البحر المحيط ٢٥٢ / ٣

٢ الكشاف. ٣٨٢ / ١

٣ المحرر الوجيز: ٤٦٨ / ١

٤ عد الكريم يوس الخطيب (ت: بعد ١٣٩٠هـ) التفسير القرآني للقرآن: دار الفكر العربي، القاهرة،

٥١٧ / ٢

٥ لقمان: ١٣

٦ التفسير الكبير: ٢٨٤ / ٨

"وكلمة «القوم» هنا تعني أن هذا الظلم الذي ارتكبه هؤلاء السفهاء هو ظلم جماعي، تواطأ عليه القوم جميعاً، ولم يقم فيهم رجل رشيد ينكر عليهم هذا المنكر، فكان ظلماً غليظاً، ولهذا كانت العقوبة الواردة على هؤلاء الظالمين عقوبة عامة قاصمة".^١

وقد يتساءل القارئ هنا مادام الله لم يهدهم، فما ذنبهم؟ فيجيب الشعراوي قائلاً "إن الهداية تأتي بمعنيين؛ وهما: هداية الدلالة على الطريق المستقيم، وهداية المعونة، وتعني (المعونة)، إن الله يعطي عبده المؤمن حلالة الطاعة، ويجعله مقبلاً عليها بنشاط. إذن فالاستفهام في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ هو تساؤل يراد به الإنكار والاستبعاد لا عن الهداية الأولى وهي هداية الدلالة، ولكنه عن هداية المعونة، أي: كيف أعين من كفر بي؟"^٢ ويدل على هذا الموقف قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى * إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * ٣

رأت الباحثة أن الجملة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وردت ثلاث مرات في القرآن الكريم عن أهل الكتاب والكلمات هي: فوصلت إلى النتيجة بأن أهل الكتاب ظلموا بأنهم كفروا بعد الإيمان، والشهادة، والبيئات، وافترؤا على الله الكذب وهم يدعون إلى الإسلام، ولم يحملوا التوراة كما كان حق حملها؛ فلهذا وصفهم الله **بأنهم ظالمون**، وقضى أنه لا يهديهم أبداً حتى يدوقوا عذاباً أليماً، والجملة الاسمية تدل على الدوام في عدم الهدى والرشد، والله أعلم.

١ التفسير القرآني للقرآن: ٥١٧ / ٢

٢ محمد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٨هـ): تفسير الشعراوي - الحواطر: مطابع أخبار اليوم: ١٩٩٧م:

١٥٩٨، ١٥٩٧ / ٣

٣ الليل: ٥ - ١٢

٤ يطر: الصف: ٧، الجمعة: ٥

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ "فإن لعنة الله هي الإبعاد من الجنة وإنزال العقوبة، واللعنة من الملائكة والناس هي بالقول وكل ذلك مستحق لهم بسبب كفرهم، فصلاح أن يكون جزاء لذلك وجميع الخلق يلعنون المبطل والكافر ولكنه يعتقد في ذلك أنه ليس بمبطل ولا بكافر فإذا لعن الكافر وهو في علم الله كافر فقد لعن نفسه وإن كان لا يعلم ذلك." ^١ "وإنهم بمعزل من رحمة الله.. تحيط بهم لعنة الله ولعنة ملائكته، ولعنة الناس أجمعين: المؤمنين منهم وغير المؤمنين.. أما المؤمنون فلأنهم من حزب الله، يحاربون من حارب الله، ويلعنون من يلعنه الله.. وأما غير المؤمنين فلأنهم على خلاف مع هؤلاء القوم الظالمين.. لهم ظلم غير ظلمهم، ودين غير دينهم." ^٢ ولعل استخدام اسم الإشارة البعيد يزيد الإحساس بإبعادهم عن رحمة الله، والجملة الاسمية تفيد الاستمرار والدوام في اللعنة، والله أعلم. وقد ورد في سورة البقرة أن اللعنة على أهل الكتاب بسبب جريمة كتمان الحق بعد نزول البينات والهدى **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾** ^٣

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي اللعة فلا تزال تلعنهم الملائكة والمؤمنون ومن معهم في النار فلا يخلو شيء من أحوالهم من أن يلعنهم لاعتن من هؤلاء" ^٤، **﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾** "أي لا يعتر عنهم العذاب ساعة ولا لحظة، لا بإزالته أو إزالة بعض شدته، **﴿وَلَا هُمْ يُنْتَظَرُونَ﴾** أي

- ١ محمد بن عمر بنوي الحاروي البستي إقليم، التناري لهذا (المتوفى: ١٣١٦هـ)، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، المحقق: محمد أمين الصاوي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٧ هـ، ١/ ١٣٩، ويظهر: المخرر الوجيز: ٤٦٨ / ١
- ٢ التفسير القرآني للقرآن: ٥١٧ / ٢
- ٣ البقرة: ١٥٩
- ٤ مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: ١/ ١٣٩ ويظهر: تفسير الخلالين: ص ٧٨

يمهلون، لأن زمن الإمهال قد مضى، وقد أعذر الله منهم وعمرهم ما يتذكر فيه من تذكر، فلو كان فيهم خير لوجد، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه"، وضمير **(هَمْ)** يفيد التوكيد والتخصيص.

تبرز هذه الآيات جزاء أهل الكتاب في الدنيا وهي حياة ملعونة بسبب الحرمان من الهدى والرشد، وطردهم من رحمة الله ﷻ. قد اكتسب أهل الكتاب هذا الحرمان بأيديهم كما قال تعالى **(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا)**^١.

ثانياً: اللعنة والعداوة فيما بينهم

من جزاء أهل الكتاب في الدنيا اللعنة بما كسبت أيديهم، والعداوة فيما بينهم، كما قال تعالى **(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)** **﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾**^٢ وقوله تعالى **(لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ)**^٣. وأشار الله عز وجل إلى هذا الجزاء لأهل الكتاب في الدنيا قائلاً **(وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا**

١. عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المفتون: ١٣٧٦هـ) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،

المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويع، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ص ١٣٧

٢. النساء ١٥٥

٣. النساء ١٣، ١٤

٤. الحشر. ١٤

نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ^١
 موضّحت الآية الكريمة كيف أنّ الله عزوجل عاقب أهل الكتاب فألقى بينهم العدواة
 والبغضاء وأفشلهم في جميع مخططاتهم لمحاربة دعوة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام ونصر
 الله نبيه وعباده الصالحين عبر التاريخ.

ولنتقل الآن الى دراسة هذه الآية دراسة بلاغية لتتضح هذه المعاني بصورة واضحة.

من بلاغة النظم القرآني:

في جملة ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾^٢ المراد بـ
 ﴿مَغْلُولَةٌ﴾ "ممسكة منقبضة عن العطاء"^٣ و"غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود. كما
 قال تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾^٤ والسبب فيه أن اليد
 آلة لأكثر الأعمال لا سيما لدفع المال ولإنفاقه، فأطلقوا اسم السبب على المسبب، وأسندوا
 الجود والبخل إلى اليد والبنان والكف والأنامل. فقليل للجواد: فياض الكف مبسوط اليد،
 وبسط البنان تره الأنامل. ويقال للبخل: كثر الأصابع مقبوض الكف جعد الأنامل.^٥

أشار الزمخشري إلى نكتة قائلا "فإن قلت: قد صح أن قولهم ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ عبارة
 عن البخل. فما تصنع بقوله ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾؟ ومن حقه أن يطابق ما تقدمه وإلا تنافر
 الكلام وزل عن سننه؟ قلت: يجوز أن يكون معناه الدعاء عليهم بالبخل والنكد، ومن ثم

١ المائدة: ٦٤

٢ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، تذكرة الأريب في تسمير العرب
 (غريب القرآن الكريم)، تحقيق: طارق فتحي السبد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢٥ هـ -

٢٠٠٤ م: ص ٨٤

٣ الإسراء: ٢٩

٤ التفسير الكبير. ١٢/ ٣٩٤، ويطر: الكشف: ١/ ٦٥٤

كانوا أبجل خلق الله وأنكدهم^١. "لعنهم الله في هذه المقالة التجسيم، وكذلك يعطي كثير من أقوالهم، وقوله تعالى: **﴿عُلِّتْ أَيْدِيهِمْ﴾** دعاء عليهم، ويحتمل أن يكون خبراً، ويصح على كلا الاحتمالين أن يكون ذلك في الدنيا وأن يراد به الآخرة، وإذا كان خبراً عن الدنيا فالمعنى غلت أيديهم عن الخير والإنفاق في سبيل الله ونحوه وإذا كان خبراً عن الآخرة فالمعنى غلت في نار جهنم^٢.

وفي جملة **﴿عُلِّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾** حذف العطف وإن كان مصمراً إلا أنه حذف لعائدة، وهي أنه لما حذف كان قوله غلت أيديهم كالكلام المبتدأ به، وكون الكلام مبتدأ به يريده قوة ووثاقة لأن الابتداء بالشيء يدل على شدة الاهتمام به وقوة الاعتناء بتقريره^٣. ولعل استخدام الفعل الماضي في **﴿عُلِّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا﴾** تفيد الإثبات والتحقيق في الخبر.

والمتدبر في القرآن الكريم يرى أن اليد تُثَبِّت في قوله تعالى **﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾** وهي مفردة في **﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾**، فما هو السرّ البلاغي؟ قال الزمخشري: "ليكون ردّ قولهم وإنكاره أبلغ وأدل على إثبات غاية السخاء له ونفى البخل عنه. وذلك أنّ غاية ما يبذله السحي بماله من نفسه أن يعطيه بيديه جميعاً فبنى المجاز على ذلك^٤".

ولعل الفعل المضارع في جملة **﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾** يفيد الاستمرار، وهذا تأكيد للوصف بالسخاء ودلالة على أنه لا ينفق إلا على مقتضى الحكمة **﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾** من اليهود **﴿مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾** أي يزدادون عند نزول القرآن لحسد

١ الكشاف: ٦٥٥ / ١

٢ المهرر الوحير: ٢١٥ / ٢

٣ التفسير الكبير: ٣٩٤ / ١٢

٤ الكشاف: ٦٥٦ / ١

تمادياً في الجحود وكفراً بآيات الله وهذا من إضافة الفعل إلى السبب^١، كما قال تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾^٢.

"وقوله تعالى ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ معطوف على قوله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ فهي قصص يعطف بعضها على بعض، ﴿وَالْعَدَاوَةَ﴾ أخص من ﴿الْبَغْضَاءَ﴾ لأن كل عدو فهو يبغض وقد يبغض من ليس بعدو، وكأن العداوة شيء مشتهر يكون عنه عمل وحرب، والبغضاء قد لا تجاوز النفوس، وقد ألقى الله الأمرين على بني إسرائيل، وقوله تعالى ﴿كُلُّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ استعارة بليغة تنبئ عن فض جوعهم وتشتيت آرائهم وتفريق كلمتهم، والآية تحتل أن تكون إخباراً عن حال أسلافهم أي منذ عصوا وعتوا وهد الله ملكهم رماهم بهذه الأمور، فهم لا ترتفع لهم راية إلى يوم القيامة ولا يقاتلون جميعاً إلا في قرى محصنة^٣، "كلما أرادوا محاربة أحد غلبوا وقهروا ولم يقم لهم نصر من الله على أحد قط، ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ ويجتهدون في الكيد للإسلام ومحو ذكر رسول الله ﷺ من كتبهم"^٤. ولكن قال ابن عاشور "تركيب ﴿أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ تمثيل، شبه به حال التهيؤ للحرب والاستعداد لها والحزامة في أمرها، بحال من يوقد النار لحاجة بها فتطفئ، ومن بداعة هذا التمثيل أنه صالح لأن يعتبر فيه جمعه وتفريقه، بأن يجعل تمثيلاً واحداً لحالة مجموعة أو تمثيلين لحالتين، وقبول التمثيل للتفريق أتم بلاغة. والمعنى أنهم لا يلتزم لهم أمر حرب ولا يستطيعون نكاية عدو، ولو حاربوا أو حوربوا انهزموا."^٥ كما قال تعالى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةُ أَيَّنَ مَا تُقِفُوا﴾^٦.

١ مدارك التنزيل ٤٥٩/١، وينظر: الكشاف: ٦٥٧/١

٢ التوبة. ١٢٥

٣ المحرر الوحي: ٢١٦/٢

٤ الكشاف ٦٥٧/١، وينظر: التفسير الكبير: ٣٩٨/١٢

٥ التحرير والتوير: ٢٥٢، ٢٥١/٦

٦ آل عمران: ١١٢

وفي جملة ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ "وضع المظهر مقام الضمير للتعليل وبيان كونهم راسخين في الإفساد"، ولعل مجيء اسم الجلالة يزيد الروعة في القلب وجاءت الجملة الاسمية للشبابة والدوام أيضاً فزادت المعنى، والله أعلم.

ثالثاً: عداوة من الله

من المعاذير التي كان أهل الكتاب يبررون بها إنكارهم دعوة سيدنا محمد ﷺ هو ذات سيدنا جبريل ﷺ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنه عدوهم -معاذ الله- ، فأنزل الله ﷻ هاتين الآيتين اللتين تعلنان أن من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو لهم، وهذه حملة عنيفة وضربة قاطعة على عقائدهم الباطلة ودليل خسرانهم في الدنيا والآخرة ، فلا ملجأ ولا منجاة من الله إلا إليه فكيف لهم أن يواجهوا العداوة من الله عز وجل؟

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾^١

أمر الله ﷻ سيدنا محمد أن يخبر هؤلاء اليهود والنصارى -الذين يزعمون أنهم يكفرون بدعوتك لأن وليك جبريل ﷺ- وهو عدو لهم حسب ظنهم- أن جبريل ﷺ هو الذي نزل بالقرآن على قلبك بأمر الله ﷻ كما قال تعالى في سورة النحل ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾^٢ ولقب سيدنا جبريل ﷺ بالروح الأمين فقال ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ

١ تفسير أبي السعود، ٥٨ / ٣

٢ البقرة ٩٧، ٩٨

٣ النحل: ١٠٢

عَلَّمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ^١، ثم أعلن الله ﷻ أنهم بقولهم ذلك يعادون الله ﷻ في الحقيقة؛ لأن جبريل رسول ربه المتعال. "أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً على أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم."^٢ تشير هاتان الآيتان إلى جهل أهل الكتاب وحققتهم لأنهم فقدوا العقل وغالوا في حقدهم وبغضهم وحسدهم للمسلمين وجاءوا بالأدلة التي لا أساس لها، فجزأهم الله عداوة منه في جميع أمور حياتهم في الدنيا.

ولنعرج الآن إلى استنباط الألوان البلاغية من الآية.

من بلاغة النظم القرآني:

"وفي أمر الرسول ﷺ بلفظ **(قُلْ)** كي يرد على اليهود، تثبيت له، وتطمين لنفسه وتوبيخ لهم على معاداتهم لأمين الوحي، وهو جبريل ﷺ. **(مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ)** "شرط عام مراد به خاص وهم اليهود. قصد الإتيان بالشمول ليعلموا أن الله لا يعابهم ولا يغيرهم من يعادي جبريل إن كان له معاد آخر."^٣ وجبريل ﷺ ملك ذو شأن خاص كما روي **{عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ لجبريل: وددت أني رأيتك في صورتك قال: وتحب ذلك؟ قال: نعم قال: موعدك كذا وكذا من الليل يقيع الفرقد فلقبه رسول الله ﷺ مواعده فنشر جناحا من أجنحته فسد أفق السماء حتى ما يرى من السماء شيء}.**

١ الشعراء: ١٩٢-١٩٧

٢ تفسير الطبري: ٣٧٧ / ٢

٣ التفسير الوسيط للطنطاوي: ٢١٨ / ١

٤ التحرير والتوير: ٦٢١ / ١

٥ أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حبان الأنصاري المعروف بأبي الشيخ الأصمعي، العطمة، تحقيق رضاء

الله بن محمد إدريس المراكموري، دار العاصمة - الرياض، ط أولى، ١٤٠٨، ٧٧١ / ٢

وقال رسول الله ﷺ رأيت جبريل مهبطاً قد ملأ ما بين الخافقين عليه ثياب سندس معلق بها اللؤلؤ والياقوت^١.

"قوله ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾ حزاء للشرط وفيه وجهان: أحدهما إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته حيث نزل كتاباً مصداقاً للكتب بين يديه، فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم ويصحح المنزل عليهم. والثاني: إن عاداه أحد فالسبب في عداوته أنه نزل عليك القرآن مصداقاً لكتابهم وموافقاً له، وهم كارهون للقرآن ولموافقته لكتابهم، ولذلك كانوا يحرفونه ويحددون موافقته له^٢، "والإتيان بحرف التوكيد في قوله ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ لأهم مسكرون ذلك. والقلب هنا بمعنى النفس وما به الحفظ والفهم، والعرب تطلق القلب على هذا الأمر المعنوي نحو ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾^٣ كما يطلقونه أيضاً على العضو الباطني الصنوبري^٤."

﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بعلمه وتمكينه إياه من هذه المنزلة، وإظهار اسم الجلالة يزيد شأن جبريل ﷺ أنه ما نزل بالقرآن من تلقاء نفسه بل هو مأمور من الله ﷻ. وفي جملة ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ﴿مُصَدِّقًا﴾ "حال من الضمير المنصوب في نزله أي القرآن الذي هو سبب عداوة اليهود لجبريل أي أنزله مقارناً لحالة لا توجب عداوتهم إياه لأنه أنزله مصداقاً لما بين يديه من الكتب وذلك التوراة والإنجيل. والمراد بما ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ما سبقه وهو كناية عن السبق لأن السابق يجيء قبل المسبوق^٥."

١ المرجع نفسه، ٧٦٨/٢، وبظر: عبد الرحمن بن أبي نكر، حلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الدر المنثور في

التفسير للمأثور، دار الفكر - بيروت ١/ ٢٢٧

٢ الكشف. ١/ ١٧٠

٣ ق: ٣٧

٤ التحرير والتبوير: ١/ ٦٢٢

٥ بظر: المحرر الوحيد: ١/ ١٨٤

٦ التحرير والتبوير: ١/ ٦٢٢

رأت الباحثة أن الله ﷻ وصف القرآن الكريم بهدى وبشرى في جملة **﴿وَهْدَىٰ وَبَشَرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾** فما سبب الإتيان به هاتين الصفتين هنا؟ وما السر في ترتيبهما في التقديم والتأخير؟ ولماذا خص المؤمنين بـ **﴿بَشَرَى﴾**؟ قد وجدت الجواب عند الإمام الرازي؛ فهو يقول: "هدى فالمراد به أن القرآن مشتمل على أمرين. أحدهما: بيان ما وقع التكليف به من أعمال القلوب وأعمال الجوارح وهو من هذا الوجه هدى. وثانيهما: بيان أن الآتي بتلك الأعمال كيف يكون ثوابه وهو من هذا الوجه بشرى، ولما كان الأول مقدما على الثاني في الوجود لا جرم قدم الله لفظ الهدى على لفظ البشرى، فإن قيل: ولم خص كونه هدى وبشرى للمؤمنين مع أنه كذلك بالنسبة إلى الكل؟ الجواب من وجهين: الأول: أنه تعالى إنما خصهم بذلك، لأنهم هم الذين اعتدوا بالكتاب فهو كقوله تعالى: هدى للمتقين. والثاني: أنه لا يكون بشرى إلا للمؤمنين، وذلك لأن البشرى عبارة عن الخير الدال على حصول الخير العظيم وهذا لا يحصل إلا في حق المؤمنين، فلهذا خصهم الله به."^١

رأى ابن عاشور أن "الهدى وصف للقرآن بالمصدر لقصد المبالغة في حصول الهدى به. والبشرى الإخبار بحصول أمر سار أو بترقب حصوله فالقرآن بشر للمؤمنين بأنهم على هدى وكمال ورضى من الله تعالى وبشرهم بأن الله سيؤتيهم خير الدنيا وحيث الآخرة. فقد حصل من الأوصاف الخمسة للقرآن وهي أنه منزل من عند الله بإذن الله، وبأنه منزل على قلب الرسول، وأنه مصدق لما سبقه من الكتب، وأنه هاد أبلغ هدى، وأنه بشرى للمؤمنين."^٢ ولعل تنكير **﴿هُدَى﴾** و **﴿بَشَرَى﴾** تدل على تفخيمهما، والله أعلم

جملة **﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾** شرط، وجملة **﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾** جواب الشرط، وقال الإمام الطبري: "إن الله أنزل هذه الآية توبيخا لليهود

١ التفسير الكبير: ٦١٣ / ٣

٢ التحرير والتوير ٦٢٢ / ١

في كفرهم بمحمد ﷺ، وإخبارا منه لهم أن من كان عدوا لمحمد فالله له عدو.^١ وهذا وعيد وذم لمعادي جبريل ﷺ، وإعلام أن عداوة البعض تقتضي عداوة الله لهم، وعداوة العبد لله هي معصيته واجتناب طاعته ومعاداة أوليائه، وعداوة الله للعبد تعذيبه وإظهار أثر العداوة عليه، وذكر جبريل وميكائيل وقد كان ذكر الملائكة عنهما تشريفا لهما.^٢ والسؤال أن لماذا استخدم اسم الجلالة في جملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ وهذا تكرار في الجملة نفسها ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ ؟ فقال الإمام الطبري: "وأما إظهار اسم الله في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾، وتكريره فيه - وقد ابتداء أول الخبر بذكره فقال: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ﴾ - فلتلا يلتبس لو ظهر ذلك بكناية، فقليل "فإنه عدو للكافرين"، على سامعه، من المعنى بـ "الهاء" التي في "فإنه": أالله، أم رسل الله جل ثناؤه، أم جبريل، أم ميكائيل؟ إذ لو جاء ذلك بكناية على ما وصفت، فإنه يلتبس معنى ذلك على من لم يوقف على المعنى بذلك.^٣" والمراد بالكافرين جميع الكافرين وجميع الكافرين وجميع الكافرين وجميع الكافرين وجميع الكافرين وجميع الكافرين وليدل على أن الله عاداهم لكفرهم، وأن تلك العداوة كفر، ولتكون الجملة تذيلا لما قبلها.^٤ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ "الجملة اسمية لزيادة التقييح، لأنها تفيد الثبات. وأقام الظاهر مقام المضمر لبيان صفة الكفر وهو عداوتهم للملائكة".^٥

رابعاً: العذاب بأيدي المسلمين

كان أهل الكتاب أشد عداوة لدعوة سيدنا محمد ﷺ، واستمروا عليها بطرق مختلفة نحو نقص الميثاق، والكيد والخيانة، والحرب حتى عدّهم الله بأيدي المسلمين، ونقض ظهورهم

١ تفسير الطبري: ٢ / ٣٩٥

٢ المحرر الوحي: ١ / ١٨٤

٣ تفسير الطبري: ٢ / ٣٩٦ ويطر الكشاف ١ / ١٧٠

٤ التحرير والتوير ١ / ٦٢٤

٥ التفسير الميز ١ / ٢٣٣

وطهر أرض المدينة من وجودهم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوا وَظَنُّوا أَنَّهْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ۝١ وأمر المسلمين لقتالهم فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ٢ وأعلن الله ﷻ أن أهل الكتاب ليلون الأدبار عند القتال مع المسلمين وضربت عليهم الذلة والمسكنة لأن الله ﷻ قضى عليهم العذاب في الدنيا أيضاً؛ فقال ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ الْأَذْيَارُ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝٣ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحُبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَأْوَ يَعْصِبِ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ٤ وعلى سبيل المثال ندرس الآية التالية دراسة بلاغية:

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٥ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ ٥

من بلاغة النظم القرآني:

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي وأنزل الله ﷻ ﴿ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي عاونوا الأحزاب ١، ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ استخدام ﴿صَيَاصِيهِمْ﴾ لخصومهم؛ فهل هناك سر بلاغي؟ لأن

١ الحشر: ٢

٢ التوبة: ٢٩

٣ آل عمران: ١١١ / ١١٢

٤ الأحزاب: ٢٦، ٢٧

٥ الدر المصون: ٩ / ١١٣

"كل ما يتحصن به يقال له صيصة، وبهذا النظر قبل لقرن البقر صيصة وللشوكة التي يقاتل بها الديك صيصة."^١ فيرى قارئ القرآن أن الله ﷻ قد جعلهم مغلوبين إلى النهاية، فما كان لهم أن يقاتلوا حشد المسلمين بأي طريق، فهؤلاء الدين كانوا يحاولون محق دعوة سيدنا محمد ﷺ فلذلك ظاهروا أهل الشرك على النبي ﷺ وصاروا دون كل سلاح أن يحفظوا أنفسهم وأسرهم وأموالهم من أيدي المسلمين، والله أعلم.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ "حتى سلموا أنفسهم للقتل وأولادهم ونساءهم للسي فريقا تقتلون وهم الرجال، وتأسرون فريقا وهم الصبيان والنسوان"^٢ وهنا سؤال لماذا قدم **﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾** على قذف الرعب والخوف على الإنزال؟ فيجيب البقاعي: "لما كان الإنزال من محل التمتع عجباً، وكان على وجوه شتى، فلم يكن صريحاً في الإذلال، فتشوفت النفس إلى بيان حاله، بين أنه الذل فقال عاطفاً بالواو ليصلح لما قبل ولما بعد: **﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾** أي بعد الإنزال كما كان قذفه قبل الإنزال، فلو قدم القذف على الإنزال لما أفاد هذه الفوائد، ولا اشتدت ملائمة ما بعده للإنزال."^٣

رأت الباحثة أن في جملة **﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾** تقديم المفعول مرة وتأخيرته بعد ذلك فهل هناك فائدة بلاغية؟ فوجدت الجواب عند الإمام الرازي وهو يقول: "والذي يظهر من هذا - والله أعلم - أن القائل يبدأ بالأهم فالأهم والأعرف فالأعرف والأقرب فالأقرب، والرجال كانوا مشهورين، فكان القتل وارداً عليهم والأسرى كانوا هم النساء والصغار ولم يكونوا مشهورين، والسي والأسر أظهر من القتل؛ لأنه يبقى فيظهر لكل أحد أنه أسير فقدم من المحلين ما هو أشهر على الفعل القائم به وما هو أشهر من الفعلين قدمه على المحل الأخصي"^٤، وقوله **﴿وَأَوْزَتْكُمْ﴾** "استعارة من حيث حصل ذلك لهم بعد موت الآخرين من

١ نظم الدرر: ١٥ / ٣٣٣

٢ المعرديات في عريب القرآن: كتاب الصاد: تحت مادة صيص، ص ٣٠٢

٣ التفسير الكبير: ٢٥ / ١٦٤

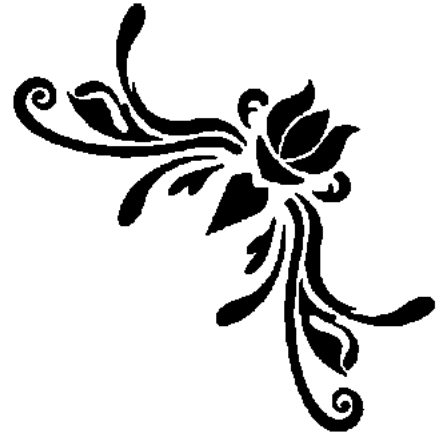
٤ نظم الدرر: ١٥ / ٣٣٣

٥ التفسير الكبير: ٢٥ / ١٦٤ ويطر: فتح القدير: ٤ / ٣١٦

قبلهم." ^١ والاستعارة "تعطيك الكثير من المعاني باليسير من الألفاظ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدد من الدرر، وتجنّي من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر." ^٢ قال العلامة الألوسي إن "في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوْرَثَكُمْ﴾ إشعار بأنه انتقل إليهم ذلك بعد موت أولئك المقتولين." ^٣ وانظروا إلى جمال الترتيب في الآية ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ فقال صاحب غرائب القرآن "﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ التي استوليت عليها ونزلتم فيها أولاً ﴿وَدِيَارَهُمْ﴾ التي كانت في القلاع فسلموها إليكم ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ التي كانت في تلك الديار." ^٤ وهناك خلاف في تعيين معنى ﴿وَأَرْضاً لَمْ تَطَّوْهَا﴾ وقال ابن عاشور: "عندي: أن المراد بالأرض التي لم يطَّوَّها أرض بني النضير وأن معنى لم تطَّوَّها لم تفتحوها عنوة، فإن الوطاء يطلق على معنى الأخذ الشديد، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾" ^٥ ، فإن أرض بني النضير كانت مما أفاء الله على رسوله من غير إيجاب. ^٦ ولكن القول الراجح عند كثير من المفسرين أنه "هو ما يظهر عليه المسلمون إلى يوم القيامة" ^٧.

وحمل ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ تذييل فيه البشارة بفتح عظيم يأتي من بعده ^٨. بعد دراسة الآيات المختارة عن حراء أهل الكتاب في الدنيا دراسة بلاعية وصلت الساحة إلى أن أهل الكتاب عندما أنكروا قول دعوة سيدنا محمد ﷺ بسبب حالتهم الفكرية والعملية التي أشرت إليها خلال هذا المبحث فإن الله عز وجل عاقبهم في الدنيا بأنهم كسبوا الحرمان من الرشد واللعة وعداوة من الله ﷻ والعداوة فيما بينهم ، وعدّهم الله ﷻ في الدنيا بأيدي المسلمين.

- ١ المحرر الوحي: ٤ / ٣٨٠
- ٢ أسرار البلاغة: ص ٤٣
- ٣ روح المعاني: ١١ / ١٧٦
- ٤ نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي البسابوري (المتوفى: ٨٥٠هـ)، غرائب القرآن وרגائب الفرقان (تفسير البسابوري)، المحقق: الشيخ ركريا عميرات، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٦ هـ، ٥ / ٤٥٧
- ٥ الفتح: ٢٥
- ٦ التحرير والتنوير: ٢١ / ٣١٣
- ٧ تذكرة الأريب في تفسير العريب. ص ٣٠٠
- ٨ يطر: التحرير والتنوير ٢١ / ٣١٣



المبحث الثاني:

من بلاغة النظم القرآني في بيان جزاء أهل الكتاب في الآخرة



المدخل:

حاولت الباحثة أن تبين جزء أهل الكتاب في الدنيا قبل قليل في المبحث الأول، وفي هذا المبحث سوف تتناول الحديث عن جزء أهل الكتاب في الآخرة من خلال الآيات المتعلقة بالموضوع وبما أن هذه الآيات كثيرة جداً فقد رأت الباحثة أن تقسمها إلى أربعة أقسام كالآتي:

• حبط الأعمال

• الويل

• الخلود في النار

• الإهانة والعذاب الأليم

ولنبداً بالدراسة التفصيلية لهذه الأقسام.

أولاً: حبط الأعمال

من جزء أهل الكتاب أنه لا قيمة لأعمالهم التي يزعمون أنها صالحة في الدنيا والآخرة، ولا يقيم الله لهم وزناً يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ * أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين، والأعمال هي أثنى شيء في سوق الآخرة؛ فترى بعين الإحساس أنهم فقراء يوم القيامة - يفرون لكي ينجوا من عذاب أليم - فلا يجدون أي سبيل للنجاة، ولا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ * مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ

رِيحٌ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكْنَاهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ^١

يخبر الله ﷻ عن أهل الكتاب أنه لن تفيدهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله ﷻ، بل هم أصحاب النار ويقيمون فيها أبداً، ويرون يوم القيامة أنَّ ما ينفقونه في الدنيا من أموال لا يستفيدون منها شيئاً، ثم مثلهم الله ﷻ كمن زرع زرعاً يرجو منفعة، لكن دمر زرعهُ بسبب ريح قاصف شديدة البرودة، فلم يستفد سوى التّصب والتّحسّر، ولم يظلمهم الله ﷻ بإحباطه لأعمالهم، بل هم ظلموا أنفسهم بأيديهم بسبب كفرهم وحرصهم على إطفاء نور الله ﷻ. قال ابن عباس في جملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ "يريد قريظة والنضير، وذلك لأن مقصود رؤساء اليهود في معاندة الرسول ما كان إلا المال، والدليل عليه قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمناً قليلاً﴾^٢ والقول الثاني: أن الآية عامة في حق جميع الكفار، وذلك لأنهم كلهم كانوا يتعززون بكثرة الأموال، وكانوا يعيرون الرسول ﷺ وأتباعه بالفقر، وكان من جملة شههم أن قالوا: لو كان محمد على الحق لما تركه ربه في هذا الفقر والشدة.^٣ وقال الإمام الطبري: "هذا وعيد من الله عز وجل للأمة الأخرى الفاسقة من أهل الكتاب، الذين أخبر عنهم (بأنهم فاسقون)"، وأنهم قد باؤوا بغضب منه، ولمن كان من نظرائهم من أهل الكفر بالله ورسوله وما جاء به محمد ﷺ من عند الله.^٤ وتشعر الباحثة بأن الآية تشمل جميع الكفار، ولكن يمكن تخصيص أهل الكتاب بحسب سياق الآية أيضاً، والله أعلم بالصواب، ولنخرج الآن إلى دراسة الآية الكريمة دراسة بلاغية.

١ السورة بمسها. ١١٦، ١١٧

٢ البقرة. ٤١

٣ التفسير الكبير: ٨ / ٣٣٥، ٣٣٦

٤ بطر. آل عمران: ١١٠

٥ تفسير الطبري: ٧ / ١٣٣

من بلاغة النظم القرآني:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بداية الجملة بالتوكيد ﴿إِنَّ﴾ يزيد في قوة الكلام التي جاء بعده وهو ﴿لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ التقدير لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله فحذف المضاف 'عذاب' لدلالة الكلام عليه و'من' بمعنى عند، والمعنى (لن تعني عند الله شيئا) "قد يظهر أن القول الأول أقرب إلى المراد، ولعل الفعل المضارع يعيد الاستمرار في عدم الغنا من الله ﷻ، ويصور أمام القارئ حالة عدم الغنا في يوم القيامة، والله أعلم. "وحص الله تعالى (الأموال والأولاد) بالذكر لوحوه. منها أنها زينة الحياة الدنيا، وعظم ما تجري إليه الآمال، ومنها أنها ألصق النصرة بالإنسان وأيسرها، ومنها أن الكفار يفحرون بالآخرة لا همة لهم إلا فيها هي عندهم عاية المرء وبها كانوا يفحرون على المؤمنين، فذكر الله أن هذين اللذين هما بهذه الأوصاف لا غناء فيهما من عقاب الله في الآخرة، فإذا لم تع هذه فعيها من الأمور المعيدة أخرى أن لا يعني. " وقال الإمام الرازي "إنما حص تعالى الأموال والأولاد بالذكر لأن أنفع الجمادات هو الأموال وأنفع الحيوانات هو الولد، ثم بين تعالى أن الكافر لا ينتفع بهما ألبتة في الآخرة، وذلك يدل على عدم انتفاعه بسائر الأشياء بطريق الأولى. " ونظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ وقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يَغْفَلَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾

عندما يتأمل المتأمل في هذه الآية تتبادر إلى ذهنه الأسئلة الآتية:

١ التفسير الكبير: ٧ / ١٥٣

٢ المحرر الوحي: ١ / ٤٩٤

٣ التفسير الكبير: ٨ / ٣٣٦

٤ الشعراء: ٨٨، ٨٩

٥ آل عمران: ٩١

لماذا كرر حرف النفي في الآية؟ ﴿لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ ، وماذا يتعلق به من الابتدائية؟ ولماذا جاء شيئاً نكرة؟ وهل هناك سرّ بلاغي في إيراد اسم الإشارة البعيد هنا؟ ولماذا جاء ضمير الفصل؟ وهل هناك سرّ بلاغي في عطف جملة ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ على ﴿لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾؟ فقد أجاب ابن عاشور إجابة شافية بقوله "كرر حرف النفي مع المعطوف في قوله ولا أولادهم لتأكيد عدم غناء أولادهم عنهم لدفع توهم ما هو متعارف من أن الأولاد لا يقعدون عن الذب عن آبائهم. ويتعلق ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ بفعل ﴿لَنْ تُغْنِي﴾ على معنى "من" الابتدائية أي غناء يصدر من جانب الله بالعفو عن كفرهم. وانتصب ﴿شَيْئاً﴾ على المفعول المطلق لفعل لن تغني أي شيئاً من غناء. وتنكير شيئاً للتقليل. وجملة ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ عطف على جملة ﴿لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ وجيء بالجملة معطوفة، على خلاف الغالب في أمثالها أن يكون بدون عطف، لقصد أن تكون الجملة منصبا عليها التأكيد بحرف ﴿إِنَّ﴾ فيكمل لها من أدلة تحقيق مضمونها حمسة أدلة هي: التوكيد بـ ﴿إِنَّ﴾، وموقع اسم الإشارة، والإخبار عنهم بأنهم أصحاب النار، وضمير الفصل، ووصف خالدون"، قال الطبطبائي "جملة ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ تدبيل قصد به بيان سوء عاقبتهم، وما أعد لهم من عذاب شديد".^١

ورد تركيب ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ عشرين مرة في الكتاب العزيز.^٢ فهل هناك سرّ بلاغي في استخدام هذا التركيب عدة مرات؟ قال ابن عطية "إضافة تخصيص ماء، تقتضي ثبوت ذلك لهم ودوامه". وقال الإمام الرازي: "كلمة ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ تفيد الحصر فإنه يقال:

١ التحرير والتنوير ٦٠ / ٤

٢ محمد سيد ططاوي: التفسير الوسيط للقرآن الكريم. دار محصة مصر للطباعة والشر والتوزيع، القاهرة: ط ١ / ٢ / ٢٣١

٣ يطر: النقرة: ٣٩، ٨١، ٢١٧، ٢٥٧، ٢٧٥، آل عمران: ١١٦، للمائدة: ٢٩، الأعراف: ٣٦، ٤٤، ٤٧، ٥٠،

يونس: ٢٧، الرعد: ٥، الرمر: ٨، عامر: ٦، ٤٣، المجادلة: ١٧، الحشر: ٢٠، التعاين: ١٠، للدثر: ٣١

٤ المخرر الوحي: ١ / ٤٩٤

أولئك أصحاب زيد لا غيرهم وهم المنتفعون به لا غيرهم ولما أفادت هذه الكلمة معنى الحصر ثبت أن الخلود في النار ليس إلا للكافر.^١

ورأت الباحثة أن في بداية السورة نفسها وردت الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ وقال المفسرون إن المراد بـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أهل الكتاب.^٢ وقال الإمام الرازي في تفسيره ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ "وهذه هي النهاية في شرح العذاب فإنه لا عذاب أزيد من أن تشتعل النار فيهم كاشتعالها في الحطب اليابس، والوقود بفتح الواو الحطب الذي توقد به النار، وبالضم هو مصدر وقدت النار وقودا كقوله: وردت ورودا."^٣

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ شبه ما كانوا ينفقون من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الشاء وحسن الذكر بين الناس لا يتنفقون به وجه الله، بالزرع الذي حسه البرد فذهب حطاما. وقيل: هو ما كانوا يتقربون به إلى الله مع كفرهم. وقيل: ما أنفقوا في عداوة رسول الله ﷺ فضاع عنهم، لأنهم لم يبلغوا بإنفاقه ما أنفقوه لأجله. وشبه بـ ﴿حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ فأهلك عقوبة لهم على معاصيهم، لأنَّ الهلاك عن سخط أشدَّ وأبلغ. وهو من التشبيه المركب.^٤ وقال ابن عطية: "التشبيه بين شيئين وشيئين، ذكر الله عز وجل أحد الشيئين المشبهين وترك ذكر الآخر ثم ذكر أحد الشيئين المشبه بهما وليس الذي يوازي المذكور الأول، وترك ذكر الآخر، ودل المذكور على المتروكين، وهذه غاية البلاغة والإيجاز."^٥ وقال ابن عاشور: "ضرب لأعمالهم المتعلقة بالأموال مثلا، فشبه هيئة إنفاقهم المعجب ظاهرها، المحيب آخرها، حين يحبطها الكفر، بهيئة

١ التفسير الكبير ٣٣٦ / ٨

٢ آل عمران ١٠٠

٣ بطلر تفسير الطبري ٢٢٢ / ٦، الكشاف ٣٤٠ / ١

٤ التفسير الكبير ١٥٣ / ٧

٥ الكشاف ٤٠٥ / ١

٦ المحرر الوجيز ٤٩٥ / ١

زرع أصابته ريح باردة فأهلكته، تشبيه المعقول بالمحسوس. ولما كان التشبيه تمثيلاً لم يتوح فيه مبالاة ما شبه به إيقاعهم لأداة التمثيل، فقيل: كمثل ريح، ولم يقل: كمثل حرت قوم.^١

ومن الظواهر القرآنية أن كلمة "ريح" استخدمت مفرداً وجمعاً، وقد فرق القرآن الكريم بينهما بحيث "الريح معروف وهي فيما قيل الهواء المتحرك. وعامة المواضع التي ذكر الله ﷻ فيها إرسال الريح بلفظ الواحد فعارة عن العذاب وكل موضع ذكر فيه بلفظ الجمع فعارة عن الرحمة.^٢

ومعنى كلمة «صر» "البرد الشديد المميت لكل زرع أو ورق يهب عليه فيتركه كالمحترق، ولم يعرف في كلام العرب إطلاق الصر على الريح الشديد البرد وإنما الصر اسم البرد. وأما الصرصر فهو الريح الشديدة وقد تكون باردة. ومعنى الآية غني عن التأويل، وجوز في «الكشاف» أن يكون الصر هنا اسماً للريح الباردة وجعله مرادف الصرصر. وقد أقره الكاتبون عليه ولم يذكر هذا الإطلاق في الأساس ولا ذكره الراغب^٣، «فَأَهْلَكَتْهُ» فاء التعقيب تزيد روعة مشهد هلاك حرث قوم بأنهم ما وجدوا أي فرصة أو إهمال أن يحموا حرثهم. «وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ» "الضمير للمتفقين على معنى: وما ظلمهم الله بأن لم يقبل نفقاتهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بما مستحقة للقبول، أو لأصحاب الحرث الذين ظلموا أنفسهم، أي: وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم، ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة.^٤

يبين الله ﷻ أن حسنات الكفار لا تستحق الثواب كما قال تعالى في سورة المائدة

«إِنَّمَا يَنْتَقِلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ»^٥

١ التحرير والتبوير: ٦١ / ٤

٢ المفردات في غريب القرآن: كتاب الرأء تحت مادة روح: ص ٢١٣

٣ التحرير والتبوير: ٦١ / ٤

٤ الكشاف: ٤٠٥ / ١

٥ المائدة: ٢٧

ثانياً: الويل

من جزاء أهل الكتاب في الآخرة أن لهم ويل. قد وردت كلمة ﴿وَيْلٌ﴾ ١٤ مرة، وحاءت ﴿فَوَيْلٌ﴾ مرة واحدة في القرآن الكريم.^١ ومن هذه المواضع قوله تعالى ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَخْرَاءُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ^٢ وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا حَاءَ عِيسَىٰ بِالنَّبَاتِ قَالَ قَدْ حَفَّتْكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَالْأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَحْتَلِقُونَ بِهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَخْرَاءُ مِنْ تَبَيُّهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ^٣ رأت الساحنة أن الله ﷻ نועد أهل الكتاب أن لهم ويلًا بسبب كتمان الحق وتليبسه بالباطل؛ ودم الذين لا يهتمون ولا يعتنون بفهم كتاب الله ويتبعون أحبارهم دون تفكير، وأحمر الله ﷻ أن لأهل الكتاب ويلًا بما كانوا يحرفون كلام الله ﷻ ثم يقولون إنه من عند الله ﷻ؛ لأجل الحصول على مكاسب دنيوية، فلمهم عذاب شديد في الآخرة، فقال الله ﷻ ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَخْلُمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ^٤

١ بطر: مريم: ٣٧، ص: ٢٧، الرمر: ٢٢، الرحرف: ٦٥، الداربات: ٦٥، الطور: ١١، الماعون: ٤

٢ مريم: ٣٤ - ٣٧

٣ الرحرف: ٦٣ - ٦٥

٤ النقرة: ٧٩

تصور أمامنا هاتان الآيتان طائفتين من أهل الكتاب، وتبين جريمة كل طائفة على حدة، ثم تذكر جزاءهما في الآخرة في صورة تحذيرية وتحذيرية للمجرمين، ولنستنبط الألوان البلاغية من الآية.

من بلاغة النظم القرآني:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَخْلُمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾^١ عطف الحال على الحال ﴿وَمِنْهُمْ﴾ خبر مقدم وتقديمه للتشويق إلى المسند إليه، والمعنى كيف تطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم محرفين وفريق جهلة وإذا انتفى إيمان أهل العلم منهم المظنون بهم تطلب الحق المنجي والاهتداء إلى التفرقة بينه وبين الباطل فكانوا يحرفون الدين ويكابرون فيما يسمعون من معجزة القرآن في الإخبار عن أسرار دينهم فكيف تطمعون أيضا في إيمان الفريق الأميين الذين هم أبعد عن معرفة الحق، وألمى عن تطلبه، وأضل في التفرقة بين الحق والباطل، وأحذر بالاعتداء بأسمائهم وعلمائهم، وقد اشتهر اليهود عند العرب بوصف أهل الكتاب، فلدلك قيل هذا: ومهم أميون أي ليس جميعهم أهل كتاب. ولم تكن الأمية في العرب وصف دم لكنها عند اليهود وصف ذم.^٢ "والأُمِّي الذي لا يقرأ ولا يكتب، والأُمِّي التلاوة."^٣ وقال الزجاج: "معنى الأمي في اللغة المنسوب إلى ما عليه حيلة أمته، أي لا يكتب فهو في أنه لا يكتب - على ما ولد عليه، ومعنى ﴿إِلَّا أَمَانٍ﴾ قال الباس في معناه قولين قالوا معناه لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة كما قال عز وجل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾^٤ وقد قيل الأُمِّي أكاذيب العرب."^٥ قال صاحب

١ المقرة: ٧٥

٢ التحرير والتوير: ٥٧٣ / ١

٣ تذكرة الأريب في تفسير العرب: ص ١٩

٤ المحج ٥٢

الكشاف في شرح ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ "قيل إلا أكاذيب مختلفة سمعوها من علمائهم فتقبلوها على التقليد"^٢، كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿مَا لَكُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾^٣، "ويخرج به" "إلا" ما بعدها من معنى ما قبلها ومن صفته، وإن كان كل واحد منهما من غير شكل الآخر ومن غير نوعه. ويسمى ذلك بعض أهل العربية "استثناء منقطعاً"، لانقطاع الكلام الذي يأتي بعد "إلا" عن معنى ما قبلها. وإنما يكون ذلك كذلك، في كل موضع حسن أن يوضع فيه مكان 'إلا' 'لكن'؛ فيعلم حينئذ انقطاع معنى الثاني عن معنى الأول"^٤ ويزيد أسلوب الاستثناء إشعاراً بجهالة الأميين، ويصور أماناً غفلتهم عن تعليم الكتاب بأنفسهم.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ عطف على ﴿لَا يَتْلُمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ فيه تأكيد لنفي العلم عنهم. وهو "الاستثناء مفرغ والمستثنى محذوف أقيمت صفته مقامه، أي ما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن من غير أن يصلوا إلى مرتبة العلم - فأني يرجى منهم الإيمان المؤسس على قواعد اليقين - وقد يطلق الظن على ما يقابل العلم اليقيني عن دليل قاطع سواء قطع بغير دليل، أو بدليل غير صحيح أو لم يقطع، فلا ينافي نسبة الظن إليهم إن كانوا جازمين"^٥.

في قوله تعالى ﴿قَوْلًا لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ "الفاء للترتيب والتسبب فيكون ما بعدها مترتباً على ما قبلها والظاهر أن ما بعدها مترتب على قوله ﴿أَقْرَأْتُمْهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ

١ الرخاخ أبي إسحاق إبراهيم بن السري (ت-٣١١هـ) معاني القرآن وإعرابه: شرح وتحقيق. دكتور عبدالحلِيل عمده

شلي. عالم الكتب، بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م: ط ١: ١٥٩ / ١

٢ الكشاف ١٥٧ / ١

٣ النساء ١٥٧

٤ تفسير الطبري. ٢ / ٢٦٤

٥ بطل بطل الدرر ١ / ٤٩٢

٦ روح المعاني ١ / ٣٠٢

بَعْدَ مَا عَقِلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ^١ الدال على وقوع تحريف منهم عن عمد فرتب عليه الإخبار باستحقاقهم سوء الحالة، أو رتب عليه إنشاء استفظاع حالهم، وأعيد في حلال ذلك ما أجمل في الكلام المعطوف عليه إعادة تمصيل^٢.

وماذا يعني كلمة ويل؟ "فالويل في اللغة كلمة يستعملها كل واقع في هلكة وأصله في العذاب والهلاك."^٣ اختلف أهل التأويل في تأويل ﴿وَيْلٌ﴾ والقول الراجح: "هو شرب صديد أهل جهنم في أسفل الجحيم"^٤

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: أن إلى أي كتاب أشار الله ﷻ في قوله: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾؟ فيجيب ابن عطية: أن "الألف واللام في ﴿الْكِتَابَ﴾ للعهد، ويعني به التوراة"^٥، قد يأتي سؤال: لماذا ذكر أيديهم بعد كتابة الكتاب؟ فقال الزمخشري: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ "المحرّف ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيد، وهو من مجاز التأكيد، كما تقول لمن ينكر معرفة ما كتبه: يا هذا كتبه بيمينك هذه."^٦ وقال ابن عطية: "والذين ﴿يَكْتُبُونَ﴾ هم الأخبار الذين بدلوا التوراة. وقوله تعالى: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ بيان لجرمهم وإثبات لمجاهرتهم الله."^٧ وقال الطنطاوي: "صرح - سبحانه - بأن الكتابة ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ ليؤكد أنهم قد باشروها عن عمد وقصد، وليدفع توهم أنهم أمروا غيرهم بكتابتها، ولتصور حالتهم في النفوس كما وقعت، حتى ليكاد السامع لذلك أن يكون مشاهدا لهيئتهم."^٨ ورأت الباحثة أن هذه الآية مثل قوله تعالى عن أهل

١ النقرة. ٧٥

٢ التحرير والتوير. ٥٧٥ / ١

٣ معاني القرآن وإعرابه: ١ / ١٦٠

٤ تفسير الطبري: ٢ / ٢٦٩

٥ المهرر الوحي: ١ / ١٦٩

٦ الكشف: ١ / ١٥٧ - ١٥٨

٧ المهرر الوحي: ١ / ١٧٠

٨ التفسير الوسيط: ١ / ١٨٣، ويطر: الدر المصون: ١ / ٤٥١

الكتاب ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾^١، وقوله تعالى ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ "كشف عن كذبهم وفجورهم، فهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ثم يزعمون أنه من عند الله ليتقبله أتباعهم بقوة واطمئنان".^٢ والسؤال هل جاء كلمة "ثم" متراخياً كأن أحبار أهل الكتاب كتبوا الكتاب بأيديهم ثم مضى زمن فقالوا هذا من عند الله؟ فقال ابن عاشور: "ثم" للترتيب الزمني لأن هذا القول أدخل في استحقاقهم الويل من كتابة الكتاب بأيديهم إذ هو المقصود. وليس هذا القول متراحياً عن كتابتهم ما كتبوه في الزمان بل هما متقارنان".^٣

﴿لَيْسَتْزُوا بِهِ نَمَّا قَلِيلًا﴾ "وصفه بالقلّة لكونه فانيا لا تواب فيه، أو لكونه حراماً لا تحل به البركة". وهل المراد به (ثمن) مال أو شيء آخر؟ فيقول الرازي: "إنه يدل على أهم ما فعلوا ذلك التحريف ديانة بل إنما فعلوه طلباً للمال والجاه".^٤ ويرى ابن عاشور: "المقصود به (ثمن) هنا هو إرضاء العامة بأن عيروا لهم أحكام الدين على ما يوافق أهواءهم أو انتحال العلم لأنفسهم".^٥ تشمل كلمة (ثمن) كلا المعنيين؛ أي: المال وإرضاء العامة، والله أعلم. "وتناسق هذه الآية على التي قبلها يعطي أن هذا الكتب والتبديل إنما هو للاتباع الأميين الذين لا يعلمون إلا ما قرء لهم".^٦

هل هناك سرّ بلاغي في تكرار كلمة ويل؟ فقال أبو العباس الحلبي: "وإنما كرر «الويل» ليفيد أن الهلكة متعلقة بكل واحد من الفعلين على حدته لا بمجموع الأمرين، وإنما قدم

١ التوبة. ٣٠.

٢ التفسير الوسيط: ١٨٣ / ١

٣ التحرير والتوير. ٥٧٥ / ١، ٥٧٦

٤ فتح القدير للشوكاني: ١٢٣ / ١، ويطر: المحرر الوجيز: ١٧٠ / ١

٥ التفسير الكبير ٥٦٥ / ٣، ويطر- تفسير الطبري: ٢٧٠ / ٢، المحرر الوجيز: ١٧٠ / ١، تفسير البيضاوي: ٩٠ / ١

٦ التحرير والتوير: ٥٧٧ / ١

٧ المحرر الوجيز ١٧٠ / ١

قوله: «كتب «على» يكسبون» لأن الكتابة مقدمة فنتيجتها كسب المال، فالكتب سبب والكسب مسبب، فجاء النظم على هذا.^١ وقال الشوكاني: "وكرر الويل تعليطا عليهم وتعظيما لفعلهم وهتكاً لأستارهم."^٢ وكل هذا التفصيل يزيد الروعة والتهويل في قلب القارئ. ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ﴾ و﴿قَوْلٌ لَهُمْ﴾ و﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ﴾ جمل اسمية تدل على الثبوت والدوام، ولعل كلمة 'ويل' نكرت للتعظيم والتهويل. و﴿يَكْسِبُونَ﴾ "يريد به الرشى."^٣ وقيل: "من المعاصي"^٤ وقيل: "والذي يكسبونه هو ويل وعذاب."^٥ ويميل رأي الباحثة إلى أن كسب المعاصي يشمل الرشى والتحريف إلخ، والله أعلم. "إن قيل: لم ذكر ﴿يَكْسِبُونَ﴾ بلفظ المستقبل و﴿كُتِبَتْ﴾ بلفظ الماضي؟ قيل: تنبيها على ما قال النبي ﷺ {من سن سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة}."^٦ والسؤال هنا ما هو المراد بقوله تعالى: ﴿يَكْسِبُونَ﴾، وهل هنا سرٌ بلاغي في محيى هذا التركيب؟ لأن الكسب ما يتحرّاه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع وتحصيل حظ، ككسب المال، وهماك كسب وهناك اكتساب. كسب تأتي بالشيء النافع، واكتسب تأتي بالشيء الضار.^٧ "فلماذا تم هذا الاستخدام؟ نقول إن هذا ليس كسبا طبيعيا، إنما هو افتعال في الكسب. أي اكتساب."^٨ ومن الألوان البلاغية التي وحدثت في الآية الجمع والتقسيم؛ ففي قوله ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ

١ الدر المنصور ١/ ٤٥٣، ويطر - التفسير الكبير ٣/ ٥٦٥، و التحرير والتوير ١/ ٥٧٧، تفسير الشعراوي ١/ ٤٢١

٢ فتح القدير للشوكاني ١/ ١٢٣

٣ تفسير البصاوي ١/ ٩٠

٤ فتح القدير للشوكاني ١/ ١٢٣

٥ تفسير الشعراوي: ١/ ٤٢١

٦ المعجم الأوسط، الطبراني، ٣٨٤/ ٨، ح ٨٩٤٦

٧ محمد حماد الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ): تفسير القاسم حماد بن التاويل،

المحقق: محمد ناسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٨ هـ، ١/ ٣٣٩

٨ يطر المبررات في غريب القرآن. كتاب الكاف: تحت مادة كسب، ص ٤٤٩

٩ تفسير الشعراوي. ١/ ٤٢١

اللَّهُ لِيَسْتَرْوَا بِهِ عُنَّا قَلِيلًا ﴿٦﴾ جمع، وفي قوله ﴿قَوْلًا لَّهُمْ يَمَّا كَتَبْتَ أَيْدِيَهُمْ وَوَوَّلَ لَّهُمْ يَمَّا يَكْسِبُونَ﴾ تقسيم. واستخدام الفعل المضارع ﴿يَنْظُرُونَ﴾ و﴿يَكْتُبُونَ﴾ و﴿يَقُولُونَ﴾ و﴿يَكْسِبُونَ﴾ يصور أمامنا كيفية جهلهم واستمرار في جسهم على التحريف في كتاب الله ﷻ ثم نسبته إلى الله ﷻ، وكسب عرض الدنيا القليل.

تبين هذه الآيات قبح الجهل بأسماء الله الحسنى وبصفاته العلا من قبل الغيبين الذين لا حظ لهم من التوراة إلا القراءة الخالية عن التدبر المقرونة بالتمني، والتقليد الأعمى، واتباع الطن في الدين، والتحريف في كلام الله ﷻ مع العلم والاستيقان، وتصور أمام القارئ كيفية هلاك هؤلاء الجهلاء والمحرفين في الآخرة.

ثالثاً: الخلود في النار

من جزاء أهل الكتاب في الآخرة أنهم يبقون في النار دائماً كما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾^١ وترى الباحثة أن الكفار وأهل الكتاب مشتركون في عذاب الخلد في النار، كما في قوله تعالى ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾^٢ وهؤلاء هم الملازمون للنار، لا يخرجون منها أبداً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَحْمَسَ النَّارَ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخِذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ بلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^٣

١ البقرة ٦

٢ المائدة ٨٠

٣ البقرة ٨٠، ٨١

ذكر القرآن الكريم أفعالهم القبيحة (الجهل والتحريف) قبل هذه الآيات، ثم ذكر مع هذا أنهم يزكون أنفسهم، ويشهدون لها بالنحاة من عذاب الله ﷻ، وأنهم لن تمسهم النار إلا أياما معدودة، ولكن الله أعلم أنهم يقون في النار دائما، لا يخرجون منها أبدا، ولندرس الآن هذه الآية دراسة بلاغية.

من بلاغة النظم القرآني:

﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾ "دليل على غيائهم لأن مدة المس لا تكون إلا لحظة.. ولكنها أمانى وضعها الشيطان في عقولهم" وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾ "استثناء مصرغ والتقدير: لن نَمَسَّنَا النار أبدا إلا أياما قلائل يحصرها العد، لأن العد يحصر القليل"، وقال البقاعي "زادوا المعنى تأكيدا وتصريحا بقولهم ﴿مَعْدُودَةً﴾ أي منقضية، لأن كل معدود مقض". وقال الإمام الطبري "اختلف أهل التأويل في مبلغ الأيام المعدودة التي عينها اليهود، عن ابن عباس قال ذلك أعداء الله اليهود، قالوا: لن يدخلنا الله النار إلا تحلة القسم، الأيام التي أصبنا فيها العجل: أربعين يوما، فإذا انقضت عنا تلك الأيام، انقطع عما العذاب والقسم." وهكذا كانوا يعتقدون أنهم لن يقوا في النار إلا أياما قليلة، وينكرون حلولهم فيها.

في قوله ﴿قُلْ أَخَذْتُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ "الهمزة للاستفهام، ومعناه الإنكار والتفريع" وقال ابن عباس وغيره: معناه هل قلتم لا إله إلا الله وآمتم وأطعتم فتدلون بذلك وتعلمون أنكم خارجون من النار؟، فعلى هذا التأويل الأول يجيء المعنى: هل عاهدكم الله على هذا

١ تفسير الشعراوي: ٤٢٤/١

٢ الدر المنصور: ٤٥٣/١

٣ نطه الدرر: ٤٩٤/١

٤ تفسير الطبري ٢/٢٧٤، ٢٧٥

٥ الدر المنصور ١/٤٥٣، ويطر أيسر التعاسير للحرثي: ٧٥/١

الذي تدعون؟ وعلى التأويل الثاني يجيء: هل أسلفتم عند الله أعمالاً توجب ما تدعون؟، وقوله **﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾** اعتراض أثناء الكلام^١، وقال الزمخشري: **﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ﴾** "متعلق محذوف تقديره: إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده. و**﴿أَمْ﴾** إما أن تكون معادلة بمعنى أي الأمرين كائن على سبيل التقرير، لأن العلم واقع بكون أحدهما. ويجوز أن تكون مقطوعة تلي إثبات لما بعد حرف النفي وهو قوله: **﴿لَنْ نَمَسَّ السَّانِ﴾** أي لمي تمسكم أبداً، بدليل قوله: **﴿هُمْ فِيهَا حَالِدُونَ﴾**^٢ وأसार الشعراوي إلى نقطة مهمة في قوله تعالى **﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾**؛ فيقول: هما أدب النبوة والخلق العظيم لرسول الله ﷺ. فدلّا من أن يقول لهم أمترون على الله أو أنكذبون على الله.. أو أتختلفون على الله ما لم يقله. قال: **﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾**^٣ و**﴿أَمْ﴾** "يحتمل أن تكون مقطوعة بمعنى - بل - والتقدير بل أقولون، ومعنى بل فيها الإضراب والانتقال من التوبيخ بالإنكار على اتخاذ إلى ما تفيد همزتها من التوبيخ على القول.^٤ "ومعنى الإنكار في الاستفهام أنه ليس واحد من الأمرين واقعاً، لا اتخذتم عهداً ولا قلتم ذلك جهلاً، بل قلتموه وأنتم تعلمون خلافه، ولما انتفى الأمران علم أن الكائن غير ما ادعوه فصرح به في قوله: **﴿بَلَى﴾** أي لتمسكنكم على خلاف ما زعمتموه، فإنّ بلى كلمة تدل على تقرير يفهم من إضراب عن نفي كأنها بل وصلت بها الألف إتياناً لما أضرب عن نفيه.^٥ **﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾** "أي شركاً"^٦ وبداية الجواب يبلى تنفي

١ المحرر الوحي: ١ / ١٧١

٢ الكشف: ١ / ١٥٨، ويطر: روح المعاني: ١ / ٣٠٤

٣ تفسير الشعراوي. ١ / ٤٢٤

٤ روح المعاني: ١ / ٣٠٥، ويطر: تفسير السمي ١ / ١٠٤

٥ نظم الدرر: ١ / ٤٩٦

٦ تذكرة الأريب في تفسير العرب. ص ١٩

ما قالوا . لأن بلى تأتي بعد النفي . . ونعم تأتي بعد الإجابة .^١ ولعل كسب السيئة على سبيل التهنك لأن هذا الكسب ليس كسباً طبيعياً أيضاً.

﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ "أوضح سبحانه

أن مجرد كسب السيئة لا يوجب الخلود في النار، بل لا بد أن تكون سيئته محيطة به قيل هي الشرك وقيل الكبيرة. وتفسيرها بالشرك أولى"^٢ **﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾** "بحيث لم يكن شيء من أحواله خارجاً عن الخطيئة بل كانت غامرة لكل ما سواها من أعماله، ولا يكون ذلك إلا للكفر الهادم لأساس الأعمال الذي لا يتأتى بقاء الأعمال بدونه. ولما كان أفراد الضمير أنصت على حراء كل فرد والحكم بالنكال على الكل أنكأ وأروع وأقبح وأفظع وأدل على القدرة أُمرد ثم جمع فقال آتياً بالفاء دليلاً على أن أعمالهم سبب دخولهم النار: **﴿فَأُولَئِكَ﴾** أي المعداء الأعضاء **﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ﴾** خاصة **﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾**^٣ وقال الشعراوي: "وأنسب تفسير لقوله تعالى: **﴿كَسَبَتْ سَيِّئُهُ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾** . . أن المراد الشرك . . لأن الشرك هو الذي يحيط بالإنسان ولا معفرة فيه . والله تعالى يقول: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾** ولذلك هؤلاء لم يكونوا عصاة فقط . ولكنهم كانوا كافرين مشتركين . والدليل قوله تعالى: **﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** . . وأصحاب الصعائر أو الكائنات الذين يتوبون منها لا يخلدون في النار . ولكن المشرك بالله والكافر به هم الخالدون في النار . وكل من لم يؤمن سيدنا محمد ﷺ كافر."^٤ كما قال ﷺ: **﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾**^٥

١ تفسير الشعراوي ١/ ٤٣٥

٢ فتح القدير للشوكاني: ١/ ١٢٤

٣ نظم الدرر: ١/ ١٤٩٧، ويطر: الكشف: ١/ ١٥٨

٤ النساء: ٤٨

٥ تفسير الشعراوي. ١/ ٤٢٦

٦ آل عمران: ٨٥

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَكُمْ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ "بيان لما أعد لهم من عقوبات جزاء كفرهم وكذبهم على الله، فهم يوم القيامة سيكونون أصحاب النار ملازمين لها." وقال الشعراوي "هم قالوا لن تمسنا النار. قال لن تمسكم فقط بل أنتم فيها خالدون، وقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الصلحة تقتضي نوعاً من الملازمة فيها تجاذب المتصاحبين، ومعنى ذلك أنه سيكون هناك تجاذب بينهم وبين النار." "قد يوحى استخدام اسم الإشارة البعيد 'قُلْ لَكُمْ' البعد من رحمة الله ﷻ المقدر لهؤلاء أهل النار. ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ جملة اسمية تفيد الإثبات والدوام.

ثبتت هذه الآيات إبطال أماني أهل الكتاب نحو ادعائهم أنهم شعب الله ﷻ المختار، وأنهم أساء الله وأحباؤه، فهؤلاء يعذبهم دوماً بل يعذبهم تعذيب الأب ابنه والحبيب حبيبه وقتاً قصيراً ثم يرضى عنهم. وتعلن أن أحاطت به حطياته - ولو كان من أهل الكتاب - سوف يخلد في نار جهنم مذموماً مدحوراً ولن يجد طريقاً للخروج.

رابعاً: الإهانة والعذاب الأليم

يرى قارئ القرآن أن الله ﷻ يعلن عن العذاب الأليم والإهانة في الآخرة لأهل الكتاب أكثر من مرة؛ يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّغْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْرِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِصَّةَ وَلَا يُفْقَهُوْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١﴾ يَوْمَ يُعْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارٍ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَسَبْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

١ التفسير الوسيط ١ / ١٨٧

٢ تفسير الشعراوي. ١ / ٤٢٥

٣ التوبة ٣٤، ٣٥

حتى لا حلاق لهم في الآخرة؛ فقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا حَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْطُرُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^١.

يبين القرآن الكريم أن جزاء أهل الكتاب في الآخرة الإهانة والعذاب الأليم حيث يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^٢ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِأَهْدَى وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾^٣

نزلت هذه الآيات في أهل الكتاب الذين كانوا يخفون نبوة محمد ﷺ - وكانوا يقرؤون عن مجيئه ﷺ في كتبهم - ويخفون كذلك بعضاً من أحكام الله ﷻ فيها، ويفترونها؛ لأنهم كانوا يتبعون عرض الحياة الدنيا؛ فيبين الله ﷻ أن جزاءهم في الآخرة أن يأكلوا في بطونهم ناراً بسبب ما أكلوه من الحرام عن طريق كتمان الحق والعلم، ولا يكلمهم الله ﷻ يوم القيامة، ولا يطهرهم من سيئاتهم وذنوبهم، بل سوف يذوقون عذاباً مؤلماً وقد ذكر الإمام الرازي "قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود، كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا، فلما بعث محمد ﷺ خافوا انقطاع تلك المنافع، فكتبوا أمر محمد ﷺ وأمر شرائعه فنزلت هذه الآية. اختلغوا في أنهم أي شيء كانوا يكتمون؟ فقيل: كانوا يكتمون صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونعته والبشارة به، وهو قول ابن عباس."^٣

١ آل عمران ٧٧

٢ النقرة ١٧٤ - ١٧٦

٣ التفسير الكبير ٥ / ٢٠٤ ويطر. تفسير الطبري: ٣ / ٣٢٧، تفسير اليسابوري - عرائب القرآن وعرائب العرقان:

١ / ٤٧٣، المحرر الجليل ١ / ٢٤١

من بلاغة النظم القرآني:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ "الكتمان:

ستر الحديث"^١، وقيل هو "إحفاء الشيء قصدا مع تحقق الداعي إلى إظهاره. وقد تحدث القرآن - قل هذه الآيات نكليل - في قوله - تعالى - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ تَعْدٍ مَا نَبِّأَهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾^٢ الذي توعد الله به أولئك الكائمين لما أمر الله بإظهاره، وأعاد الحديث عن سوء عاقبتهم ها لكي يندبرهم مرة بعد أخرى حتى يقلعوا عن هذه الرديلة التي هي من أشنع الرذائل وأقبحها، ولكي يغرس في قلوب الناس.^٣

وما هو المراد بالكتاب ها؟ فقيل التوراة والإنجيل^٤، "وقيل: الكتاب المكتوب، وهو أعم من التوراة والإنجيل"^٥ والقول الراجح عند الباحثة أن المراد هنا جس الكتاب يشمل التوراة والإنجيل؛ ويتقوى هذا القول بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^٦ وقوله تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾^٧ فمن الممكن أن يكون هذا الوعيد لكل كاتب الكتاب عامة وخاصة كاتمو التوراة والإنجيل، والله أعلم. وقال ابن عثيمين ﴿إن الذين يكتُمون﴾ جملة مكونة من ﴿إن﴾ الدالة على التوكيد؛ وقوله تعالى: ﴿يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي يحمون؛ ﴿من الكتاب﴾ «أل» إما أن تكون للعهد؛ أو للجنس؛ فإن قلنا: «للعهد»

١ المفردات في غريب القرآن: كتاب الكاف، تحت مادة كتم، ص ٤٤٤

٢ النقرة: ١٥٩

٣ التفسير الوسيط: ١ / ٣٥٥

٤ يطر التحرير والتوير ١٢٢ / ٢

٥ البحر المحيط: ٢ / ١٢٠

٦ يوس ٣٧

٧ الحديد: ٢٥

فالمراد بها التوراة؛ ويكون المراد بـ **«الذين يكتمون»** اليهود؛ لأنهم كتموا ما علموه من صفات النبي ﷺ؛ وإن قلنا: إن «أل» للجنس، شمل جميع الكتب: التوراة، والإنجيل، وغيرها؛ ويكون **«الذين يكتمون»** يشمل اليهود، والنصارى، وغيرها؛ وهذا أرجح لعمومه.^١

«وَيَشْتَرُونَ بِهِ» "الاشتراء: استبدال السلعة بالثمن. والمعنى: أولئك الذين تقدم الحديث عنهم وهم الكاتمون ما أنزل الله قد بلغ بهم الغباء وانطماس البصيرة أنهم باعوا الهدى والإيمان ليأخذوا في مقابلتهما الكفر والضلال، وباعوا ما يوصلهم إلى مغفرة الله ورحمته ليأخذوا في مقابل ذلك عدائه ونقمته، فما أخسرهما من صفقة، وما أغبى هؤلاء الكاتمين الذين فعلوا ذلك بطير عرض من أعراض الدنيا القابضة، فحسروا بما فعلوه دنياهم وآحرقهم."^٢

«فَمَا قَلِيلًا» "أي مما يتمتعون به من لذات العاجلة. وقلة لحقارته في نفسه. ففيه إشعار بدناءة نفوسهم حيث رصيت بالقليل، أو بالسببة لما فوّتوه على أنفسهم من نعيم الآخرة الذي لا يحاط بوصفه"^٣ وقال ابن عاشور إن المراد بـ **«فَمَا قَلِيلًا»** "هو المال الذي يأخذونه من الناس حراء على إفتائهم بما يلائم هواهم مخالفًا لشرعهم أو على الحكم بذلك."^٤ والحق أن الحياة الدنيا قصيرة في مقابل الحياة الآخرة؛ كما قال تعالى: **«فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ»**^٥

«أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ» "ولما كانوا قد بعدوا عن مواطن الرحمة يبخلهم بما لا ينقصه الإنفاق أشار إليهم بأداة البعد فقال **«أُولَئِكَ»** ولما كان الأكل يطلق على مجرد الإفساد حقق معاه بقوله: **«فِي بُطُونِهِمْ»** جمع بطن وهو فضاء جوف الشيء

١ تفسير القرآن لاس عثيمين: ص ٢٢٤

٢ التفسير الوسيط ٣٥٧

٣ تفسير القاسمي: ١/ ٤٧٨

٤ التحرير والتوير ٢/ ١٢٣

٥ التوبة ٣٨

الأحوف لغيبته عن ظاهره الذي هو ظهر ذلك البطش ﴿إِلَّا الثَّانِ﴾ كما أحاط علمه سبحانه وتعالى بالغيب إن ذلك على الحقيقة وبصره لعيون أهل الكشف الذين يرون العواقب في الأوائل والغيب في الشهادة، وفي ذكره بصيغة الحصر نفى لتأويل المتأول بكونه سبباً وصرف له إلى وجه التحقيق الذي يناله.^١

وقال ابن عاشور: "جاء باسم الإشارة لإشهارهم لئلا يخفى أمرهم على الناس وللتنبية على أن ما يخبر به عن اسم الإشارة استحقوه بسبب ما ذكر قبل اسم الإشارة، وهو تأكيد للسببية المدلول عليها بالموصول، وفعل يأكلون مستعار لأخذ الرشا المعبر عنها بالثمن والظاهر أنه مستعمل في زمان الحال، أي ما يأكلون وقت كتمانهم واشترائهم إلا النار لأنه الأصل في المصارع. والأكل مستعار للانتفاع مع الإخفاء، لأن الأكل انتفاع بالطعام وتغيب له فهو حفي لا يظهر كحال الرشوة، ولما لم يكن لأكل الرشوة على كتمان الأحكام أكل نار تعين أن في الكلام مجازاً، فقل هو مجاز عقلي في تعلق الأكل بالنار وليست هي له وإنما له سببها أعني الرشوة، وأنه استعارة تمثيلية شبهت الهيئة الحاصلة من أكلهم الرشا بالهيئة المنتزعة من أكلهم النار وأطلق المركب الدال على الهيئة المشبه بها على الهيئة المشبهة، ولا يضر كون الهيئة المشبه بها غير محسوسة لأنها هيئة متحيلة فالمركب الذي من شأنه أن يدل على الهيئة المشبهة."^٢

قال ابن عثيمين: "الاستثناء هنا مفرع؛ والإشارة للعبد لعدد مرتبتهم، واحتطاطها، والتعير منها. والفائدة منها إطلاق المسبب على السبب؛ هم لا يأكلون النار؛ ولكن يأكلون المال؛ لكنه مال سب للنار. وفائدة إقامة العدل في الجراء؛ فحعل عقوبتهم من النار بقدر ما أكلوه من الدنيا الذي أحذوه عوضاً عن العلم."^٣

١ نظم الدرر: ٢ / ٣٥١

٢ التحرير والتوير ٢ / ١٢٣ ويطر الكشاف: ١ / ٢١٦، روح المعاني: ١ / ٤٤١، تفسير القاسمي: ١ / ٤٧٨،

فتح القدير: ١ / ١٩٧

٣ تفسير القرآن لابن عثيمين: ص ٢٢٤، ٢٢٦، ويطر: الدر المصون: ٢ / ٢٤٢

وقال الرحيبي: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ مجاز مرسل باعتبار ما يؤول إليه، أي إنما يأكلون المال الحرام الذي يؤدي بهم إلى النار. وقوله ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ زيادة تشنيع وتقييح لحالهم.^١

وقد سلط ابن عاشور الأضواء الكاشفة على الصورة الفنية الموجودة في الآية بأن الآية استعارة تمثيلية توضح قبح الكتمان وأكل الحرام بكل صراحة.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ "ولما قدم الوعيد في الشر لكونه الحامل على الكتم أتبعه وعيد نفس الكتم فقال: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي الملك الأعظم الذي من كلمه أقبل كل شيء عليه كلاماً يدل على مرضى لكونهم لم يكلموا الناس بما كتب عليهم وقال: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تأكيداً لما أشارت إليه ما من أن المراد بالذي قبله الحال ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهرهم من دنس الذنوب أو يثني عليهم أو ينمي أعمالهم بما يحصل لهم من الميثاق في يوم التلاق كما يزكي بذلك من يشاء من عبادة لأنهم كتموا عن العباد ما يزكيهم وفي هذا تعظيم لدنس كتموا العلم ﴿وَلَهُمْ﴾ مع هذا العذاب ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لما أوقعوا فيه الناس من التعب بكنتمهم عنهم ما يقيمهم على المحجة السهلة." قال الزمخشري: "﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ تعريض بحرمانهم حال أهل الجنة في تكريم الله إياهم بكلامه وتركيتهم بالثناء عليهم. وقيل: نفى الكلام عبارة عن غضبه عليهم كمن غضب على صاحبه فصرمه وقطع كلامه. وقيل: لا يكلمهم بما يحبون." وقال ابن عاشور: "وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ نفى للكلام والمراد به لازم معناه وهو الكناية عن الغضب، فالمراد نفى كلام التكريم، فلا ينافي قوله تعالى: ﴿فَوَزَّيْنَاكَ لَكُنَّا لَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ وقوله: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي لا يثني عليهم في ذلك المجمع،

١ التفسير الميز ٩٠ / ٢

٢ نظم الدر ٣٥٢ / ٢، ويظر مراح ليد ٥٧ / ١، تفسير المزاوي ٥١ / ٢

٣ الكشف ٢١٦ / ١، ويظر التفسير الميز ٩٠ / ٢

٤ المحرر ٩٣

وذلك إشعار لهم بأنهم صاترون إلى العذاب لأنه إذا نفيت التركية أعقبتها الذم والتوبيخ، فهو كناية عن دمهم في ذلك الجمع إذ ليس يومئذ سكوت.^١

وأشار ابن عثيمين إلى نكتة مهمة في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ فيقول: "«فعليل» هنا بمعنى مفعول؛ و«مؤلم» أي موحع؛ والعذاب هو الكال، والعقوبة. وعذاب هؤلاء الكافرين عذاب مؤلم ألماً نفسياً، وألماً جسمانياً؛ فأما الألم النفسي فدليله قوله تعالى: ﴿اٰخِسْتُوا فِيْهَا وَلَا تُكَلِّمُوْنَ﴾^٢؛ فهذا من أبلغ ما يكون من الإدلال الذي به الألم النفسي؛ وأما الألم البدني فدليله قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيْهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^٣؛ ويدل التشكير في كلمة ﴿عَذَابٌ﴾ على التهويل والتخويف. كل هذا الكلام يدل على غضب الله ﷻ على هؤلاء الذين كتموا الحق؛ فهو لن يكلمهم كلاماً تطمئن به نفوسهم، بل سوف يكلمهم بما يخزيهم يوم القيامة، كما جاء قوله تعالى: ﴿اٰخِسْتُوا فِيْهَا وَلَا تُكَلِّمُوْنَ﴾^٤، ولا يطهرهم من دنس الكفر والذنوب، ولا يثنى عليهم، ويذيقهم عذاباً اليماً.

﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ "بيان لتماديهم في الحسارة فإن أحسن الأشياء في الدنيا الاهتداء والعلم، وأقبحها الضلال والجهل. وفي الآخرة أنفع الأشياء المغفرة، وأضرها العذاب فهم في خسران الدارين لاستبدالهم في الدنيا أقبح الأمور بأحسنها، وفي الآخرة أضر الأشياء بأنفعها."^٥

١ التحرير والتوير: ١٢٤ / ٢، ويطر: فتح القدير: ١ / ١٩٧، التفسير الوسيط: ٣٥٦ / ١

٢ المؤمنون. ١٠٨

٣ النساء: ٥٦

٤ تفسير القرآن لاس عثيمين: ص ٢٢٤، ٢٢٧، ويطر: التفسير المير. ٩١ / ٢

٥ المؤمنون. ١٠٨

٦ تفسير البصا نوري. ١ / ٤٧٣، ٤٧٤ ويطر. التفسير الوسيط. ٣٥٧

﴿الضَّلَالَةُ﴾ "العدول عن الطريق المستقيم وبعاده الهداية" والمراد به الهدى هنا "الشرائع التي أنزلها الله على لسان أنبيائه، أي إن أولئك الذين جزأؤهم ما تقدم، هم الذين تركوا الهدى الواضح البين الذي لا خلاف فيه، وهو ما جاء به الرسل عن ربهم، واتبعوا آراء الناس في الدين وهي لا ضابط لها، وهي مشتبهة الأعلام يضل بها الفهم، ومن ثم كان أهلها في خلاف وشقاق." ^٢ "ومعنى اشتراء الضلالة بالهدى في كتمان الكتاب أن كل آية أخفوها أو أفسدوها بالتأويل فقد ارتفع مدلولها المقصود منها وإذا ارتفع مدلولها نسي العمل بها فأقدم الناس على ما حذرهم منه، ففي كتمانهم حق رفع وباطل وضع. ^٣ ومعنى اشتراء العذاب بالمعقرة أنهم فعلوا ذلك الكتمان عن عمد وعلم بسوء عاقبته، فهم قد رضوا بالعذاب وإضاعة المغفرة فكأنهم استبدلوا بالمعقرة العذاب." ^٤ استعار لفظ الشراء لاستبدال الصلاة بالهدى والعذاب بالمعقرة فهما استعارة تصريحية. ^٥ وردت التصادم بين "الضلالة" و"الهدى" و"العذاب" و"المعقرة".

قد بين البقاعي النظم بين هذه الآيات؛ فقال "ولما ذكر حراءهم أتبعه ترجمة حالهم مؤكداً لمعدهم فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا﴾ أي لجأوا وعنادياً في الغي ﴿الضَّلَالَةَ﴾ عن طريق الخير ﴿بِالْهُدَى﴾ ولما ذكر حالهم في الدنيا أتبعه أمر الآخرة فقال: ﴿وَالْعَذَابَ﴾ بارتكابهم هذه الموبقة ﴿بِالْمَعْقِرَةِ﴾ التي كانت تنجيهم إذا محت صفائهم لو سلموا من هذه العضلة التي كانت سبباً لضلال خلق كثير فكان عليهم وزرهم. ولما جعل سبحانه وتعالى أول ما كلهم ناراً وآخر أمرهم عذاباً وترجمة حالهم عدم المغفرة فكان بذلك أيضاً أوسط حالهم ناراً سبب عنه التعجب من أمرهم بحبسهم أنفسهم في ذلك الذي هو معنى الصبر لالتباسهم بالنار

١ المعردات في عرب القرآن: كتاب الصاد، تحت مادة: صل، ص ٣٠٨

٢ تفسير المراعي: ٥١، ٥٠ / ٢

٣ التحرير والتوير: ١٢٥ / ٢، ويطر: تفسير القرآن لابن عثيمين: ص ٢٢٨

٤ يطر: التفسير المنير: ٨٩ / ٢

٥ "التصادم: أن يجمع بين المتصادمين مع مراعاة التقابل" معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٢٥٢ / ٢

حقيقة أو بموجباتها من غير مبالاة فقال: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ﴾ أي ما أشد حبسهم أنفسهم أو ما أجراهم ﴿عَلَى النَّارِ﴾ التي أكلوها في الدنيا فأحسوا بها في الأخرى. وإذا جعلته مجازاً كان مثل قولك لمن عاند السلطان: ما أصبرك على السجن الطويل والقيد الثقيل! تهديداً له.^١

﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ "تعجب من حالهم في التباسهم بموجبات النار من غير مبالاة منهم، كما تقول لمن يتعرض لما يوجب غضب السلطان: ما أصبرك على القيد والسجن، تريد أنه لا يتعرض لذلك إلا من هو شديد الصبر على العذاب. وقيل: فما أصبرهم، فأى شيء صبرهم." وقال ابن عاشور: "تعجب من شدة صبرهم على عذاب النار، ولما كان شأن التعجب أن يكون ناشئاً عن مشاهدة صبرهم على العذاب وهذا الصبر غير حاصل في وقت نزول هاته الآية بنى التعجب على تنزيل غير الواقع منزلة الواقع لشدة استحضار السامع إياه بما وصف به من الصفات الماضية، وهذا من طرق جعل المحقق الحصول في المستقبل بمنزلة الحاصل، ومنه التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وتنزيل المتخيل منزلة المشاهد، وقريب منه قوله تعالى: ﴿كَأَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾^٢ على جعل ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ جواب ﴿لَوْ﴾." ^٣

"واحتلموا في تأويل "ما" التي في قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ فقال بعضهم: هي بمعنى الاستمهام، وكأنه قال: فما الذي صبرهم؟ أي شيء صبرهم؟ وقال آخرون: هو تعجب. يعني: فما أشد حراءهم على النار بعملهم أعمال أهل النار! فمن قال: هو تعجب - وحيه تأويل الكلام إلى: "أولئك الذين استروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمعفرة"، فما أشد حراءهم - فعملهم ما فعلوا من ذلك - على ما يوجب لهم النار! كما قال تعالى ذكره: ﴿قَاتِلْ

١ نظم الدرر. ٢/ ٣٥٣، ٣٥٤

٢ الكشف: ١/ ٢١٦

٣ التكاثر: ٥-٦

٤ التحرير والتوير. ٢/ ١٢٥

الإنسانَ مَا أَكْفَرَهُ^١ ، تعجباً من كفره بالذي خَلَقَهُ وَسَوَّى حَلَقَهُ. فأما الذين وجهوا تأويله إلى الاستفهام، فمعناه: هؤلاء الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة، فما أصبرهم على النار -والنار لا صبر عليها لأحد- حتى استبدلوها بمغفرة الله فاعتاضوها منها بدلاً؟^٢

فإن كان استفهام فهو للتوبيخ^٣، وإن كان للتعجب أو تعجب بمعنى أن يرشدنا إلى أن نتعجب؟ "فيكون المقصود تعجب المؤمنين من جرأة أولئك الكافرين لما أنزل الله على اقترافهم ما يلقي بهم في النار، شأن الواثق من صبره على عذابها المقيم. وشبه بهذا الأسلوب في التعجب أن تقول لمن يتعرض لما يوجب غضب السلطان: ما أصبرك على القيد والسجن فأنت لا تريد التعجب من صبره، وإنما تريد إفهامه أن التعرض لما يفضيه لا يقع إلا ممن شأنه الصبر على القيد والسجن، والمقصود بذلك تحذيره من التمادي فيما يوجب غضب ذلك السلطان."^٤ على كل حال هما إشارة إلى شدة عذابهم.^٥

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ "أي ذلك العذاب بسبب أن الله نزل الكتاب بالحق فرفضوه بالكذب أو الكتمان.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ اللام فيه إما للجنس، واختلافهم إيمانهم ببعض كتب الله تعالى وكفرهم ببعض. أو للعهد، والإشارة إما إلى التوراة، واختلفوا بمعنى تخلفوا عن المنهج المستقيم في تأويلها، أو خلفوا حلال ما أنزل الله تعالى مكانه، أي حرفوا ما فيها. وإما

١ سورة عس. ١٧

٢ تفسير الطبري: ٣/ ٣٣٢، ٣٣٣

٣ بظر البحر المديد ١/ ٢٠٤، فتح القدير ١/ ١٩٨، تفسير ابن عثيمين: ص ٢٣٢،

٤ التفسير الوسيط ١/ ٣٥٧، وبظر التفسير الكبير ٥/ ٢٠٦، التفسير المنير. ٢/ ٩١

٥ بظر تفسير ابن العثيمين ص ٢٣٣

إلى القرآن واحتلافهم فيه قولهم سحر، وَتَقُولُ، وكلام علمه بشر، وأساطير الأولين، ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ لفي خلاف بعيد عن الحق.^١

استخدمت ﴿اِخْتَلَفُوا﴾ ومعنى الاختلاف "أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو قوله، ولما كان الاختلاف بين الناس في القول قد يقتضي التنازع استعير ذلك للمصارعة والمجادلة."^٢ و"حيء باسم الإشارة لربط الكلام اللاحق بالسابق على طريقة العرب في أمثاله إذا طال الفصل بين الشيء وما ارتبط به من حكم أو علة أو نحوهما. وفائدة الإظهار في مقام الإصمار في قوله: ﴿فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أن يكون التذييل مستقلاً بنفسه لجرىانه مجرى المثل، ووصف الشقاق بالبعيد مجاز عقلي أي بعيد صاحبه عن الوفاق"^٣ كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾^٤. الشق: "الحزم الواقع في الشيء، يقال شققته نصفين، والشقاق: المحالفة وكونك في شق غير شق صاحبك أو من شق العصا بينك وبينه."^٥ وهنا "الشقاق: الخلاف، كأن كل واحد من المختلفين في شق غير الشق الذي يكون فيه الآخر، وإذا وصف الخلاف بالبعد فهم منه أنه بعيد عن الحق، يقال: قال فلان قولاً بعيداً، أى بعيداً من الصواب. والمعنى: ذلك العذاب الأليم حل بأولئك الأشقياء بسبب كتمانهم لما أنزله الله في كتابه من الحق، وإن الدين اختلفوا في شأن ما أنزله الله في كُتبه فأظهروا منها ما يناسب أهواءهم وأخفوا ما لا يناسبها لفي بُعد شديد عن الحق والصواب"^٦.

ها أتوقف قليلاً للإحابة عن بعض الأسئلة، وهي: لماذا جاء اسم الجلالة في الآية ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾؟ وما هو القول الراجح في تعيين الكتاب في الآية نفسها

١ تفسير البصاوي. ١/ ١٢٠، ويطر: الكشاف ١/ ٢١٧، تفسير البصاوي عرائب القرآن وعرائب العرقان: ١/ ٤٧٤

٢ المبررات في عريب القرآن. كتاب الحاء، تحت مادة: حلف، ص ١٦٢

٣ التحرير والتنوير: ٢/ ١٢٦، ١٢٧

٤ هود. ١١٨

٥ المبررات في عريب القرآن: كتاب الشين، تحت مادة: شق، ص ٢٧٣، ٢٧٤

٦ التفسير الوسيط: ١/ ٣٥٨، ٣٥٩

؟ وما المراد باختلاف في الكتاب؟ فيجيب البقاعي عن السؤال الأول؛ فيقول "ولما ذكر جرائهم وشرح حالهم والتعجب من أمرهم ذكر السبب الموجب لهذا الإبعاد العظيم والتهديد الكبير فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ مشيراً بأداة البعد ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ فذكر الاسم الأعظم أيضاً الذي معناه أن له جميع صفات الكمال تعظيماً للمقام".^١

أما السؤال الثاني؛ فوجدت الباحثة هذا الرأي أقوى من الجميع؛ وهو: والكتاب: التوراة، أو التوراة والإنجيل، إذ يصح أن يراد جنس الكتاب والمقام يقتضى صرفه إلى هذين الكتابين، وقد أُنْـبِـد في التأويل من قال بأن المراد به القرآن لأن الحديث عن أهل الكتاب الذين كتبوا ما في كتبهم من شارات بالرسول ﷺ واختلافهم في الكتاب من مظاهره إيمانهم ببعضه وكفرهم ببعض الآخر، وتحريفه عن مواضعه وتأويله على غير ما يراد منه.^٢

واحاطة السؤال الثالث هي: قوله ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا﴾ أي حالف بعضهم بعضاً ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ نفسه أي لا في فهمه، وهذه العبارة تدل على أن الاختلاف قول بعض في الكتاب كله أو في شيء منه هو باطل والإقرار ببعض أحكامه والإنكار لبعضها وتحريف الكلم عن مواضعه ونحو هذا ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ لكون كل واحد منهم في شق ﴿تَعِيدُ﴾ جداً عن شق أهل الحق، ولذلك خاف الصحابة رضوان الله تعالى عليهم من اختلاف أهل هذا الدين في القرآن كما اختلف اليهود والنصارى فجمعوهم على مصحف واحد، فليس الاختلاف في وجوه الروايات وأنحاء الفهم من ذلك.^٣

قد بيّنت لنا هذه الآيات الكريمة ألوانا من العقوبات الأليمة التي أعدها الله ﷻ لأهل الكتاب في الآخرة؛ ويبين الله ﷻ أن سبب استحقاقهم للعذاب الأليم، هو ارتكابهم

١ نظم الدرر: ٢ / ٣٥٤

٢ التفسير الوسيط: ١ / ٣٥٨

٣ نظم الدرر: ٢ / ٣٥٤، ٣٥٥

لما همى الله ﷻ عنه عن قصد وسوء نية؛ فكنتموا الحق عندهم وارتكبوا جريمة التحريف والتأويل إشارا لمطامع دنيوية على هدى الله ﷻ الذي هو أساس كل سعادة؛ فلذلك استحقوا العذاب الأليم.

الخلاصة:

نصل مما تم دراسته من حلال المبحثين في الفصل الثاني أن من حكمة الله عزوجل أنه أمهل أهل الكتاب إلى يوم البعث، وتركهم في طغيانهم يعمهون، ولكن عاقبتهم في الدنيا بأسلوب فيه عبرة لأولي الأبصار؛ فجزاء سيئاتهم في الدنيا تظهر في حرمانهم من الرشد والهدى، واللعنة والعداوة بينهم، وعداوة من الله عزوجل، والعذاب بأيدي المسلمين، وبَيَّن القرآن الكريم أن جزاء أهل الكتاب في الآخرة إحباط الأعمال، والويل، والخلود في النار بالإضافة إلى الإهانة والعذاب الأليم.

واستخدم القرآن الكريم الأساليب البلاغية المتنوعة من الاستفهام الإنكاري، وعطف الجمل على الجمل، والحصر والقصر، والاستثناء، والتأكيد، والتعريض والكتابة، والتشبيه والتمثيل، والاستعارة، والتدليل، والتضاد، وأداة الشرط، واسم إشارة للبعيد، وكذلك اختار المفردات في حالة الأفراد والجمع، والتعريف والتكثير في غاية الحمال لتبيين الكلام، وجاء بالفعل الماضي والمضارع، والحمل الاسمية لتوضيح الأسرار البلاغية وراء كلام الله عزوجل، وأبرزت هذه المظاهر البلاغية معاني حديث القرآن عن جزاء أهل الكتاب في الدنيا والآخرة بكل وضوح.



الباب الثالث:

من بلاغة النظم في حديث القرآن عن إنكار المنافقين وجرائهم

يشتمل هذا الباب على فصلين:

الفصل الأول:

من بلاغة النظم في حديث القرآن عن إنكار المنافقين

الفصل الثاني:

من بلاغة النظم في حديث القرآن عن جزاء المنافقين



فاتحة:

في محاولة رصد الآيات المتعلقة بالمنافقين وجدت الباحثة أن القرآن الكريم يحتوي على آيات كثيرة جدا تناولت الحديث عن المنافقين، كما قال الإمام ابن القيم "كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم لكثرتهم على ظهر الأرض وفي أجواف القبور فلا خلت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات وتعطل بهم أسباب المعاش وتخطفهم الوحوش والسباع في القلوات، سمع حذيفة رضي الله عنه رجلا يقول اللهم أهلك المنافقين فقال "يا ابن أخي لو هلك المنافقون لاستوحشت في طرقاتكم من قلة السالك" ^١، فقد اهتم القرآن الكريم بكشف هوية المنافقين وخصائصهم اهتماما بالغاً لكي يحذر المجتمع لأنهم يخفون ما في صدورهم من غلّ وحقد لدعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ويظهرون أنهم أصدقاء المؤمنين، فقال تعالى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهِمْ خُسْبٌ مُسْنَدَةٌ يَخْسِبُونَ كُلَّ صَنِيعَةٍ عَلَيْهِمْ هُمْ الْعُدُوّ فَاخْذَرْهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَلَيْ يُؤَفِّكُونَ﴾ ^٢، ولعل وجود المنافقين في المجتمع من أعظم الأخطار التي تهدد الأمة المسلمة فهم دائما في حالة غضب وبغض للمؤمنين كما قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ^٣ هاتئذ أولاء يَحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ^٤ إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَسُوهَا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ^٥.

١ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى ٧٥١هـ)، مدارج السالكين بين منازل

إياك بعد وإياك يستعين، تحقيق: محمد حامد العقبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط ٢،

١٣٩٣/٥-١٩٧٣ م، ١/ ٣٥٨

٢ المنافقون: ٤

٣ آل عمران: ١١٨ - ١٢٠



الفصل الأول

من بلاغة النظم في حديث القرآن عن إنكار المنافقين

يتكون هذا الفصل من مبحثين:

المبحث الأول:

من بلاغة النظم القرآني في بيان أحوال المنافقين الفكرية المتعلقة
بإنكارهم الدعوة

المبحث الثاني:

من بلاغة النظم القرآني في بيان أحوال المنافقين العملية المتعلقة
بإنكارهم الدعوة





المبحث الأول:

من بلاغة النظم القرآني في بيان أحوال المنافقين الفكرية المتعلقة
بإنكارهم الدعوة



المدخل:

من المعلوم أنه "كانت هناك طائفة المنافقين. ووجود هذه الطائفة نشأ مباشرة من الأوضاع التي أنشأتها الهجرة النبوية إلى المدينة في ظروفها التي تمت فيها، والتي أشرنا إليها من قبل ولم يكن لها وجود بمكة. فالإسلام في مكة لم تكن له دولة ولم تكن له قوة، وأما في يثرب التي أصبحت منذ اليوم تعرف باسم المدينة - أي مدينة الرسول ﷺ - فقد أصبح الإسلام قوة يحسب حسابها كل أحد ويضطر لمصانعتها كثيرا أو قليلا - وبخاصة بعد عزوة بدر وانتصار المسلمين فيها انتصارا عظيما - وفي مقدمة من كان مضطرا لمصانعتها نفر من الكبراء، دخل أهلهم وشيعتهم في الإسلام وأصبحوا هم ولا بد لهم لكي يحتفظوا بمقامهم الموروث بينهم وبمصالحتهم كذلك أن يتظاهروا باعتراف الدين الذي اعتنقه أهلهم وأشياعهم. ومن هؤلاء عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان قومه ينظمون له الحرز ليتوجوه ملكا عليهم قبيل مقدم الإسلام على المدينة".

ويمكن بيان حالة المنافقين الفكرية من خلال ثلاثة عناوين، وهي:

- عدم صلاحية التعقل والتدبر
- الريب والشك
- حب النفس وكراهية الجهاد في سبيل الله ﷻ

أولاً: عدم صلاحية التعقل والتدبر

من أبرز أحوال المنافقين الفكرية المتعلقة بإنكارهم الدعوة أنهم لا يستحدمون عقولهم، ولا يتدبرون القرآن الكريم ولا يفهمون الحق، ويتبعون أضل السبل وهم لا يشعرون كما قال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴿١٠٠﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿١٠١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ

وَأَمَلَى لَهُمْ^١، وبسبب عدم التدبر والتفقه استبدلوا الضلالة بالهدى فليس عندهم النور الذي يهديهم إلى الصراط المستقيم، و غرهم الشيطان بأنهم أذكىاء والذين آمنوا لا يعرفون شيئاً وهم السفهاء والحقيقة أن المنافقين لا يعرفون أنهم هم السفهاء، كقوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ^٢﴾ يصور القرآن الكريم أمام القارئ كيفية حرمان المنافقين من نور الله ﷻ وعدم الوعي في سورة البقرة بقوله ﷻ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ^٣﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُفَىٰ فَعْمٌ لَا يَرْجِعُونَ^٤﴾

يبين القرآن الكريم أن المنافقين وصلوا إلى أسفل السافلين في عدم التفقه والخسران؛ لأنهم اختاروا الضلالة، وتركوا الهدى ثم يمثل المنافقين الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر في الحقيقة، والمراد بهذا المثل أنهم رأوا نور الإيمان، ثم فقدوا البصيرة وضلوا عن السبيل المستقيم؛ فهم متحيرون في ظلمات الكفر والنفاق، ولا يعرفون طريق النجاح في الدنيا والآخرة.

ولنستخرج الألوان البلاغية من هذه الآية لنتعرف على الأسلوب البلاغي المعجز في الخطاب القرآني للمنافقين.

من بلاغة النظم القرآني:

في جملة ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ "أولئك اسم أشير به إلى الذين تقدم ذكرهم، الجامعين للأوصاف الذميمة من دعوى الإصلاح، وهم المفسدون، ونسبة

١ محمد: ٢٣-٢٥

٢ البقرة ١٣

٣ البقرة: ١٦، ١٧، ١٨

السفه للمؤمنين، وهم السفهاء، والاستخفاف بالمؤمنين بإظهار الموافقة وهم مع الكفار"١،
 و"فصلت الجملة عن التي قبلها لتفيد تقرير معنى ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^٢ فمضمونها
 بمنزلة التوكيد، وذلك مما يقتضي الفصل، ولتفيد تعليل مضمون جملة ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
 يَعْمَهُونَ﴾ فتكون استثناءً بيانياً لسائل عن العلة، وهي أيضاً فدلكة للجملة السابقة الشارحة
 لأحوالهم وشأن الفدلكة عدم العطف"٣. وقال صاحب الكشف "ومعنى اشتراء الضلالة
 بالهدى اختيارها عليه واستبدالها به، على سبيل الاستعارة، لأنَّ الاشتراء فيه إعطاء بدل
 وأخذ آخر، فإن قلت كيف اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى؟ قلت جعلوا
 لتمكنهم منه وإعراضه لهم كأنه في أيديهم، فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطلوه واستبدلوها به،
 ولأن الدين القيم هو ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، فكل من ضل فهو مستبدل
 خلاف الفطرة"٥. ويرى ابن عاشور أن "إطلاق الاشتراء هاهنا مجاز مرسل بعلاقة اللزوم،
 أطلق الاشتراء على لازمه الثاني وهو الحرص على شيء والزهد في ضده أي حرصوا على
 الضلالة، وزهدوا في الهدى إذ ليس في ما وقع من المنافقين استبدال شيء بشيء إذ لم يكونوا
 من قبل مهتدين"٦. ويميل رأي الباحثة إلى رأي الزمخشري بسبب تمكّنهم على اختيار الهدى
 ولكن تركوه واستبدلو الضلالة، ويؤيدها الإمام الرازي في تفسيره أيضاً حيث يقول: "واعلم
 أن اشتراء الضلالة بالهدى اختيارها عليه واستبدالها به، فإن قيل كيف اشتروا الضلالة بالهدى
 وما كانوا على هدى قلنا جعلوا لتمكنهم منه كأنه في أيديهم فإذا تركوه ومالوا إلى الضلالة

١ البحر المحيط. ١ / ١١٧

٢ البقرة: ١٥

٣ التحرير والتوير: ١ / ٢٩٧

٤ الروم: ٣٠

٥ الكشف. ١ / ٦٩، ٧٠

٦ التحرير والتوير. ١ / ٢٩٨

فقد استبدلوا به، والضلالة الجور والخروج عن القصد وفقد الاهتداء، فاستعير للذهاب عن الصواب في الدين"^١.

"والموصول في قوله ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوْا﴾ بمعنى المعرف بلام الجنس فيفيد التركيب قصر المسند على المسند إليه وهو قصر ادعائي باعتبار أنهم بلغوا الغاية في اشتراء الضلالة والحرص عليها إذ جمعوا الكفر والسفه والخداع والإفساد والاستهزاء بالمهتدين"^٢.

﴿فَمَا رَمَحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ "معناه أنّ الذي يطلبه التجار في متصرفاتهم شيئان: سلامة رأس المال، والربح. وهؤلاء قد أضاعوا الطلبتين معاً، لأن رأس مالهم كان هو الهدى، فلم يبق لهم مع الضلالة. وحين لم يبق في أيديهم إلا الضلالة، لم يوصفوا بإصابة الربح. ولأنه لا يقال لمن لم يسلم له رأس ماله: قد ربح"^٣.

جملة ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ معطوفة على قوله تعالى ﴿فَمَا رَمَحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾، و"معنى نفي الاهتداء كناية عن إضاعة القصد أي أنهم أضاعوا ما سعوا له؛ فيقع في الخسران. فقوله ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ تمثيلية ويصح أن يؤخذ منها كناية عن الخسران وإضاعة كل شيء لأن من لم يكن مهتدياً أضاع الربح وأضاع رأس المال بسوء سلوكه"^٤.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ "لما جاء بحقيقة حالهم عقبها بضرِب المثل زيادة في التوضيح والتقرير، فإنه أوقع في القلب وأقنع للخصم الألد، لأنه يريك المتخيل محققاً والمعقول محسوساً، والمثل في الأصل بمعنى النظر، ولا يضرب إلا ما فيه غرابة، ولذلك حوِّظ عليه من التعبير، ثم استعير لكل حال أو قصة أو صفة لها شأن وفيها غرابة مثل قوله تعالى

١ التفسير الكبير ٢٠ / ٣١١

٢ التحرير والتوير: ١ / ٢٩٩

٣ الكشف: ١ / ٧١، ٧٢

٤ اللباب في علوم الكتاب ١ / ٣٦٩

٥ التحرير والتوير ١ / ٣٠١

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾^١ وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾^٢، والمعنى حالهم العجيبة الشأن كحال من استوقد نارا^٣. "واستوقد بمعنى أوقد فالسين والتاء فيه للتأكيد"، ولعل كلمة 'نار' نكرت للتعظيم، والله أعلم.

وتأمل قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ "كيف جعل صوءها خارجا عنه منفصلا؟ ولو اتصل ضوءها به ولاسه لم يذهب، ولكنه كان صوء مجاورة، لا ملاسة ومحالطة. وكان الضوء عارضا والظلمة أصلية. فرجع الضوء إلى معدنه وبقيت الظلمة في معدنها. فرجع كل منهما إلى أصله اللاتق به، حجة من الله تعالى قائمة. وحكمة بالغة، تعرّف بها إلى أولي الألباب من عباده".^٤

﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ "كلام مستأنف. كأنهم لما شبهت حالهم بحال المستوقد الذي طفئت ناره، اعترض سائل فقال: ما بالهم قد أشبهت حال هذا المستوقد؟ فقل له: ذهب الله بنورهم"^٥ و"لم يقل سبحانه وتعالى أذهب الله نورهم، مشاكلة لقوله ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾ فالجواب: أن إذهاب النور أبلغ لأنه إذهاب للقليل والكثير، بخلاف الصوء فإنه يطلق على الكثير"^٦. ولم يقل سبحانه وتعالى "ذهب نورهم. وفيه سرّ بديع، وهو انقطاع سر تلك المعية الخاصة التي هي للمؤمنين من الله تعالى، فإن الله تعالى مع المؤمنين ومع

١ الرعد: ٣٥

٢ البحل: ٦٠

٣ تفسير البصاوي: ٤٩ / ١

٤ التحرير والتنوير ٣٠٧ / ١

٥ تفسير القيم: ص ١١٨

٦ الكشف: ٧٤، ٧٣ / ١

٧ أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن حري الكلبي العرناطي (المتوفى: ٧٤١هـ)، التسهيل لعلوم التنزيل، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، ط ١، ١٤١٦ هـ: ٧٣ / ١، ويطر: الكشف: ٧٤ / ١

الصابرين^١، فذهب الله بذلك النور هو انقطاع المعية التي خص بها أولياءه، فقطعها بينه وبين المنافقين، فلم يبق عندهم بعد ذهاب نورهم ولا معهم، فليس لهم نصيب من قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾^٢ ولا من ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾^٣ وتأمل قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل سبحانه وتعالى بآرهم. ليطابق أول الآية. فإن النار فيها إشراق وإحراق. فذهب بما فيها من الإشراق - وهو النور - وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق، وهو النارية^٤. ومجيء اسم الجلالة يؤثر في قلب القارئ أثراً بالغاً وهو يشعر بقدرة الله الكاملة الكبرى. ويبين الترخشي معنى إسناد الفعل إلى الله تعالى في قوله ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ فيقول "إذا طفت النار بسبب سماوي ريح أو مطر، فقد أطفأها الله تعالى وذهب بنور المستوقد. ووجه آخر، وهو أن يكون المستوقد في هذا الوحد مستوقد نار لا يرضاها الله. ثم إما أن تكون ناراً مجازية كمنار الفتنة والعداوة للإسلام، وتلك النار متقاصرة مدّة اشتعالها قليلة البقاء. ألا ترى إلى قوله ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْخَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾^٥، وإما ناراً حقيقية أوقدها الغواة ليتوصلوا بالاستضاءة بها إلى بعض المعاصي، ويتهودوا بها في طرق العبث، فأطفأها الله وخيب آمانيهم^٦. ورأت الباحثة أن في الآية "المخالفة بين الضميرين فقد وحد الضمير في ﴿اسْتَوْقَدَ﴾ وحوله نظراً إلى جانب اللفظي لأن المنافقين كلهم على قول واحد وفعل واحد،

١ بطر: النقرة: ١٥٣

٢ التوبة: ٤٠

٣ الشعراء: ٦٢

٤ تفسير القيم: ص ١٧٧، ١١٨، ويطر: الكشف: ١ / ٧٤، أمثال القرآن، دراسة وتحقيق: ناصر بن سعد الرشيد،

الناشر مطابع الصفا، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م

٥ المائدة: ٦٤

٦ الكشف: ١ / ٧٤

وأما رعاية جانب المعنى في ﴿يُنُورِهِمْ﴾ و﴿وَتَرْكَهُمْ﴾ فلكون المقام تقبيح أحوالهم وبيان ذاتهم وضلالهم فاثبات الحكم لكل فرد منهم واقع" ١.

جملة ﴿وَتَرْكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ معطوفة على قوله ﴿ذَهَبَ اللَّهُ﴾ ٢. "وتتضمن تقريراً لمضمون ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ لأن من ذهب نوره بقي في ظلمة لا يبصر، والقصد منه زيادة إيضاح الحالة التي صاروا إليها فإن للدلالة الصريحة من الارتسام في ذهن السامع ما ليس للدلالة الضمنية فإن قوله ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ يفيد أنهم لما استوقدوا نارا فانطفأت انعدمت الفائدة وخابت المساعي ولكن قد يذهل السامع عما صاروا إليه عند هاته الحالة فيكون قوله بعد ذلك: ﴿وَتَرْكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ تذكيراً بذلك وتنبهاً إليه، فإنهم لا يقصدون من البيان إلا شدة تصوير المعاني ولذلك يطنبون ويشبهون ويمثلون ويصفون المعرفة ويأتون بالحال ويعددون الأخبار والصفات فهذا إطباب بديع" ٣. وقال عز الدين الدمشقي "حصول الظلمة بعد الضياء أبلغ، لأن من صار في ظلمة بعد ضياء أقل إبصاراً ممن لم يزل فيها، ثم الضياء دخولهم في الإسلام، والظلمة خروجهم منه" ٤. و"جمع ظلمات لقصد بيان شدة الظلمة، قيل لم يرد في القرآن ذكر الظلمة مفرداً، ولعل لفظ ظلمات أشهر إطلاقاً في فصيح الكلام" ٥، وترى الباحثة أن النور هدى الله ﷻ والدين الخالص؛ فهو واحد، أما الكفر والضلال فله طرق

١ محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، دار الإرشاد للشؤون الجامعية، حمص - سورة، ١٤٠٠هـ -

١٩٨٠م: ١ / ٤٥، ويطر: الكشاف: ١ / ٧٤

٢ يطر: الدر المصون: ١ / ١٦٣

٣ التحرير والتنوير: ١ / ٣١٠

٤ أبو محمد عمر الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: ٦٦٠هـ)، تفسير القرآن (وهو اختصار لتفسير الماوردي)، المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم

الوهبي، دار ابن حرم - بيروت، ط ١، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م: ١ / ١٠٦

٥ التحرير والتنوير: ١ / ٣١١

عديدة وصور كثيرة؛ فلهذا استخدمت صيغة الجمع، ويمكن أن يدل التنكير في كلمة 'ظلمات' على التكثير والتحقيق،^١ والله أعلم.

"ومن بدائع هذا التمثيل أنه مع ما فيه من تركيب الهيئة المشبه بها ومقابلتها للهيئة المركبة من حالهم هو قابل لتحليله بتشبيهات مفردة لكل جزء من هيئة أحوالهم بجزء مفرد من الهيئة المشبه بها فشبه استماعهم القرآن باستيقاد النار، ويتضمن تشبيه القرآن في إرشاد الناس إلى الخير والحق بالنار في إضاءة المسالك للسالكين، وشبه رجوعهم إلى كفرهم بذهاب نور النار، وشبه كفرهم بالظلمات، ويشبهون يقوم انقطع إبصارهم"^٢، وقال الإمام الرازي: "فأما تشبيه الإيمان بالنور والكفر بالظلمة فهو في كتاب الله تعالى كثير، والوجه فيه أن النور قد بلغ النهاية في كونه هاديا إلى المحجة وإلى طريق المنفعة وإزالة الحيرة وهذا حال الإيمان في باب الدين، فشبه ما هو النهاية في إزالة الحيرة ووجدان المنفعة في باب الدين بما هو العاية في باب الدنيا، وكذلك القول في تشبيه الكفر بالظلمة، لأن الضال عن الطريق المحتاج إلى سلوكه لا يرد عليه من أسباب الحرمان والتحير أعظم من الظلمة، ولا شيء كذلك في باب الدين أعظم من الكفر، فشبه تعالى أحدهما بالآخر، فهذا هو الكلام فيما هو المقصود الكلي من هذه الآية"^٣.

﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى﴾ "قد سدت عليهم أبواب الهدى الثلاثة. فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب، مما يسمعه بأذنه، ويراه بعينه ويعقله بقلبه. وهؤلاء قد سدت عليهم أبواب الهدى، فلا تسمع قلوبهم شيئا، ولا تبصره، ولا تعقل ما ينفعها. وقيل: لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم نزلوا منزلة من لا سمع له ولا بصر ولا عقل"، كما قال تعالى:

١ يطر . معجم المصطلحات البلاعية: ٢ / ٢٨٢

٢ التحرير والتنوير ١ / ٣١٣

٣ التفسير الكبير ٢ / ٣١٣

٤ تفسير القيم ص ١١٧، ويطر - التسهيل لعلوم التنزيل: ١ / ٧٣

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^١ وهذا تشبيه بليغ "لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون"^٢.

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ "تفريع على جملة ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى﴾ لأن من اعتراه هذه الصفات انعدم منه الفهم والإفهام وتعذر طمع رجوعه إلى رشد أو صواب"^٣، وقال الزمخشري "أنهم لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه، وعن الضلالة بعد أن اشتروها، تسجيلا عليهم بالطبع. أو أراد أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا خامدين في مكانهم لا يبرحون، ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون وكيف يرجعون إلى حيث ابتدءوا منه"^٤. ترى الباحثة أن الله ﷻ أورد الضمير في قوله ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وما قال 'فلا يرجعون'؛ فما السر؟ لعل "ورود الضمير في هذه الصيغة للتأكيد لأن الكلام مع ذكرها أبلغ"^٥.

قد ورد هذا التمثيل زيادة في الكشف وتميماً للبيان حيث يشعر القارئ حالة المنافق القبيحة لأنه فقد بصيرته بعد وصول النور أي الهدى، وفقد النعمة أشد من الحرمان من النعمة دون أن يتلذذ به الإنسان؛ فلذا المنافقون في غاية الحرمان من صلاحية التفكير والتدبر.

ثانياً: الريب والشك

يرى قارئ القرآن الكريم أن المنافقين في ريب مستمر، وليس عندهم نعمة الثبات في الفكر أن الدين عند الله ﷻ الإسلام فقط. هم الذين يظهرون الإيمان لحصول متاع قليل في الدنيا وقلوبهم في شك وريب عن نصر من الله ﷻ للمؤمنين؛ فلهذا كلما أصابتهم محنة ومصيبة يقفون، قد صوّر القرآن أمام القارئ حالتهم السيئة في ريب وتردد في مثال جميل،

١ الخج: ٤٦

٢ الكشف: ٧٧ / ١

٣ التحرير والتوير: ٣١٤ م ١

٤ الكشف: ٧٨ / ١

٥ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٢١٩ / ١

فقال تعالى ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرٌّ يُصْغَرُونَ أَصَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ١. المنافقون يرضون بالحياة الدنيا ولا يقبلون حكم الله ﷻ ورسوله إذا كان خلاف أهوائهم لأنهم لا يؤمنون بالله ﷻ حقاً، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْجِفَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بَلِّغْ لَهُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ٢ وبسبب التشكيك والريبة لا يسلكون طريقاً واحداً باليقين الكامل بل هم مترددون بين الإسلام والكفر ومتحيرون، كما قال تعالى عنهم ﴿مُذْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا﴾ ٣. ويصور لنا القرآن الكريم كيفية تذبذب المنافقين في تمثيل رائع جداً في سورة الحج، فقله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ٤

بعد بيان حال الضالين المجادلين في توحيد الله بلا دليل عقلي أو نقلي بين، أعقب ذلك بذكر حالة المنافقين الفكرية وهي أنهم مذبذبون في دينهم؛ فلا ثبات لهم في عقيدتهم، ولا استقرار لهم في أعمالهم، إن أصابوا نعمة فرحوا بها، وإن نالتهم مصيبة ومحنة في أنفسهم أو أهلهم أو أموالهم انقلبوا وارتدوا على أدبارهم، فما حصلوا إلا حسارة في الدنيا والآخرة. ولنتسبط الآن الألوان البلاغية من الآية.

١ القرة. ١٩، ٢٠

٢ البور ٤٧ - ٥٠

٣ النساء ١٤٣

٤ الحج. ١١

من بلاغة النظم القرآني:

﴿شاك في شيء فهو على حرف لا يثبت ولا يدوم، وتقول: إنما أنت لي على حرف، أي لا أثق بك﴾^١، وقال البقاعي "هو مزلزل كزلزلة من يكون على حرف شفير أو جبل أو غيره، لا استقرار له"^٢، وشرح عز الدين الدمشقي ﴿عَلَى حَرْفٍ﴾ بـ "ميل، أو متحرفاً بين الإيمان والكفر، أو على ضعف في العبادة كالقائم على حرف، نزلت في المنافق يعبد الله - تعالى - بلسانه ويعصيه بقلبه أو في ناس من القبائل وفيمن حول المدينة كانوا يقولون نأتي محمداً ﷺ فإن صادفنا عنده خيراً اتبعناه وإلا لحقنا بأهالينا"^٣. وقال ابن عاشور "هذا تمثيل لحال المتردد في عمله، يريد تجربة عاقبته بحال من يمشي على حرف جبل أو حرف واد فهو متهيء لأن يزل عنه إلى أسفله فينقلب، أي ينكب"^٤. وهذه "الجملة مستأنفة مسوقة لبيان حال المرتابين في إيمانهم الشاكين في دينهم موصوفة بالعبادة القلقة غير المستقرة ولا الثابتة، فهي عرضة للأهواء يعصف بها أقل ما يحدث لهم من بلاء أو ضرر"^٥. ومن المعلوم أن أسلوب بداية الجملة بقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ جاء في الذم غالباً في القرآن الكريم، ولعل صيغة المضارعة تدل على استمرار العبادة على حرف دون ثبات القلب والفكر. ولسيد قطب كلام جميل في توضيح هذا التمثيل حيث يرى أن القرآن الكريم "يريد أن يوضح حالة ترعرع العقيدة، حيث لا يقرّ الإنسان على يقين، ولا يحتمل ما يصادفه من التبدلات بقلب راسخ، ولا يجعل عقيدته في معزل عن ملابسات حياته، بعيدة عن ميزان الريح والخسارة؛ فيرسم لهذا الترعرع صورة تهتز وتترنح، وتوشك على الاهيار، إن الحيال ليكاد يجسم هذا "الحرف" الذي يعبد الله عليه هذا البعض من الناس، وإنه ليكاد يتحيل الاضطراب

١ محار القرآن ٢ / ٤٦

٢ نظم الدرر ١٣ / ١٧

٣ تفسير القرآن (وهو اختصار لتفسير الماوردي) ٢ / ٣٤٦

٤ التحرير والتوير ١٧ / ٢١٢

٥ إعراب القرآن وبيانه: ٦ / ٤٠١

الحسني في وقتهم، وهم يتأرححون بين الثبات والانقلاب، وإن هذه الصورة لترسم حالة التزعزع بأوضح مما يؤديه وصف التزعزع؛ لأنها تطبع في الحس، وتتصل منه بالنفس^١

﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ لعل ورود الفاء دليل على سرعة في رد فعلهم، والله أعلم، كلمة **﴿خَيْرٌ﴾** نكرة فتوجد فيها سعة المعاني؛ أي فإن أصابه وسعة في العيش نحو صح حسده، كثر ماله وولده وماشيته سكن واستبشر ورضي بهذا الخير والدين، فعبد الله، واستخدمت كلمة فتنة و"أصل الفتنة إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، وجعلت الفتنة كالبلاء والعذاب"^٢، فإن أصابه وجع أو وبلاء في جسمه أو ضيق في معيشته أو ولدت امرأته جارية أو فقد ولده؛ فتشاءم بالإسلام وارتد ورجع إلى الكفر القديم. وهذا هو النفاق بعينه كما يظهر من قوله **﴿الَّذِينَ يَتَرَتَّبُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ بِكُمْ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾**^٣.

﴿انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ "انقلب: أي رجع عن عقيدته وإيمانه."^٤ "فالانقلاب مستعمل في حقيقته، والكلام تمثيل. وتفسيرنا الانقلاب هنا بهذا المعنى هو المناسب لقوله على وجهه أي سقط وانكب عليه، وحرف الاستعلاء ظاهر وهو أيضا الملائم لتمثيل أول حاله بحال من هو على حرف"^٥.

١ التصوير العبي: ص ٤٥، ٤٦

٢ المفردات في غريب القرآن: كتاب الفاء تحت مادة من: ص ٣٨٦

٣ النساء: ١٤١

٤ حسن عمر الدين بن حسين بن عبد الفتاح أحمد الحمل، مخطوطة الحمل - معجم وتفسير لعوي لكلمات القرآن،

المطبعة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط ١، ٢٠٠٣ - ٢٠٠٨ م ٣ / ٣٨٤

٥ التحرير والتوير ١٧ / ٢١٣

﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ استخدام الفعل الماضي يدل على التحقق والثبوت في خسارة من يعبد الله على حرف. "الخسر والخسران انتقاص رأس المال" ١ شبه الله ﷻ فائدة الدنيا ونفع الآخرة بمال التاجر الذي يسعى في توفير ماله ولكن فاته النفع المطلوب وأصابته الخسارة، وقد أشار الزمخشري إلى هذه الحقيقة قائلاً "المصاب بالحنة بترك التسليم لقضاء الله والخروج إلى ما يسخط الله: جامع على نفسه محنتين، إحداهما: ذهاب ما أصيب به. والثانية: ذهاب ثواب الصابرين، فهو حسران الدارين" ٢.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْحُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ "الإتيان باسم الإشارة لزيادة تمييز المسد إليه أتم تمييز لتقرير مدلوله في الأذهان. والضمير 'هو' ضمير الفصل، والقصر المستفاد من تعريف المسد قصر ادعائي. ادعى أن ماهية الخسران المبين انحصرت في حسرانهم، والمقصود من القصر الادعائي تحقيق الخبر ونفي الشك في وقوعه. وضمير الفصل أكد معنى القصر فأفاد تقوية الخبر المقصور" ٣.

وفذلكة الكلام أن هذه الأمثال في غاية الوضوح والبيان والتي تبرز أمام القارئ أن المنافق مضطرب مدبذب على المستوى الفكري؛ فليس له ثبات في أمر دينه، بل هو يعبد الله على شرط فإن أصابه حير ونفع بقي مؤمناً، وإن أصابته حنة من مرض أو ضياع مال أو فقد ولد ترك الإسلام وارتد كافراً فما حصل إلا الخسارة.

ثالثاً: حب النفس وكراهية الجهاد في سبيل الله ﷻ

من أحوال المنافقين الفكرية أنهم يحبون الدنيا حباً جماً بل هم مقيدون في سلاسل حب النفس لأنهم لا يرون الحياة إلا متعة وشهوة وغنيمة؛ فيكرهون الجهاد، وتظهر هذه

١ المعردات في عرب القرآن: كتاب الحاء تحت مادة حسر: ص ١٥٣

٢ الكشف: ٣/ ١٤٦، ١٤٧

٣ التحرير والتوير: ١٧/ ٢١٤

الحالة الفكرية بقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿١﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٢﴾ وَيَبْرَزُ اللَّهُ مَخْرَجًا ۖ حَالَةَ الْمَافَقِينَ هَذِهِ بِقَوْلِهِ ﴿إِنْ تُصِيبْكَ حَسَةٌ تَسْأَلُهَا وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَنَسَوَلُوا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ ٢، وقال تعالى ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٣﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ نَبِيَّكُمْ وَتَبَيَّنَهُ مَوَدَّةً يَأْتِيَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ٣ والحق أنهم أصحاب الطمع؛ فيفرون من مواطن الخوف والقتال، ويحرصون على أخذ المِعم وغنائم الحرب فقط، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٤﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنُّ السَّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾

١ النساء. ٧٧، ٧٨

٢ التوبة. ٥٠

٣ النساء. ٧٢، ٧٣

٤ الممتح. ١٢

هنا يبين القرآن الكريم كيف أنَّ هؤلاء المنافقين يعتقدون بأنَّ المؤمنين بما أنهم قليلون في العدد والعدة فلن يفلحوا أبداً ، ولذلك فهم ينتظرون هلاك المؤمنين وانطفاء نور الإسلام كل ذلك بسبب قصر نظرهم وفقدانهم لنور البصيرة والإيمان . ولندرس الآية دراسة بلاغية .

من بلاغة النظم القرآني:

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ "لما

ذكر سبحانه وتعالى أهل بيعة الرضوان، وأضافهم إلى حضرة الرحمن، تشوف السامع إلى الخير عمن غاب عن ذلك الجناح، وأبطأ عن حضرة تلك العمرة، فاستؤنف الإخبار عما يناقون به بقوله تعالى 'سَيَقُولُ' أي بوعد لا خلف فيه، وأكد أمر نفاقهم تنبيهاً على جلدتهم فيه ووقاصهم به ولطف النبي ﷺ وشدة رحمته ورفقه وشفقته فقال **﴿لَكَ﴾** أي لأنهم يعلمون أنك ألطف الخلق عشرة وأعظمهم شفقة على عباد الله، فهم يطمعون في قبولك من فساد عذرهم ما لا يطمعون فيه من غيرك من خلص المؤمنين" ١، وقال ابن عاشور "هذه من معجزات القرآن بالأخبار التي قل وقوعه. فالجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً، وأطلق عليهم المخلفون أي غيرهم خلفهم وراءه، أي تركهم خلفه" ٢، قد تصور كلمة 'المُخَلَّفُونَ' أمام القارئ صورة المنافقين التي وردت في قوله تعالى **﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ جِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾** ٣ فليضحكوا قليلاً ولينبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تُخْرَجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ ٤، "والخالف المتأخر لقصان أو قصور

١ نظم الدرر - ١٨ / ٢٩٩

٢ التحرير والتوير: ٢٦ / ١٦١

٣ التوبة: ٨١ - ٨٣

كالمتحلف.^١ وقال البقاعي "حقر أمرهم بسلب العقل عنهم وجعلهم مفعولين لا فاعلين إشارة إلى أنهم طردوا عن هذا المقام، لأنهم أشرار ولثام، فقال تعالى ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ أي الذين خلفهم الله عنك ولم يرضهم لصحبتك في هذه العمرة، فجعلهم كالشيء التافه الذي يخلفه الإنسان، لأنه لا فائدة فيه فلا يؤبه له ولا يعاب به، وقالوا ﴿شَعَلْتَنَا﴾ أي عن إجابتك في هذه العمرة ﴿أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا﴾ أي لأننا لو تركناها ضاعت، لأنه لم يكن لنا من يقوم بها وأنت قد نهيت عن إضاعة المال والتفريط في العيال"^٢، ويظهر الكذب في قولهم ﴿شَعَلْتَنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا﴾ فاستغفر لنا بكل وضوح لأن اعتذارهم بالشغل في أموالهم وأهلهم خلاف الحقيقة، إذ كان جميع المؤمنين أصحاب الأموال والأهل فهذا كذب منهم. وكانت هذه عادة المنافقين أنهم دائماً يقدمون عذرات كذبة كما ذكر قولهم في سورة الأحزاب ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ❖ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا^٣، ومن المعلوم أن مركز الكذب هو في منطقة الناصية في أعلى ومقدمة الدماغ، أما المعلومات التي يختزنها القلب فهي معلومات حقيقية صادقة، وهكذا فإن الإنسان عندما يكذب بلسانه، فإنه يقول عكس ما يختزنه قلبه من معلومات، ولذلك قال تعالى ﴿يَقُولُونَ بِاللَّيْنَتَيْنِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمَا﴾ فاللسان هنا يتحرك من أمر من الناصية في الدماغ، ولذلك وصف الله هذه الناصية بأنها؛ ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾^٤ والإيمان يكون بالقلب وليس بالدماغ وهكذا يؤكد بعض الباحثين أهمية القلب في الإيمان والعقيدة ولذلك قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا

١ المعردات في عريب القرآن كتاب الحاء، تحت مادة حلف ص ١٦٣

٢ نظم الدرر: ١٨ / ٢٩٩، ٣٠٠

٣ الأحزاب ١٢، ١٣

٤ العلق: ١٦

الرَّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ^١
ولعل صيغة المضارعة **﴿يَقُولُونَ﴾** تدل استمرارهم في الكذب، والله أعلم.

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ ولما كان فعلهم هذا من تحلفهم واعتلاهم وسؤالهم الاستعفار ظناً منهم أنهم يدفعون عن أنفسهم بذلك المكروه ويحصلون لها المحبوب وكان كأنه قيل: قد علم كذبهم، فماذا يقال لهم؟ استأنف سبحانه الجواب بقوله: **﴿قُلْ﴾** أي هؤلاء الأغبياء واعطأ لهم مسيئاً عن مخادعتهم لمن لا يخفى عليه خافية إشارة إلى أن العاقل يقبح عليه أن يقدم على ما تخشى عاقبته **﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ﴾** أيها المخادعون **﴿مِنَ اللَّهِ﴾** أي الملك الذي لا أمر لأحد معه لأنه لا كفوء له **﴿شَيْئًا﴾** يمنعكم منه **﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ﴾** أي خاصة **﴿ضَرًّا﴾** أي نوعاً من أنواع الضرر عظيماً أو حقيراً، فأهلك الأموال والأهلين وأنتم محتاطون في حفظهما فلا ينفعها حضوركم أو أهلككم أنتم **﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾** بحفظهما به مع غيبتكم فلا يضرها بعدكم عنها، ويحفظكم في أنفسكم، وقد علم من تصنيفه سبحانه حالهم إلى صنفين مع الإجماع أنه يكون لبعضهم الضر لأن منهم من ارتد في زمن الردة، وبعضهم النفع لأنه ثبت على الإسلام^٢. "ولا تخلو الآية من الفن المعروف عند علماء البيان باللف. وكان الأصل - والله أعلم - : فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أرد بكم ضراً ، ومن يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعاً ؛ لأن مثل هذا النظم يستعمل في الضر . وكذلك ورد في الكتاب العزيز مطرداً ، كقوله : **﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾**^٣ وأمثاله كثيرة"^٤، وجدت الباحثة أن الله ﷻ خاطب سيدنا محمد ﷺ في سورة الأحزاب أن يخبر المنافقين عن الحقيقة نفسها **﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ**

١ المائدة: ٤١

٢ التحرير والتوير: ٣٠١ / ١٨

٣ المائدة : ١٧

٤ محاسن التأويل للقاسمي: ٢٦ / ٤٩ ، ٥٠

الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتُّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٧﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٨﴾

ثم أبان الله ﷻ لهؤلاء المسافقين أنه عليم بجميع نواياهم في قوله تعالى ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾؛ فيعلم أن تخلفكم لم يكن لما أظهرتم من المعاذير، بل سبب تخلفكم كان حب النفس وكراهية الجهاد في سبيل الله ﷻ لأن الإيمان لم يدخل في قلوبكم، كما صرح في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ ﴿٢٠﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ بل هنا إضراب انتقالي يعني لم يكن تخلفكم لما ذكرتم أي انشغال بالأموال والأهل بل ظننتم أن لن يقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم وأنتم تعيشون كما تشاؤون، وقال صاحب 'في ظلال القرآن': "هكذا يقفهم عرايا مكشوفين، وجهها لوجه أمام ما أضمرُوا من نية، وما سترُوا من تقدير، وما ظنوا بالله من سوء. وقد ظنوا أن الرسول ومن معه من المؤمنين ذاهبون إلى حتفهم، فلا يرجعون إلى أهلهم بالمدينة"^٣.

١ الأحراب: ١٦، ١٧

٢ المحررات: ١٤ - ١٦

٣ في ظلال القرآن: ٨٨ / ٩

﴿وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾"فتمكن فيها، وقرىء على الباء للفاعل وهو الله أو الشيطان، ﴿وَوَظَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ الظن المذكور، والمراد التسجيل عليه بـ 'السَّوْءِ' أو هو وسائر ما يظنون بالله ورسوله من الأمور الزائفة"¹.

﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ هنا سؤال لماذا وصف الله ﷻ هذا القوم بـ 'بُورًا' فقال ابن سكيت "والبُور مصدر بار يبور بُورًا، إذا اختبر، والبُور: الرجل الفاسد الهالك الذي لا خَيْر فيه"²، وقال صاحب النكت والعيون أن "فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: فاسدين، الثاني: هالكين، الثالث: أشرار"³ ولصاحب 'في ظلال القرآن' كلام جميل عن ﴿وَوَظَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ فيقول "كان هذا هو ظن السوء بالله، الناشئ من أن قلوبهم بور. وهو تعبير عجيب موح، فالأرض البور ميتة جرداء، وكذلك قلوبهم، وكذلك هم بكل كيانهم بور، لا حياة ولا خصب ولا إثمار. وما يكون القلب إذ يخلو من حسن الظن بالله؟ لأنه انقطع عن الاتصال بروح الله؟ يكون بورا، ميتا أجرد نهايته إلى البوار والدمار. وكذلك يظن الناس بالجماعة المؤمنة عند ما يبدو أن كفة الباطل هي الراجحة، وأن المؤمنين قلة في العدد، أو قلة في المكان والجاه والمال في كل زمان أن المؤمنين لا يقللون إلى أهلهم أبدا إذا هم واجهوا الباطل المنتفش بقوة الظاهرة. ولكن الله يحيب ظن السوء هذا ويبدل المواقف والأحوال بمعرفته هو، وبتدبيره هو، وحسب ميران القوى الحقيقية. فيحفض به قوما ويرفع به آخرين، من حيث لا يعلم المنافقون الطائنون بالله ظن السوء في كل مكان وفي كل حين!"⁴ وأتار

١ تفسير البصاوي ٢٠٥ / ٥

٢ المؤلف. ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (المتوفى: ٢٤٤هـ)، إصلاح المطلق، المحقق. محمد مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م: ص ٩٨

٣ أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري العدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، تفسير الماوردي - النكت والعيون، المحقق. السيد اسعد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - بيروت /

لبنان ٣١٤ / ٥، ويظهر: مجاز القرآن. ٢ / ٢١٧

٤ في ظلال القرآن ٨٨ / ٩، ٨٩

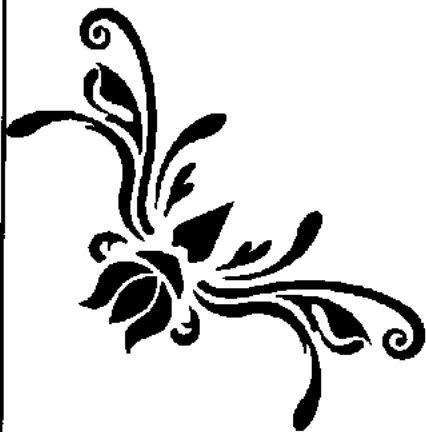
اللَّهُ إِلَى سَوْءِ ظَنِّ الْمُنَافِقِينَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ قَائِلًا: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً
 نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ
 يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ
 يَقُولُونَ لَوْ كَانَتْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ
 عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
 بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١﴾

وترى الباحثة أن الله ﷻ قد بيّن حالة المنافقين الفكرية بكل وضوح حتى لا تخفى
 حالتهم عن أولي الألباب. فهم لا يستخدمون عقولهم ولا يفكرون في دعوة سيدنا محمد ﷺ
 حتى يعرفوا الحق ويدركوا الباطل ويجتنبوه، وبالتالي هم دائماً في حالة الشك والتذبذب؛ فليس
 لهم ثبات في القول ولا في العمل، وهم يحبون أنفسهم أكثر من كل شيء، ويسبب حب
 النفس والمال والجاه يكرهون الجهاد في سبيل الله ﷻ. ويسبب فقد البصيرة وحرمانهم من نور
 الإيمان يظنون أن دعوة سيدنا محمد ﷻ ستغلب، وأن كلمة الكفر ستعلو كلمة الله ﷻ، والحق
 أن كلمة الله ﷻ هي العليا.



المبحث الثاني:

من بلاغة النظم القرآني في بيان أحوال المنافقين العملية المتعلقة بإنكارهم
الدعوة



المدخل:

إن حالة المنافقين الفكرية أدت بهم إلى حالتهم العملية المتشخصة في سلوكهم الظاهري فهم دائما ينشرون كل ما هو شر، ويخفون ما هو خير ومفيد، ويبين القرآن الكريم أن المنافقين يُظهرون أنهم مؤمنون ولكن قلوبهم مليئة بالحقد والعداوة الشديدة للإسلام فيكذبون أمام الرسول ﷺ والمؤمنين ويخدعونهم ويستهزؤون بهم تكبرا وغرورا ويحاولون الصد عن سبيل الله ﷻ كل ما أمكنهم ذلك.

ويمكن تقسيم حالة المنافقين العملية إلى ثلاثة أحوال:

- الكذب والخداع
- الاستكبار والاستهزاء
- المؤامرات المدمرة ضد المصالح الإسلامية

أولاً: الكذب والخداع

المنافقون يخفون كفرهم في أعماق قلوبهم ويقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالِئُومَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ١ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخْدِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ١. ويبين القرآن الكريم أنهم لا يكذبون فحسب بل هم يحلفون بالله ﷻ على الكذب المخدع؛ فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ٢ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢. اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٢ وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أُتِّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ٣ والمراد بالخدياع: إنزال الغير عمًا هو بصدده بأمر يديه على خلاف ما

١ القرة: ٨، ٩

٢ المجادلة: ١٤ - ١٦

٣ الأعمال: ٦٢

يخفيه، وقيل: خَدَعَ الصَّبُّ أَي: استتر في جحره، واستعمال ذلك في الصَّبِّ أنه يعدّ عقرباً تلدغ من يدخل يديه في جحره، حتى قيل: العقرب بَوَّاب الصَّبِّ وحاجبه^١.

ويكشف القرآن الكريم كذبهم بكل صراحة بقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾

وجدت الباحثة آيات كثيرة في القرآن الكريم يفضح الله ﷻ فيها المنافقين ويخبر سيدنا محمداً ﷺ بما يكتُمونه في قلوبهم، وتبين هذه الآيات حالة المنافقين العملية مع بيان أسرارهم وخفائهم، وفي مناسبة نزولها ذكر الإمام القرطبي "عن زيد بن أرقم^٣ قال كنت مع عمي فسمعت عبد الله بن أبي بن سلول يقول: "لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفصوا". وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فذكرت ذلك لعمي فذكر عمي لرسول الله ﷺ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا، فصدقهم

١ المعردات في غريب القرآن: كتاب الحاء، تحت مادة خدع، ص ١٥٠

٢ المنافقون: ١، ٢

٣ زيد بن أرقم بن زيد بن قيس الأنصاري، من مشاهير الصحابة، له عدة أحاديث. شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الدَّقَقِي، سير أعلام السلاء، المحقق: مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرمؤوط، مؤسسة الرسالة: ١٦٠ / ٥

٤ "عبد الله بن أبي بن سلول وهو رأس المنافقين ولاشتهاره بالعاق لم يعد في الصحابة وكان من أعظم أشرف أهل المدينة وكانوا قتل محبته ﷺ قد نظموا له الحرر ليتزوجوه ثم يملكوه عليهم، فلما جاءهم الله تعالى برسوله ﷺ انصرف عنه قومه إلى الإسلام فصنع أي اصمر العداوة لأنه رأى أن رسول الله ﷺ قد مله ملكاً عظيماً فلما رأى قومه قد أنوا الإسلام دخل فيه كاركاً مصراً على النفاق". علي بن برهان الدين الحلبي (الفتاوى ١٠٤٤هـ)، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، دار المعرفة بيروت، ١٤٠٠هـ، ٢ / ٣٣٩

رسول الله ﷺ وكذبي. فأصابني هم لم يصبني مثله، فجلست في بيتي فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ فأرسل إلى رسول الله ﷺ، ثم قال: (إن الله قد صدقك)^١.

وقال الشيخ أحمد مصطفى المراغي "وصف الله تعالى المنافقين بأوصاف هي منتهى الشناعة والقيح:

(١) أنهم كذابون يقولون غير ما يعتقدون.

(٢) أنهم لا يبالون بالحلف بالله كذبا، سترًا لنفاقهم، وحقنا لدمائهم"^٢.

وإذا نظرنا إلى ألوان البلاغة في هذه الآية الكريمة نجدها تحمل في طياتها أساليب بلاغية جميلة فلننتقل إلى الدراسة البلاغية للآية.

من بلاغة النظم القرآني:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ "أي حضروا مجلسك، والمراد بهم عبد الله بن أبي وأصحابه"^٣، وقال ابن عاشور: "لما كان نزول هذه السورة عقب خصومة المهاجرين والأنصار ومقالة عبد الله بن أبي في شأن المهاجرين. تعين أن الغرض من هذه الآية التعريض بكذب عبد الله بن أبي وبنفاقه فصيغ الكلام بصيغة تعم المنافقين لتجنب التصريح بالمقصود"^٤.

"تأكيد المنافقين كلامهم بـ ﴿إِنَّ﴾، و"اللام" في قوله ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ للإيذان بأن شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلوبهم وحلوص اعتقادهم"^٥. قال

١ تفسير القرطبي: ١٨ / ١٢٠، ١٢١

٢ الشيخ أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الناي الحلبي وأولاده بمصر: ٢٨ / ١٠٦

٣ روح المعاني: ١٤ / ٣٠٣

٤ التحرير والتنوير: ٢٨ / ٢٣٤

٥ الشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الحرري الشافعي، تفسير حقائق الروح والريحان في روابي

علوم القرآن، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان،

ط ١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م: ٢٩ / ٣٥٠

أبوحيان "كلمة ﴿تَشْهَدُ﴾ في قوله تعالى ﴿قَالُوا تَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ "يجري مجرى اليمين، ولذلك تلقى بما يتلقى به القسم، وكذا فعل اليقين. والعلم يجري مجرى القسم بقوله ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾، وأصل الشهادة أن يواطئ اللسان القلب هذا بالطق، وذلك بالاعتقاد فأكذبهم الله وفضحهم بقوله ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ أي لم تواطئ قلوبهم ألسنتهم على تصديقك، واعتقادهم أنك غير رسول، فهم كاذبون عند الله وعند من خبر حالهم، أو كاذبون عند أنفسهم، إذ كانوا يعتقدون أن قولهم ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ كذب".^١

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ "جملة معترضة بين الجملتين المتعاطفتين، وهذا الاعتراض لدفع إيهام من يسمع جملة (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون)، أنه تكذيب لجملة (إنك لرسول الله)، فكان المقام مقتضياً دفع الإيهام وهذا من الاحتراز"^٢، وقال الزمخشري "ولو قال ﴿قَالُوا تَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ لكان يوهم أن قولهم هذا كذب، فوسط بينهما قوله والله يعلم إنك لرسوله ليميط هذا الإيهام"^٣.

"والتأكيد بالقسم، ﴿إِنَّ﴾ و"اللام" في قوله ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ زيادة في التقرير والبيان، والإظهار في مقام الإضمار لغرض ذمهم والإشعار بعلية الحكم، وكان الظاهر أن يقال إنهم لكاذبون، لسبق المرجع"^٤.

"والدقة هنا توضح الفرق بين صدق الخبر وكذب الاعتقاد. إذن فصدق المخبر أن يطابق الكلام الاعتقاد. وعندما يقرأ بعض الناس القرآن دون فهم اللغة العربية؛ فيفهم بالسطحية هذه الآية فهما خاطئاً؛ فيقولون: كيف يشهد الله أنهم كاذبون، على الرغم من أنه سبحانه يعلم مثلما شهد المنافقون؟ ونرد: إن الخبر هنا لم يكن كذباً، ولم يقل الحق ما يكذب

١ البحر المحيط ١٠ / ١٧٩

٢ التحرير والتوير ٢٨ / ٢٣٥

٣ الكشف. ٤ / ٥٣٩

٤ تفسير حدائق الروح والريحان في روائع علوم القرآن: ٢٩ / ٣٥٠

الخبر، لكنه أوضح صدق الخبر وكذب المنافقين في شهادتهم لأنهم يظهرون غير ما يظنون ويعتقدون، فالتكذيب منصب على شهادتهم لا على خبر أن محمداً رسول الله^١.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَازًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاجًا لِمَنْ حَارَتْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَخْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^٢، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^٣.

"في هذه الآية مبحث بلاغي في تقسيم الكلام إلى خير وإشياء فقالوا الخبر ما احتمل الصدق والكذب لذاته، فذهب الجمهور إلى أنه يحصر فيهما بلا واسطة، والمخير إما صادق وإما كاذب، وهذا بناء على مطابقة الخبر للواقع أو عدم مطابقتها، ولا علاقة له بالاعتقاد"^٤.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ استئناف بياني لأن تكذيب الله تعالى إياهم في قولهم للنبي ﷺ: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ يشير في أنفس السامعين سؤالاً عن أيمانهم لدى النبي ﷺ بأنهم مؤمنون به وأنهم لا يضمرون بغضه فأخبر الله عنهم بأنهم اتخذوا أيمانهم تقية يتقون بها وقد وصفهم الله بالحلف بالأيمان الكاذبة في آيات كثيرة من القرآن^٥. وكلمة أيمان من اليمين "واليمين في الحلف مستعار من اليد اعتباراً بما يفعله المعاهد والمخالف"^٦ "وسمى شهادتهم تلك أيماناً. ولما ذكر أنهم كاذبون، أتبعهم بموجب كفرهم، وهو

١ تفسير الشعراوي. ٤/٢٥١٠، ٢٥١١

٢ التوبة ١٠٧

٣ الحشر: ١١

٤ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الحكي الشقبي (المتوفى: ١٢٩٣هـ)، أصواء البيان في إيصال

القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م: ١٨٩/٨،

وبسطة - الكشف: ٤/٥٣٩

٥ التحرير والتوير. ٢٨/٢٣٦

٦ المفردات في غريب القرآن: كتاب الباء، تحت مادة بين: ص ٥٧٨

اتخاذ أيمانهم جنة يستترون بها، ويدبون بها عن أنفسهم وأموالهم^١. وأصل كلمة "جنة" جن والمراد بها ستر الشيء وتستخدم للترس الذي يحق صاحبه^٢، والمعنى: إن المنافقين إذا ظهر شيء من نفاقهم أو سمعت عنهم كلمة كفر، حلفوا بالله أنهم ما قالوا ذلك وما فعلوه، فيجعلون حلفهم ترسا يقيهم من مؤاخذه النبي ﷺ بذنبهم^٣. كما قال تعالى ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾^٤ ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾^٥ ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَمَانُونَ﴾^٦ وقال ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾^٧، ﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^٨ رأت الباحثة أن القرآن الكريم يستخدم صيغة المضارع أكثر من موضع تذكيراً بعادة المنافقين في أحلافهم الكاذبة، ولكن قال هنا ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ فلعل مجيء الفعل الماضي يدل على التحقق والثبوت.

توجد "الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ لأن اليمين حقيقة في الجارحة، فاستعير للحلف اعتباراً بما يفعله المحالف عنده من المصافحة، وفي قوله ﴿جُنَّةً﴾ لأن الجنة حقيقة فيما يستتر به ويتقى به من المخذور كالترس، ثم استعير لما يجعلونه وقاية لدمائهم وأموالهم أو إظهار الإسلام^٩.

١ البحر المحيط: ١٠ / ١٧٩

٢ ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب الجيم، تحت مادة جن: ص ١٠٣

٣ أضواء البيان: ٨ / ١٩٠

٤ التوبة: ٦٢

٥ النساء: ٦٢

٦ التوبة: ٧٤

٧ السورة نفسها: ٥٦

٨ السورة نفسها: ٩٦

٩ تفسير حدائق الروح والريحان في روائع علوم القرآن: ٢٩ / ٣٥٠

فلما شبهت الأيمان بالجنة على طريقة التشبيه البليغ، أتبع ذلك بتشبيه الحلف باتخاذ الجنة^١

﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هو تعقيب على قوله تعالى **﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾** والفاء

للسببية، أي أنهم بسبب ما نسجوا للكذب من أيمان فاجرة، بدا لهم أن هذا النسيج يستر نفاقهم، ولهذا صدوا عن سبيل الله، واتخذوا سبيلا غير سبيل المؤمنين، وهم على ظن بأن أحدا لن يراهم، على غير طريق الإيمان، وهم مستجنون بهذه الأيمان التي بذلوا لها بسخاء، في معرض الإخبار عن أنهم مؤمنون بالله ورسوله^٢، وقال ابن عجيبة "فصدوا من أراد الدحول في الإسلام بإلقاء الشبه، وصدوا من أراد الإنفاق في سبيل الله بالنهي عنه"^٣.

"وفي قوله تعالى **﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** معنى التعجب الذي هو تعظيم أمرهم

عند السامعين ذلك إشارة إلى قوله ساء ما كانوا يعملون أى ذلك القول الشاهد عليهم بأنهم أسوأ الناس أفعالا"^٤.

وترى الباحثة أن هذه الآيات تصور لنا حالة المنافقين العملية وهي الكذب ومحاولة

الخداع، ولكن يكشف الله أستار كذبهم والخداع، ويتركهم مكشوفين أمام المؤمنين لكي يحذر منهم ولا يعتمدون عليهم أبداً.

ثانياً: الاستكبار والاستهزاء

ذكرنا في الحالة الفكرية للمنافقين حقيقة مثيرة للاشمئزاز وهي أنهم يزعمون أنهم أذكىاء

والآخرون سمهاء، ولهذا فإن عنصر الاستكبار والاستهزاء بالمؤمنين كان من أهم سمات

هؤلاء المنافقين، كما قال تعالى: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ**

١ التحرير والتبوير ٢٨ / ٢٣٦

٢ التفسير القرآني للقرآن ١٤ / ٩٥٧

٣ البحر المديد: ٧ / ٤٧

٤ الكشف: ٤ / ٥٣٩، ويطر. البحر المديد: ٧ / ٤٧

السُّفَهَاءُ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا
إِلَى شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ۚ ﴿٢﴾ ويكشف الله ﴿٣﴾ أنهم يستهزؤون بالله
وآياته ورسوله سيدنا محمد ﴿٤﴾: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ
وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ
نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ۚ﴾ وكذلك ذم الله ﴿٦﴾ لمر المنافقين لسيدنا محمد ﴿٧﴾ بشأن
الصدقات في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا
مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ ٢ وبالإضافة إلى ذلك فإن هؤلاء المنافقون لا ينفقون في سبيل الله بل
يسخرون من المؤمنين الذين يجاهدون في سبيل الله بأنفسهم، فأشار إليهم سبحانه وتعالى في
قوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا
جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ١

ولنتقل الآن إلى استنباط الألوان البلاغية من هذه الآية المباركة.

من بلاغة النظم القرآني:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ "استئناف ابتدائي،
و﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ مبتدأ وخبره جملة ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ ٥، اللمز: "الاعتياب وتنبع

١ القرة ١٣، ١٤

٢ التوبة ٦٥، ٦٦

٣ السورة نفسها ٥٨

٤ السورة نفسها ٧٩

٥ التحرير والتوير ١٠ / ٢٧٤، ٢٧٥

المعاب" ١، "ولما كان اللمر هو العيب، وهو ينظر إلى الخفاء كالغمر، ومادته بكل ترتيب تدور على اللزوم، والمعنى: يلرمون المطوعين عيباً ولا يظهرون ذلك لكل أحد وإنما يتحافتون به فيما بينهم، وهو يرجع إلى الهزء والسخرية، سبب عنه قوله ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ ٢، "والمطوعين أصله المتطوعين، أدمت التاء في الطاء لقرب مخرجيهما، وفي للظرفية المجازية يجعل سبب اللمر كالطرف للمسبب، واختير المضارع في يلرمون ويسخرون للدلالة على التكرار" ٣. "والتطوع التسفل، وهو الطاعة لله تعالى بما ليس بواجب، والجهد شيء قليل يعيش به المقل، فالمراد بالمطوعين في الصدقات، أولئك الأغنياء الذين أتوا بالصدقات الكثيرة ويقولون ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أبو عقيل؛ حيث جاء بصاع من تمر. إن أولئك الجهال من المنافقين ما كان يتجاوز نظرهم عن ظواهر الأمور؛ فعيروا ذلك الفقير الذي جاء بالصدقة القليلة، وذلك التعبير يحتمل وجوها: الأول: أن يقولوا إنه لفقره محتاج إليه، فكيف يتصدق به؟ إلا أن هذا من موجبات الفضيلة، كما قال تعالى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ٥ وثانيها: أن يقولوا أي أثر لهذا القليل؟ وهذا أيضا جهل، لأن هذا الرجل لما لم يقدر إلا عليه فإذا جاء به فقد بذل كل ما يقدر عليه فهو أعظم موقعا عند الله من عمل غيره، لأنه قطع تعلق قلبه عما كان في يده من الدنيا، واكتفى بالتوكل على المولى. وثالثها: أن يقولوا إن هذا الفقير إنما جاء بهذا القليل ليضم نفسه إلى الأكابر من الناس في هذا المنصب، وهذا أيضا جهل، لأن سعي الإنسان في أن يضم نفسه إلى أهل الخير والدين،

١ المبررات في غريب القرآن كتاب اللام تحت مادة لمز، ص ٤٧٣

٢ نظم الدرر: ٥٥٦ / ٨

٣ التحرير والتوير: ٢٧٥ / ١٠

٤ حجاب أبو عقيل الأنصاري هو الذي لمره المنافقون لما جاء بصاع من تمر صدقة، فأمر الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الحرري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، المحقق. علي محمد

معوض - عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤ م ١ / ٦٦٧

٥ الحشر ٩

خير له من أن يسعى في أن يضم نفسه إلى أهل الكسل والبطالة" ١. "وعطف ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ على ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ وهم منهم، اهتماما بشأنهم والجهد- يضم الجيم- الطاقة. وأطلقت الطاقة على مسببها الناشئ عنها. وحذف مفعول ﴿يَجِدُونَ﴾ لظهوره من قوله ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ أي لا يجدون ما يتصدقون به إلا جهدهم. والمراد لا يجدون سبيلا إلى إيجاد ما يتصدقون به إلا طاقتهم، أي جهد أبدانهم" ٢، والفعل المضارع في ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ يدل على استمرار السخرية.

وأما قوله ﴿سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ "فالمراد أنه تعالى قبل من هؤلاء المنافقين ما أظهره من أعمال البر مع أنه لا يشيهم عليها، فكان ذلك كالسخرية" ٣. وقال ابن عاشور "واسناد سحر إلى الله ﷻ على سبيل المجاز الذي حسنته المشاكلة لفعلهم، والمعنى أن الله عاملهم معاملة تشبه سحرية الساخر، على طريقة التمثيل، وذلك في أن أمر نبيه بإجراء أحكام المسلمين على ظاهريهم زمنا ثم أمره بفضحهم. ويجوز أن يكون إطلاق سخر الله منهم على طريقة المجاز المرسل، أي احتقرهم ولعنهم ولما كان كل ذلك حاصلا من قبل عبر عنه بالماضي في سحر الله منهم" ٤. وهناك فرق بين كلمة استهزاء وسخرية؛ "فالإنسان يستهزأ به من غير أن يسبق منه فعل يستهزأ به من أجله، والسخر يدل على فعل يسبق من المسخور منه، ويجوز أن يقال أصل سحرت منه التسخير، وهو تذليل الشيء" ٥.

١ التفسير الكبير: ١٦ / ١١٠، ١١١

٢ التحرير والتنوير: ١٠ / ٢٧٥

٣ التفسير الكبير: ١٦ / ١١١

٤ التحرير والتنوير ١٠ / ٢٧٥

٥ الإمام الأديب اللعوي أبو هلال المسكري، العروق اللعوية، تحقيق: عماد زكي السارودي، دار التوفيقية للتراث،

القاهرة، ١٤١٩هـ، ص ٢٦٨، ٢٦٩

"وزادهم قوله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي بما كانوا يؤلمون القلوب من ذلك وإذا حوققوا عليه دفعوا عن أنفسهم ما يردعهم عنه بالأيمان الكاذبة" ^١ وجملة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ "عطف على الخير، أي سخر منهم وقضى عليهم بالعذاب في الآخرة" ^٢، ولعل تقديم الجار والمجرور في قوله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يفيد التخصيص، والله أعلم. يكشف القرآن الكريم حالة المنافقين المستكبرين المستهزئين بالمؤمنين المصدقين في سبيل الله ﷻ، ولا ينفقون في سبيل الله ﷻ إلا رياء وكرهاً لأنهم بخلاء.

ثالثاً: المؤامرات المدمرة ضد المصالح الإسلامية

يعلن المنافقون أنهم المصلحون والحق أنهم هم المفسدون، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ^٣ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ^٤ ويذكر القرآن الكريم شواهد عديدة على مؤامرات المنافقين الشرسة في آيات كثيرة لا يمكن إحصاؤها هنا نكتفي بذكر بعض منها؛ وهي قوله تعالى ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا حِلَالَكُمْ يَبْعُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ^٥ لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى خَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ^٦ وقال تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا﴾ ^٧، وقد أعلن الله ﷻ أن المنافقين يصدون عن سبيل الله بكل قوة عكس المؤمنين الصادقين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؛ فقال: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ نَعْصٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ

١ نظم الدرر: ٥٥٦ / ٨

٢ التحرير والتبوير: ٢٧٦ / ١٠

٣ النقرة: ١٢، ١١

٤ التوبة: ٤٧، ٤٨

٥ النساء: ٩١

الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ^١ وكشف الله ﷻ خبث باطنهم حتى في بناء المسجد فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٦﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدَ أُسَسِّ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾^٢، وأبرز القرآن الكريم أن المنافقين استخدموا كل أنواع الدسائس والمكائد في سبيل هدم الإسلام وهلاك المسلمين؛ فتظهر جهودهم الرذيلة في إشاعة حديث الإفك^٣، وانسلاهم عن جيش المسلمين يوم غزوة أحد^٤، وأخذهم اليهود أولياءهم، والنجوى^٥ خلاف رسول الله ﷺ والمسلمين، وإذاعة أمر الخوف^٦ دون أن يردوه إلى الرسول ﷺ. ويكشف الله ﷻ باطل المنافق، ويخبر المؤمنين عن خبث المنافق خلف شخصيته الظاهرة في قوله:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٧﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٨﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادَ﴾^٧

قد نزلت هذه الآية في "الأخنس بن شريق"^٨ كان رجلاً حلو المنطق، إذا لقي رسول الله ﷺ ألان له القول وادعى أنه يحبه وأنه مسلم وقال: يعلم الله أني صادق. وقيل: هو عام في المنافقين^٩، وترى الباحثة أن الآية تفيد معنى العموم وإن كان نزولها في شخص معين. والله أعلم.

- ١ التوبة ٦٧
- ٢ السورة نفسها ١٠٧، ١٠٨
- ٣ البور ١١
- ٤ آل عمران ١٦٧
- ٥ المجادلة ٨
- ٦ النساء ٨٣
- ٧ النقرة ٢٠٤، ٢٠٥
- ٨ الأخنس بن شريق.

من بلاغة النظم القرآني:

جملة ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ﴾^٢ عطف ٢ على جملة ﴿فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾^٣ إلخ، لأنه ذكر هنالك حال المشركين الصرحاء الذين لا حظ لهم في الآخرة، وقابل ذكرهم بذكر المؤمنين الذين لهم رغبة في الحسنة في الدنيا والآخرة، فانتقل هنا من حال فريق إلى حال فريق آخر ممن لا حظ لهم في الآخرة وهم متظاهرون بأنهم راغبون فيها، مع مقابلة حالهم بحال المؤمنين الخالصين الذين يؤثرون الآخرة والحياة الأبدية على الحياة في الدنيا، وهم المذكورون في قوله ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾^٤، و﴿مَنْ﴾ بمعنى بعض فهي صالحة للمصدق على فريق^٥، وترى الباحثة أن بداية الآية بأسلوب ﴿وَمَنْ النَّاسِ﴾ وهو أسلوب الذم في القرآن الكريم في كثير من الأحيان. ﴿مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ أي "يروقك ويعظم في قلبك ومنه الشيء العجيب الذي يعظم في النفس"^٦، لأن يراد به "استعظام أمر ظاهر المزية خافي السبب"^٧، كما فسر ابن عاشور ﴿يُعْجِبُكَ﴾ "والإعجاب إيجاد العجب في النفس والعجب: انفعال يعرض للنفس عند مشاهدة أمر غير مألوف خفي سببه. ولما كان شأن ما يخفى سببه أن ترغب فيه النفس، صار العجب مستلزماً للاستحسان فيقال أعجبنى الشيء بمعنى أوجب لي استحسانه"^٨، وهنا سؤال بم يتعلق قوله ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؟ فيجيب الزمخشري: "أى يعجبك ما يقوله في معنى الدنيا لأن ادعاءه المحبة بالباطل

١ الكشاف: ٢٥٠ / ١، ويطر: تفسير الطبري: ٢٣٢ / ٤

٢ ينظر: التفسير الكبير: ٣٤٣ / ٥

٣ البقرة: ٢٠٠

٤ البقرة: ٢٠٧

٥ التحرير والتنوير: ٢ / ٢٦٥، ٢٦٦

٦ الكشاف: ٢٥٠ / ١

٧ المعجم الوسيط: ٥٨٤ / ٢

٨ التحرير والتنوير: ٢ / ٢٦٦

يطلب به حظاً من حظوظ الدنيا ولا يريد به الآخرة، كما تراد بالإيمان الحقيقي والمحبة الصادقة للرسول فكلامه إذا في الدنيا لا في الآخرة. ويجوز أن يتعلق بـ"يعجبك"، أي قوله حلو فصيح في الدنيا فهو يعجبك، ولا يعجبك في الآخرة لما يرهقه في الموقف من الحبسة واللكنة، أو لأنه لا يؤذن له في الكلام فلا يتكلم حتى يعجبك كلامه"^١

﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ فالمعنى أنه يقرر صدقه في كلامه ودعواه بالاستشهاد بالله، ثم يحتمل أن يكون ذلك الاستشهاد بالحلف واليمين، أي هذا القائل يشهد الله على ما في ضميره، وأن الله يعلم من قلبه خلاف ما أظهره، وهذا يدل على الدم"^٢ **﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾** "الألد الخصيم الشديد"^٣ "وجعل الخصام ألد على المبالغة، بمعنى وهو أشد الخصوم خصومة وإذا تولى عنك وذهب بعد إلانة القول وإحلاء المنطق"^٤، وهي "كلمة متحركة تثقل صورة مركبة"^٥.

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ ولما ذكر أنه ألد شرع يذكر وجه لده فقال عاطفاً على ما تقديره: فإذا واجهك اجتهد في إظهار أنه مصلح أو تكون جملة حالية **﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾** أي أعرض بقلبه أو قاله عن خدعه بكلامه، وكنى بالتعبير بالسعي عن الإسراع في إيقاع الفتنة بغاية الجهد فقال: **﴿سَعَى﴾** ونه على كثرة فساده بقوله **﴿فِي الْأَرْضِ﴾** أي كلها بفعله وقوله عند من يوافقه **﴿لِيُفْسِدَ﴾** أي ليوقع الفساد وهو اسم لجميع المعاصي **﴿فِيهَا﴾** أي في الأرض في ذات البين لأجل الإهلاك والناس أسرع شيء إليه فيصير له مشاركون في أفعال الفساد"^٦ "وقيل **﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾** وإذا كان واليا فعل ما يفعله ولاية السوء من

١ الكشاف: ٢٥١ / ١

٢ التفسير الكبير: ٣٤٥ / ٥

٣ المفردات في غريب القرآن: كتاب اللام تحت مادة لد، ص ٤٦٨

٤ الكشاف: ٢٥١ / ١

٥ إعراب القرآن وبيانه: ٣٠٤ / ١

٦ نظم الدرر: ١٧١ / ٣

الفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسل"^١، القول الراجح عند الإمام الرازي "وإذا انصرف من عندك سعي في الأرض بالفساد لأن أقرب إلى نظم الآية، لأن المقصود بيان نفاقه، وهو أنه عند الحضور يقول الكلام الحسن ويظهر المحبة، وعند الغيبة يسعى في إيقاع الفتنة والفساد"^٢، ويجوز أن يختار كلا المعنيين كما رأى ابن عاشور لأن الأخنس كان زعيم مواليه وهم بنو زهرة^٣.

ذكر الإمام الرازي في تفسير ﴿وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ رأيين؛ فقال: "من فسر الفساد بالتخريب قال: إنه تعالى ذكره أولاً على سبيل الإجمال، وهو قوله: ﴿لَيُفْسِدَ فِيهَا﴾ ثم ذكره ثانياً على سبيل التفصيل فقال: ﴿وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾"^٤،

وقال الإمام البقاعي: "بين أنه يصل بإفساده إلى الغاية بقوله مسمى المحرث حرثاً مبالغة: ﴿وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ﴾ أي المحرث الذي يعيش به الحيوان، سماه حرثاً لأنه الذي نسبه إلى الخلق، ولم يسمه زرعاً لأن ذلك منسوب إلى الحق، ولأنه إذا هلك السبب هلك المسبب من غير عكس ﴿وَالنَّسْلَ﴾ أي المنسل الذي به بقاء نوع الحيوان. والآية من الاحتباك، ذكر أولاً الإفساد ليدل على حذفه ثانياً وثانياً الإهلاك ليدل على حذفه أولاً، وذكر الحرث الذي هو السبب دلالة على الناسل والنسل الذي هو المسبب دلالة على الزرع فهو احتباك ثان"^٥.
وجملة ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ التذييل وهي وردت تحذيراً وتوبيخاً، ولعل الجملة الاسمية ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ تدل على دوام هذه الحقيقة، ومجيء اسم الجلالة يزيد معنى الجملة قوة، وإشعاراً بالهيبة. واستخدام الفعل الماضي في ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ و ﴿سَعَى﴾ يدل على الثبوت

- ١ الكشاف: ٢٥١ / ١
- ٢ التفسير الكبير: ٣٤٧ / ٥
- ٣ بطر. التحرير والتوير: ٢ / ٢٦٨
- ٤ التفسير الكبير: ٣٤٧ / ٥
- ٥ نظم الدرر: ١٧٢ - ١٧٤ / ٣
- ٦ بطر. التحرير والتوير: ٢ / ٢٧٠

والتحقق، واستعملت صيغة المضارعة في **﴿يُفْجِكُ قَوْلُهُ﴾** و**﴿يُشْهِدُ﴾** و**﴿يُفْسِدَ فِيهَا﴾** و**﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾**، و**﴿لَا يُحِبُّ﴾** للاستمرار في هذه الأفعال، والله أعلم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ﴾ " (ال) في **﴿الْعِزَّةُ﴾** للعهد أي العزة المعروفة لأهل الجاهلية التي تمنع صاحبها من قبول اللوم أو التغيير عليه، لأن العزة تقتضي معنى المنعة فأخذ العزة له كناية عن عدم إصغائه لصح الناصحين. وقوله **﴿بِالْإِثْمِ﴾** الباء فيه للمصاحبة أي أخذته العزة الملازمة للإثم والظلم وهو احتباس لأن من العزة ما هو محمود قال تعالى: **﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾**^١ وقوله **﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلِبَاسُ الْمِهَادِ﴾** تفريع على هاته الحالة^٢، "حسبه! ففيها الكفاية! جهنم التي وقودها الناس والحجارة. جهنم التي يككب فيها الغاوون وجنود إبليس أجمعون. جهنم الحطمة التي تطلع على الأفئدة. جهنم التي لا تبقي ولا تذر. جهنم التي تكاد تميز من الغيظ! حسبه جهنم **﴿وَلِبَاسُ الْمِهَادِ﴾** وبها للسحرية القاصمة في ذكر **﴿الْمِهَادِ﴾** هنا.. وبها لبؤس من كان مهاده جهنم بعد الاعتزاز والنفخة والكبرياء!"^٣ وقال البقاعي في قوله **﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾** "ولما كان هذا الشأن الخبيث شأنه دائماً يمهّد به لنفسه التمكين مما يريد سبب عنه قوله: **﴿فَحَسْبُهُ﴾** أي كفايته **﴿جَهَنَّمُ﴾** تكون مهاداً له كما مهّد للفساد، وتخصيص هذا الاسم المنبئ عن الجهامة في المواجهة أي الاستقبال بوجه كره لما وقع منه من المواجهة لمن أمره من مثله"^٤.

ويرسم القرآن الكريم أمامك صورة واضحة لحالة المنافقين العملية- وهي الاعتزاز بالإثم واللدد في الخصومة والقسوة في الفساد والفجور في الإفساد- كأنك ترى كائناً "حياً يتحرك. تقول في غير تردد: هذا هو. هذا هو الذي عناه القرآن! وأنت تراه أمامك ماثلاً في الأرض الآن

١ المنافقين ٨

٢ التحرير والتوير ٢ / ٢٧١

٣ في طلال القرآن ١ / ٢٠٥

٤ نظم الدرر: ٣ / ١٧٥

وفي كل آن! وفي مواجهة هذا الاعتزاز بالإثم واللدد في الخصومة والقسوة في الفساد والفجور في الإفساد.. في مواجهة هذا كله يجيبه السياق باللطمة اللاتقة بهذه الجيلة النكدة^١.

الخلاصة:

حاولت الباحثة تناول حديث القرآن الكريم عن أحوال المنافقين الفكرية والعملية من خلال الفصل الأول؛ فلاحظت أن القرآن الكريم يصور أحوال المنافقين الكفرية الضالة نحو عدم صلاحية التعقل والتدبر، والريب والشك، وحب النفس وكراهية الجهاد كما يذكر أحوالهم العملية الشرسة وهي الكذب والخداع، والاستكبار والاستهزاء، والمؤامرات المدبرة للمصالح الإسلامية ويحذر المؤمنين من هؤلاء المخادعين وحيلهم.

واستخدم القرآن الكريم الألوان بلاغية متنوعة لكشف أحوال المنافقين الفكرية والعملية، فوردت أسماء الإشارة، والتأكيد، والاستئناف، والفصل والوصل، والمجاز المرسل، والإضراب الانتقالي، والتذييل، والتشبيه، والتمثيل، والاستعارة، والكناية، كما أتى القرآن الكريم بالفعل المضارع والماضي والجمل الاسمية والمفردات التي تكمن وراءها الأسرار البلاغية الرائعة التي أبرزت ملامح النفاق في غاية الوضوح بالإضافة إلى التأثير العميق في قلب القارئ بسبب معرفة علامات النفاق.



الفصل الثاني:

من بلاغة النظم في حديث القرآن عن جزاء المنافقين

يتكون هذا الفصل من مبحثين:

المبحث الأول

من بلاغة النظم القرآني في بيان جزاء المنافقين في الدنيا

المبحث الثاني:

من بلاغة النظم القرآني في بيان جزاء المنافقين في الآخرة



فاتحة:

حاولت الباحثة تبين حالة المنافقين الفكرية والعملية المتعلقة بإنكار دعوة سيدنا محمد ﷺ في الفصل الأول، واستخرجت الألوان البلاغية من الآيات المتعلقة بأحوال المنافقين الفكرية والعملية قدر المستطاع، أما الفصل الثاني فسوف يشتمل على بيان جراء المنافقين في الدنيا والآخرة في ضوء القرآن الكريم، ومحاولة متواضعة استنباط الألوان البلاغية من خلال دراسة الآيات الواردة في جراء المنافقين في الدنيا والآخرة.



المبحث الأول:

من بلاغة النظم القرآني في بيان جزاء المنافقين في الدنيا



المدخل:

لم يكشف القرآن الكريم حالة المنافقين الفكرية والعملية بكل صراحة فحسب بل أخبر قارئه أن المنافقين من الأشقياء في الدنيا والأخسرين أعمالاً في الآخرة بسبب تذبذبهم بين الإيمان والكفر. وبعد التفكير في القرآن الكريم من الممكن أن يقال بأن المكافأة الشاملة لأفعال المنافقين في هذا الدنيا هي حالة الخوف الدائم، والحرمان من التوفيق بالهدى والعمل الصالح المقبول، ومعية الشيطان الذي استحوذ عليهم فأنساهم ذكر الله ﷻ، وسؤل لهم الارتداد.

يحتوي هذا المبحث على محاولة متواضعة في بيان جزاء المنافقين في الدنيا بسبب إنكارهم دعوة سيدنا محمد ﷺ من خلال دراسة بلاغية للآيات المختارة، والله المستعان.

• الخوف والقلق الدائم من الفضيحة

• عدم قبول التصديق

• الارتداد وتغلب الذلة والهوان

أولاً: الخوف والقلق الدائم من الفضيحة

المنافقون جناء بأنهم يحبون الدنيا أكثر من أي شيء فلا يجدون الهمة والجرأة ليجاهدوا في سبيل الله ﷻ بأنفسهم وأموالهم كما جاء في سورة الأحزاب: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ❀ أشحّة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالنسنة حذاد أشحّة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأخبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ١ وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ

الْمَوْتِ^١ ومع خوف الموت من جزاء المنافقين في الدنيا الخوف والقلق الدائم من الفضيحة بكشف مرض النفاق الذي هو عميق الجذور في قلوبهم؛ فزادهم الله مرضاً في قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ^٢﴾، وأبان سبب الطبع على قلوبهم قائلاً: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ^٣﴾ وقال ﷺ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ^٤﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ^٥﴾ ويصرح القرآن الكريم خوف المنافقين قائلاً: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِرُوا إِنَّ اللَّهَ تَخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ^٦﴾ وترى الباحثة أن هذا الخوف يصل إلى درجة يجدون أنفسهم مجبورين على إتيان المساجد للصلاة ولو كانوا كارهين لذلك؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُتَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا^٧﴾

والمنافق مجبر أن يعمل كأعمال المسلمين ولكن لا يتذوق حلاوة الإيمان وطمأنينة القلب؛ فيجد نفسه في الضيق وكل ما عنده من مال ووجاهة ومكانة لن تفيده في الدنيا والآخرة؛ فحياة المنافق في الدنيا حياة شقية مليئة بالخوف الدائم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشِبَتْ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاخْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْى يُؤْفَكُونَ^٨﴾.

١ محمد: ٢٠

٢ النقرة: ١٠

٣ المنافقون: ٣

٤ محمد: ٢٩، ٣٠

٥ التوبة: ٦٤

٦ النساء: ١٤٢

٧ المنافقون: ٤

تمثل هذه الآية صورة للمنافقين في ظاهرها وباطنها جميعاً؛ لأن المنافق يخدع الناس بالألوان الزاهية وتجميل ظاهره ولكن يخفى ما في باطنه من الحقد للإسلام والخوف والقلق الدائم من فضيحة كشف حقيقته. ذكر الزمخشري: "كان عبد الله بن أبي رجلا جسيما صبيحا، فصيحاً، ذلق اللسان وقوم من المنافقين في مثل صفته، وهم رؤساء المدينة، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيستندون فيه، ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن فكان النبي ﷺ ومن حضر يعجبون بمياكلهم ويسمعون إلى كلامهم" ١. تبين الآية أن قلوب المنافقين مليئة بالخوف، وهذا نوع من جزائهم في الدنيا بسبب خيارهم العاجلة، وحبهم الشديد للدنيا. أما الألوان البلاغية في الآية فهي كالآتي:

من بلاغة النظم القرآني:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ "هذا انتقال إلى وضع بعض أحوالهم التي لا يبرزونها إذا جاؤوا إلى النبي ﷺ ولكنها تبرز من مشاهدتهم، وجملة ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ معطوفة على جملة ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ٢ واقعة موقع الاحتراس والتسميم لدفع إيهام من يفره ظاهر صورهم" ٣.

﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ "بيان لما يتجمل به حديثهم، من طلاوة الأسلوب، وتأنيق العبارة، ورقة اللفظ.. وهذا ضرب من الخداع والتزييف، حيث يدس السم في العسل، وحيث تروج العملة الزائفة بلمعائها وبريقها" ٤. ولعل الالفعل المضارع ﴿تَسْمَعُ﴾ يوحي معنى الاستمرار في الاستماع بسبب حلاوة كلامهم الخادع، والله أعلم.

١ الكشاف ٤/ ٥٤٠، ويطر: تفسير الثعلبي: ٩/ ٣٢٠

٢ المنافقون: ٣

٣ التحرير والتنوير: ٢٨/ ٢٣٨

٤ الدكتور / عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، دار البشر: دار الفكر العربي، القاهرة: ١٤/ ٩٦

﴿كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ "شبهوا في استنادهم- وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير- بالخشب المسندة إلى الحائط ولأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع، وما دام متروكا فارغا غير منتفع به أسند إلى الحائط، فشبهوا به في عدم الانتفاع. ويجوز أن يراد بالخشب المسندة: الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحيطان، شبهوا بها في حسن صورهم وقلة جدواهم"^١، قال الإمام ابن الجوزي: "وصفهم الله بحسن الصور، وإبانة النطق، ثم أعلم أنهم في ترك التفهم والاستبصار بمنزلة الخشب. والمسندة: الممالة إلى الجدار. والمراد: أنها ليست بأشجار تثمر وتنمي، بل هي خشب مسندة إلى حائط"^٢، وذكر الإمام الرازي وجوها أخرى لهذا التشبيه فقال: "الخشب المسندة في الأصل كانت غصنا طريا يصلح لأن يكون من الأشياء المنتفع بها، ثم تصير غليظة يابسة، والكافر والمنافق كذلك كان في الأصل صالحا لكذا وكذا، ثم يخرج عن تلك الصلاحية، و الكفرة من جس الإنس حطب، كما قال تعالى: ﴿خَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾"^٣ والخشب المسندة حطب أيضا، وأن الخشب المسندة إلى الحائط أحد طرفيها إلى جهة، والآخر إلى جهة أخرى، والمنافقون كذلك، لأن المنافق أحد طرفيه وهو الباطن إلى جهة أهل الكفر، والطرف الآخر وهو الظاهر إلى جهة أهل الإسلام، والمعتمد عليه الخشب المسندة ما يكون من الجمادات والنباتات، والمعتمد عليه للمنافقين كذلك، وإذا كانوا من المشركين إذ هو الأصنام، إنما من الجمادات أو النباتات. ومن المباحث أنه تعالى شبههم بالخشب المسندة، ثم قال من بعد ما ينافي هذا التشبيه وهو قوله تعالى ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو﴾ والخشب المسندة لا يحسبون أصلا، نقول: لا يلزم أن يكون المشبه والمشبه به يشتركان في جميع الأوصاف، فهم كالخشب المسندة بالنسبة إلى الانتفاع وعدم الانتفاع، وليسوا كالخشب

١ الكشاف. ٤ / ٥٤٠

٢ راد المسير: ٤ / ٢٨٨

٣ الأنبياء: ٩٨

المسندة بالنسبة إلى الاستماع وعدم الاستماع للصيحة وغيرها^١. وقال عبد الكريم يونس الخطيب إن هذه "إشارة إلى أن هذا الذي يبدو من المنافقين من حسن المظهر، ورقة الكلام، ونعومة اللفظ - لا يعدو هذا الظاهر من القوم.. إنهم أشبه بالخشب المسندة، لا حياة فيها، ولا وزن لها، وإن زينت بالخلي، وكسيت بالحرير.. ثم إن المنافقين، وإن بدوا في ظاهريهم على صورة واحدة، فإنهم في حقيقتهم، أشتات متفرقون، لا تجمعهم مشاعر الود، ولا تؤلف بينهم صلات هذا المعتقد الفاسد الذي يدينون به.. تماما كالخشب المسندة، كل كتلة منها قائمة إلى جوار غيرها، لا تشعر بها، ولا تحس بوجودها"^٢.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ "يحسب هؤلاء المنافقون من خبثهم وسوء ظنهم، وقلة يقينهم كل صيحة عليهم، لأنهم على وجل أن ينزل الله فيهم أمرا يهلك به أستارهم ويفضحهم، ويبيح للمؤمنين قتلهم، وسي ذرائعهم، وأخذ أموالهم، فهم من خوفهم من ذلك كلما نزل بهم من الله وحي على رسوله، ظنوا أنه نزل بهلاكهم وعطبتهم. يقول الله جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: هم العدو يا محمد فاحذروهم، فإن ألسنتهم إذا لقوكم معكم وقلوبهم عليكم مع أعدائكم، فهم عين لأعدائكم عليكم"^٣. قال النيسابوري: "يحسبونها واقعة عليهم صادرة لهم لجنبتهم والصيحة كنداء المناادي في العسكر ونحو ذلك"^٤، "وهذه مبالغة في وصفهم بالجن"^٥. واستخدام الفعل المضارع ﴿يَحْسَبُونَ﴾ يصور أمام القارئ كيفية الخوف المستمر في قلوبهم الوجلة، ولعل تنكير كلمة ﴿صَيْحَةٍ﴾ يفيد الهول والرعب، والله أعلم. وقال سعدي: "هو وصف كاشف لما يروج به باطن المنافقين من وساوس، وتصورات، لا تقيمهم أبدا إلا على فرع، وتحوف، لأنهم دائما متلبسون بجرائم من الكذب والبهتان، فهم لهذا

١ التفسير الكبير . ٣٠ / ٥٤٨

٢ تفسير القرآني للقرآن ١٤ / ٩٦٠

٣ تفسير الطبري: ٢٣ / ٣٩٥، ٣٩٦

٤ تفسير النيسابوري: ٦ / ٣٠٥

٥ راد المسير: ٤ / ٢٨٨

مطاردون من أنفسهم، يريدون الإفلات من قبضة هذه المشاعر المستولية عليهم، ولهذا أيضا تراهم على حذر، وتوقع لتلك الأيدي الكثيرة الممتدة إليهم، تحاول أن تدهمهم في أية لحظة.. ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾.. سواء اتجهت إليهم أو لم تتجه، وسواء أكانوا هم المقصودين بما أم غيرهم.. وهكذا المجرم، لا يفارقه أبدا وجه جرمته، في يقظة أو منام^١.

﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ "أي هم الكاملون في العداوة والراسخون فيها، والغاء في قوله تعالى ﴿فَاخْذِرْهُمْ﴾ لترتيب الأمر بالحذر على كونهم أعدى الأعداء، والعدو: اسم يقع على الواحد والجمع. والمراد: الحذر من الاغترار بظواهرهم الخلابة لئلا يخلص المسلمون إليهم بسرهم ولا يتقبلوا نصائحهم خشية المكائد. والخطاب للنبي ﷺ ليلفغه المسلمين فيحذروهم^٢، وقال سيد قطب: "هم العدو الحقيقي. العدو الكامن داخل المعسكر، المختبئ في الصف. وهو أخطر من العدو الخارجي الصريح"^٣. والتعريف في العدو تعريف الجنس الدال على معين كمال حقيقة العدو فيهم، لأن أعدى الأعداء العدو المتظاهر بالموالاة وهو مداح وتحت ضلوعه الداء الدوي. وعلى هذا المعنى رتب عليه الأمر بالحذر منهم^٤، وهو "خير كاشف عن حقيقة هؤلاء المنافقين، وأنهم على ما يبدو منهم، من ظاهر مغلف بالتلطف والتودد- هم العدو، الذي تتجسم فيه العداوة كلها، حتى لكأنهم العدو وحدهم للنبي، دون الناس جميعا، ﴿فَاخْذِرْهُمْ﴾ فاء التعقيب لأن العاقل يحذر العدو عندما يعرف عداوته ولا يعطيه فرصة ليقدره، وهو تعقيب على هذا الخبر عن المنافقين، وأنه إذ علم أنهم هم العدو الذي يخفى وراء ظاهره، كيداً، ويضمّر في باطنه سوءاً فيجب الحذر منهم، والحيلة من الأمان لهم، والالتحام لكل قول يقولونه، أو ود يظهرهونه"^٥. ولعل الجملة الاسمية ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ تفيد الدوام

١ تفسير القرآني للقرآن: ١٤ / ٩٦٠

٢ تفسير أبي السعود: ٨ / ٢٥٢

٣ في طلال القرآن: ٦ / ٣٥٧٥

٤ التحرير والتوير: ٢٨ / ٢٤١

٥ تفسير القرآني للقرآن: ١٤ / ٩٦١

يعني هم الأعداء طول حياتهم، والله أعلم. ﴿قَاتِلْهُمْ اللَّهُ﴾ "دعاء عليهم وطلب من ذاته أن يلعنهم ويخزيهم وتعليم للمؤمنين أن يدعوا بذلك، و ﴿أَنْتَ يُؤْفَكُونَ﴾ أي يعدلون عن الحق تعجبا من جهلهم وضلالتهم وظنهم الفاسد أنهم على الحق"^١. وقال ابن عاشور: جملة ﴿قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنْتَ يُؤْفَكُونَ﴾ "تذيل فإنه جمع على الإجمال ما يغني عن تعداد مذامهم كقوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾"^٢، مسوق للتعجيب من حال توغلهم في الضلالة والجهالة بعدولهم عن الحق، فافتتح التعجيب منهم بجملة أصلها دعاء بالإهلاك والاستئصال ولكنها غلب استعمالها في التعجب أو التعجيب من سوء الحال الذي جره صاحبه لنفسه فإن كثيرا من الكلم التي هي دعاء بسوء تستعمل في التعجيب من فعل أو قول مكروه مثل قولهم: ثكلته أمه، وويل أمه. وترتبت يمينه. واستعمال ذلك في التعجب مجاز مرسل للملازمة بين بلوغ الحال في السوء وبين الدعاء على صاحبه بالهلاك، إذ لا نفع له ولا للناس في بقائه، ثم الملازمة بين الدعاء بالهلاك وبين التعجب من سوء الحال. فهي ملازمة بمرتبتين كناية رمزية. و﴿أَنْتَ﴾ هنا اسم استفهام عن المكان. وأصل أنت ظرف مكان وكثر تضمينه معنى الاستفهام في استعماله، وقد يكون للمكان المجازي فيفسر بمعنى (كيف) كقوله تعالى: ﴿قُلْتُمْ أَنْتَ هَذَا﴾"^٣، وفي قوله: ﴿أَنْتَ لَهمُ الدِّكْرَى﴾"^٤. ومنه قوله هنا أنت يؤفكون، والاستفهام هنا مستعمل في التعجيب على وجه المجاز المرسل لأن الأمر العجيب من شأنه أن يستفهم عن حال حصوله. فالاستفهام عنه من لوازم أعجوبته. فجملة ﴿أَنْتَ يُؤْفَكُونَ﴾ بيان للتعجيب الإجمالي المقاد بجملة قاتلهم الله. و ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون يقال: أفكه، إذا صرفه وأبعده، والمراد: صرفهم عن الهدى، أي كيف أمكن لهم أن يصرفوا أنفسهم عن الهدى، أو كيف أمكن لمضليلهم أن

١ التفسير الكبير: ٥٤٧/٣٠

٢ النساء: ٦٣

٣ آل عمران: ١٦٥

٤ الدخان ١٣

يصرفوهم عن الهدى مع وضوح دلائله"^١. وقال عبدالكريم يونس الخطيب إن في قوله تعالى ﴿أَنْتَ يُؤْفَكُونَ﴾ "استفهام يراد به الإنكار عليهم لهذا الطريق الذي أخذوه إلى مواقع الضلال.. أي كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل، وعن الهدى إلى الضلال؟"^٢، ولكن ترى الباحثة أن التعجيب راحح هنا. وهذا شيء عجاب أن المنافقين استبدلوا الكفر والضلال بنور الإيمان والهدى؛ حتى جرؤوا بحمل عداوة الله ﷻ، ورسوله والمؤمنين مع أنهم في حالة الخوف المستمر بسبب ما كانوا يعملون.

ثانياً: عدم قبول التصدق

المنافقون شديداً العداوة للإسلام فلا يحبون إنفاق أموالهم بل ويصدون الآخرين من الإنفاق في سبيل الله ﷻ كما قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ۚ وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾^٣، والصدقة تطهر النفوس والأموال كما قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ الْبَقَايَ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^٤؛ فهؤلاء المنافقون الأشد نفاقاً لا ينفقون ولا يتصدقون إلا للرياء أو السمعة وهم كارهون؛ فقال الله ﷻ في شأنهم:

١ التحرير والتوضيح: ٢٤٢/٢٨، ٢٤٣

٢ التفسير القرآني للقرآن: ١٤ / ٩٦١

٣ المنافقون. ٧

٤ التوبة. ١٠١ - ١٠٤

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾^١
وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ
الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ^٢ ﴿فَلَا تُغْنِجُكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا
أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِمَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ
كَافِرُونَ﴾^٣

ومن المعلوم أن الصدقة تطهر النفوس والأموال، وتكون وقاية من الآفات؛ فهي نعمة
من الله ﷻ خاصة للمؤمنين، أما المنافقون؛ فمن جزائهم في الدنيا أن صدقاتهم لا تقبل بل إن
أموالهم وأولادهم تزيد من عذابهم في الدنيا كما بيّنت هذه الآيات. ولنستخرج الألوان البلاغية
من هذه الآية الكريمة على النحو الآتي:

من بلاغة النظم القرآني:

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾ إن سئل "كيف أمرهم بالإنفاق ثم
قال لن يتقبل منكم؟ فالجواب هو أمر في معنى الخبر، كقوله تبارك وتعالى ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي
الضَّلَالَةِ فَلَيْمَذْدُ لَهُ الرَّحْمَنُ مَذًّا﴾^٤ ومعناه: لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً^٥، وهو "ابتداء
كلام هو جواب عن قول بعض المستأذنين منهم في التخلف «وأنا أعينك بمالي». روي أن
قائل ذلك هو الجدل بن قيس^٦، أحد بني سلمة، الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ
إِذْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي﴾^٧ كما تقدم، وكان منافقاً. وكأنهم قالوا ذلك مع شدة شحهم لأنهم ظنوا

١ التوبة ٥٣-٥٥

٢ مريم- ٧٥

٣ الكشاف ٢/ ٢٦٩

٤ يطر: تفسير الطبري. ١٤. ٢٩٤ أيضاً

٥ التوبة. ٤٩

أن ذلك يرضي النبي ﷺ عن قعودهم عن الجهاد. وقوله: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي بمال تبذلونه عوضاً عن الغزو، أو بمال تنفقونه طوعاً مع خروجكم إلى الغزو، فقوله: طوعاً إدماجاً لتعميم أحوال الإنفاق في عدم القبول فإنهم لا ينفقون إلا كرهاً، والأمر في أنفقوا للتسوية أي: أنفقوا أو لا تنفقوا، كما دلت عليه أو في قوله طوعاً أو كرهاً وهو في معنى الخبر الشرطي لأنه في قوة أن يقال: لن يتقبل منكم إن أنفقتم طوعاً أو أنفقتم كرهاً^١.

﴿إِنْ كُنْتُمْ كُفْرًا فَاسْقِينِ﴾ أي عاتين متمردين تعليل لرد إنفاقهم^٢، "وما الغرض في نفي التقبل، أهو ترك رسول الله ﷺ تقبله منهم، وردّه عليهم ما يبذلون منه، أم هو كونه غير مقبول عند الله تعالى، ذاهباً هباء لا ثواب له؟ فالجواب: يحتمل الأمرين جميعاً"^٣.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ ظاهر اللفظ يدل على أن منع القبول بمجموع الأمور الثلاثة، وهي الكفر بالله ورسوله، وعدم الإتيان بالصلاة إلا على وجه الكسل، والإنفاق على سبيل الكراهية^٤. والمراد بالكفر هنا "أن ألسنتهم لم تنطق بالشهادة، لا، فقد شهد المنافقون قولاً، ولكن هناك فرق بين قوله اللسان وتصديق الجنان؛ فالإيمان محله القلب، والمنافقون جمعوا بين لسان يشهد وقلب ينكر، فأعطاهم الرسول ﷺ حق شهادة اللسان، فلم يتعرض لهم ولم يأسرهم ولم يقتلهم، وأعطاهم الحقوق المادية نفسها المساوية لحقوق المؤمنين، وكل ذلك احتراماً لكلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» التي نطقوا بها؛ ولأن باطنهم قبيح، فالحق ﷻ يجازيهم بمثل ما في باطنهم، ويعاقبهم، فلا يأخذون ثواباً على ما يفعلونه ظاهراً وينكرونه باطناً. وهكذا كان التعامل معهم منطقياً ومناسباً. فما داموا قد أعطوا ظاهراً، فقد

١ التحرير والتبوير: ٢٢٥، ٢٢٦

٢ تفسير أبي السعود: ٧٤ / ٤

٣ تفسير القاسمي: ٤٣٣ / ٥

٤ التفسير الكبير ٦٩ / ١٦

أعطاهم الله حقوقاً ظاهرة؛ ولأنهم لم يعطوا باطناً طيباً، فلم يُعْطِهِمُ اللهُ غيباً من ثوابه وغيباً من جنته وعاقبهم بناره".^١

والفعل المضارع في جملة: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ يدل على استمرار كسلهم في الصلاة وكرههم الإنفاق في سبيل الله ﷺ.

﴿فَلَا تُغْنِيكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِمَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

"الإعجاب بالشيء: أن يُسَرَّ به سرور راض به متعجب من حسنه. والمعنى: فلا تستحسن ولا تفتن بما أوتوا من زينة الدنيا، كقوله تعالى ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾^٢ فإن الله تعالى إنما أعطاهم ما أعطاهم للعذاب، بأن عرضه للتغنى والسي، وبلاهم فيه بالآفات والمصائب، وكلفهم الإنفاق منه في أبواب الخير، وهم كارهون له على رغم أنوفهم، وأذاقهم أنواع الكلف والمجاشم في جمعه واكتسابه وفي تربية أولادهم"^٣. وفسر الإمام الرازي أنواع العذاب فقال: "المنافقون مخصوصون بزيادات في العذاب: أحدها: أن الرجل إذا آمن بالله واليوم الآخر علم أنه خلق للآخرة لا للدنيا، فبهذا العلم يفتّر حبه للدنيا، وأما المنافق لما اعتقد أنه لا سعادة/ إلا في هذه الخيرات العاجلة عظمت رغبته فيها، واشتد حبه لها، وكانت الآلام الحاصلة بسبب فواتها أكثر في حقه، وتقوى عند قرب الموت وظهور علاماته، فهذا النوع من العذاب حاصل لهم في الدنيا بسبب حب الأموال والأولاد. وثانيها: أن النبي ﷺ كان يكلفهم إنفاق تلك الأموال في وجوه الخيرات، ويكلفهم إرسال أموالهم وأولادهم إلى الجهاد والغزو، وذلك يوجب تعريض أولادهم للقتل، والقوم كانوا يعتقدون أن محمداً ﷺ ليس بصادق في كونه رسولا من عند الله وكانوا يعتقدون أن إنفاق تلك الأموال تضييع لها من غير فائدة، وأن

١ تفسير الشعراوي: ٩/ ٥١٨٨

٢ طه ١٣١

٣ الكشف: ٢/ ٢٨٠، ٢٨١

تعريض أولادهم للقتل التزام لهذا المكروه الشديد من غير فائدة، ولا شك أن هذا أشق على القلب جدا، فهذه الزيادة من التعذيب، كانت حاصلة للمنافقين. وثالثها: أنهم كانوا ييغضون عمداً بقلوبهم، ثم كانوا يحتاجون إلى بذل أموالهم وأولادهم ونفوسهم في خدمته، ولا شك أن هذه الحالة شاقة شديدة. ورابعها: أنهم كانوا خائفين من أن يفتضحوا ويظهر نفاقهم وكفرهم ظهورا تاما، فيصيرون أمثال سائر أهل الحرب من الكفار، وحينئذ يتعرض الرسول ﷺ لهم بالقتل، وسي الأولاد ونهب الأموال، وكلما نزلت آية خافوا من ظهور الفضيحة، وكلما دعاهم الرسول ﷺ خافوا من أنه ربما وقف على وجه من وجوه مكرمهم وخبثهم وكل ذلك مما يوجب تألم القلب ومزيد العذاب. وخامسها: أن كثيرا من المنافقين كان لهم أولاد أتقياء، كحظلة بن أبي عامر غسلته الملائكة، وعبد الله بن عبد الله بن أبي، شهد بدرا وكان من الله بمكان، وهم حلق كثير مبرؤن عن النفاق وهم كانوا لا يرتضون طريقة آبائهم في النفاق، ويقدحون فيهم، ويعترضون عليهم، والابن إذا صار هكذا عظم تأذي الأب به واستيحاشه منه، فصار حصول تلك الأولاد سببا لعذابهم. وسادسها: أن فقراء الصحابة وضعافهم كانوا يذهبون في خدمة الرسول ﷺ إلى الغزوات، ثم يرجعون مع الاسم الشريف والثناء العظيم والفوز بالعنائم. وهؤلاء المنافقون مع الأموال الكثيرة والأولاد الأقوياء، كانوا يبقون في زوايا بيوتهم أشباه الرمنى والصغفاء من الناس، ثم إن الخلق ينظرون إليهم بعين المقت والازدراء والسمة بالنفاق، وكأن كثرة الأموال والأولاد صارت سببا لحصول هذه الأحوال، فثبت بهذه الوجوه أن كثرة أموالهم وأولادهم صارت سببا لمزيد العذاب في الدنيا في حقهم".

وفي جملة: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ "قدم الأموال على الأولاد لأنها كانت أعلق بقلوبهم، ونفوسهم أميل إليها، فإنهم كانوا يقتلون أولادهم خشية ذهاب أموالهم". وقال الشعراوي إن في جملة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ "اللام هنا في «لِيُعَذِّبَهُمْ» هي لام تدخل

١ التفسير الكبير: ١٦ / ٧٣

٢ البحر المحيط ٥ / ٤٣٧

على الفعل واسمها «لام العاقبة». وهي تعني أننا ربما نقوم بالفعل لهدف معين، ولكن قد تكون عاقبته شيئاً آخر تماماً غير الذي قصدناه، بل ربما تكون عكس الذي قصدناه. وعندما نقرأ القرآن نجد قول الحق ﷻ: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾^١ هل التقط آل فرعون موسى ﷺ ليكون لهم عدواً؟ أم ليكون قرة عين لهم؟ هم قد التقطوه ليكون قرة عين لهم، ولكن الذي حدث كان عكس ما قصدوه ساعة قيامهم بفعل الالتقاط، فبدلاً من أن يصبح موسى قرة عين، أصبح عدواً لفرعون بل كان سبباً في زوال ملكه، إذن هذه هي لام العاقبة^٢.

﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾^٣ يعني وتخرج أنفسهم، فيموتوا على كفرهم بالله، وحودهم نبوة نبي الله محمد ﷺ^٤، وقال أبوحيان: "والذي يظهر من حيث عطف ﴿وَتَزْهَقَ﴾ على ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ أن المعنى ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ونبه على عذاب الآخرة بعلته وهو زهوق أنفسهم على الكفر، لأن من مات كافراً عذب في الآخرة لا محالة. والظاهر أن زهوق النفس هنا كناية عن الموت"^٥، وقال الشوكاني: "الزهوق: الخروج بصعوبة، والمعنى: أن الله يريد أن تزهق أنفسهم، وتخرج أرواحهم حال كفرهم، لعدم قبولهم لما جاءت به الأنبياء، وأرسلت به الرسل، وتصميمهم على الكفر وتماديهم في الضلالة"^٦. وقال الشعراوي إن الآية: ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ "معنيين: المعنى الأول: أن النعمة تظل معهم تلهيهم عن الله ﷻ حتى تأتي ساعة الموت. والمعنى الثاني: أن ساعة الموت تكون شاقة وصعبة على الكافر والمسايق؛ لأنه يترك الأموال والأولاد ويذهب إلى العذاب"^٧.

١ القصص ٨

٢ تفسير الشعراوي. ٥١٩١/٩، ٥١٩٢

٣ تفسير الطبري: ٢٩٧/١٤

٤ البحر المحیط ٤٣٦/٥، ٤٣٧

٥ فتح القدير: ٤٢٢/٢

٦ تفسير الشعراوي: ٥٢٠٣/٩

تصور الآيات أمام القارئ أن المنافقين في حالة الكرب في الدنيا ولو كانوا كثيري الأموال والأولاد- وهما علامتان للخير والنعمة- ولكن المنافقين معذبون بهما في الدنيا؛ فتصيران نعمتين لهم. وتشعر الباحثة أن هذه الآية تدل على حرمان المنافقين من التوفيق لعمل الأعمال الصالحة- التي تجعل حياة المؤمنين سعيدة، وتطمئن نفوسهم- فالمنافقون يعيشون في حالة شقاء مع أنهم أصحاب ثروة وأولاد.

ثالثاً: الارتداد وتغلب الذلة والهوان

استبدل المنافقون الكفر بنعمة الإسلام، ونسوا الله ﷻ فأخذوا أعداء الإسلام أولياء فكتب الله ﷻ عليهم الذلة والهوان، وزين لهم الشيطان الكفر والارتداد، وغلب عليهم حتى نسوا ذكر الله ﷻ؛ كما قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٣﴾ لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤﴾ يَوْمَ يَنْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَخْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿٥﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٧﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَى أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

قد وجدت الباحثة أن أقطع جزاء للمنافقين في الدنيا جاء ذكره في سورة محمد وهو تسويل الارتداد وتغلب الذلة والهوان، يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴿١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي

بَغْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهِ يَغْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٨﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ
وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَخْبَطَ
أَعْمَاهُمْ ﴿٣٠﴾

نزلت هذه الآيات في المنافقين^١ الذين كانوا يتولّون أهل الكتاب ومن المعلوم أن أهل
الكتاب كرهوا نبوة سيدنا محمد ﷺ مع أنهم كانوا ينتظرون خاتم النبيين والسبب كان الحسد
والحق لأهم كانوا يتوقعون أن تكون الرسالة الأخيرة فيهم، وأن يكون خاتم الرسل منهم
وكانوا يستفتحون على الذين كفروا وبعدهم بظهور النبي الذي يقودهم ويمكن لهم في الأرض
، ويسترجع ملكهم وسلطانهم. فلما اختار الله آخر رسله من نسل إبراهيم، من غير يهود ،
كرهوا رسالته^٢؛ فجزاء المنافقين في الدنيا- بسبب ولاية أهل الكتاب وحمائهم في حرب
الدس والمكر والكيد خلاف الإسلام- ولاية الشيطان الذي سؤل لهم الارتداد، وسلط
الله ﷻ عليهم الذلة والهوان.

من بلاغة النظم القرآني:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ "والارتداد على
الأدبار على هذا الوجه: تمثيل للراجع إلى الكفر بعد الإيمان بحال من سار ليصل إلى مكان
ثم ارتد في طريقه. ولما كان الارتداد سيرا إلى الجهة التي كانت وراء السائر جعل الارتداد إلى
الأدبار، أي إلى جهة الأدبار. وجيء بحرف ﴿عَلَى﴾ للدلالة على أن الارتداد متمكن من
جهة الأدبار كما يقال: على صراط مستقيم. والهدى: الإيمان، وتبين الهدى لهم على هذا

١ محمد: ٢٥-٢٨

٢ بطر: تفسير الطبري ١٨٠ / ٢٢

٣ في طلال القرآن. ٦ / ٣٢٩٧، ٣٢٩٨

الوجه تبين حقيقي لأنهم ما آمنوا إلا بعد أن تبين لهم هدى الإيمان^١. ولعل الفعل الماضي في جملة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾ تدل على الثبوت والتحقق.

﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ "التسويل تزيين النفس لما تحرص عليه وتصوير القبيح منه بصورة الحسن"^٢، كما قال سيدنا يعقوب عليه السلام لإحوة سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾^٣ فزين لهم الشيطان الأدبار والارتداد، ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ "أي أمهل"^٤ كما قال تعالى: ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ إِنَّ كَيِّدِي مَتِينٌ﴾^٥، فقال الإمام الطبري: "ومدَّ الله عليه السلام لهم في آجالهم ملاوة من الدهر، ومعنى الكلام: الشيطان سول لهم، والله عليه السلام أملى لهم"^٦.

قال الزمخشري: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ "جملة من مبتدأ وخبر وقعت خيرا لإن، أي سهل لهم ركوب العظائم، وأملى لهم ومد لهم في الآمال والأمان. وقرئ وأملى لهم، يعني: إن الشيطان يغويهم وأنا أنظرهم، كقوله تعالى ﴿إِنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ﴾"^٧، والجملة الاسمية تدل على الدوام يعني غلب عليهم الشيطان فغواهم وزين لهم أعمال الشر وطريق الكفر. قال ابن عطية: "هو الشيطان جعل وعده الكاذب بالبقاء كالإملاء، وذلك أن الإملاء هو الإبقاء ملاوة من الدهر، يقال ملاوة وهي القطعة من الزمن، ومنه المملوء الليل والنهار، فإذا أملى الشيطان إملاء لا صحة له إلا بطمعهم الكاذب، ويحتمل أن يكون الفاعل في أملى الله عز

١ التحرير والتنوير: ١١٥ / ٢٦

٢ المفردات في غريب القرآن: كتاب السين، تحت مادة سول، ص ٢٥٨

٣ يوسف: ١٨

٤ المفردات في غريب القرآن: كتاب الميم، تحت مادة ملا، ص ٤٩٥

٥ الأعراف: ١٨٣

٦ تفسير الطبري: ١٨١ / ٢٢

٧ آل عمران: ١٧٨

٨ الكشاف: ٣٢٦ / ٤

وحل، كأنه قال: الشيطان سول لهم وأملى الله لهم. وحقيقة الإملاء إنما هو بيد الله عز وجل، وهذا هو الأرجح^١.

في جملة **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾** "ذَلِكَ" إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم، وهو مبتدأ حبره قوله تعالى: **﴿بِأَنَّهُمْ﴾** أي بسبب أنهم **﴿قَالُوا﴾** يعني المنافقين المذكورين **﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾** أي لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله ﷺ مع علمهم بأنه من عند الله ﷻ حسدا وطمعا في نزوله عليهم، فإن قوله **﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾** عبارة قطعا عما حكى عنهم بقوله ﷻ: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾**^٢ وهم بنو قريظة وبنو النضير الذين كانوا يوالونهم ويوادونهم، وأرادوا بالبعض الذي أشاروا إلى عدم إطاعتهم فيه إظهار كفرهم وإعلان أمرهم بالفعل قبل قتالهم وإخراجهم من ديارهم فإنهم كانوا يأبون ذلك قبل مساس الحاجة الضرورية الداعية إليه لما كان لهم في إظهار الإيمان من المنافع الدنيوية^٣.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ "قالوا ذلك سرا فيما بينهم، فأفشاء الله عليهم"، "أي إحقاءهم لما يقولونه لليهود . وقرئ أسرارهم أي جميع أسرارهم التي من جملتها قولهم هذا ، والجملة اعتراض مقرر لما قبله متضمن للإفشاء في الدنيا والتعذيب في الآخرة"^٤. ولهم أسرار

١ المحرر الوجيز: ١١٩/٥

٢ الحشر: ١١

٣ تفسير أبي السعود: ١٥٩/٦، ١٦٠

٤ الكشف: ٣٢٧/٤

٥ تفسير أبي السعود: ١٦٠/٦

كثيرة خلاف دعوة سيدنا محمد ﷺ، "فلذلك فضحهم، وبينها لعباده المؤمنين، لئلا يعترفوا بها"^١، وتدل الجملة الاسمية على الثبوت والدوام في علم الله عزوجل عن أسرارهم.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ﴾ "وهو مشهد مفرع مهين. وهم يحتضرون. ولا حول لهم ولا قوة. وهم في نهاية حياتهم على هذه الأرض. وفي مستهل حياتهم الأخرى. هذه الحياة التي تفتتح بضرب الوجوه والأذبار. في لحظة الوفاة، لحظة الضيق والكرب والمخافة. الأذبار التي ارتدوا عليها من بعد ما تبين لهم الهدى! فيالها من مأساة! **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ، وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ، فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾** فهم الذين أرادوا لأنفسهم هذا المصير واختاروه. هم الذين عمدوا إلى ما أسخط الله من نفاق ومعصية وتآمر مع أعداء الله وأعداء دينه ورسوله فاتبعوه. وهم الذين كرهوا رضوان الله فلم يعملوا له، بل عملوا ما يسخط الله ويعضبه .. **﴿فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾** .. التي كانوا يعجبون بها ويتعجبون ويحسبونها مهارة وبراعة وهم يتآمرون على المؤمنين ويكيدون. فإذا بهذه الأعمال تتضخم وتنتفح. ثم تهلك وتضيع!"^٢

وخلاصة القول أن المنافقين في حالة فظيعة في الدنيا بسبب سلوكهم الخادع. فهؤلاء يحبون الدنيا أكثر من كل شيء، ويحاولون أن يجمعوا أكثر فأكثر؛ ليس لهم نصيب وافر من الدنيا ولا حظ لهم في الآخرة. لا يئلذون من الدنيا كما يشاؤون ثم يردون إلى عذاب مهين ساعة نزع أرواحهم.

١ تفسير السعدي: ص ٨٩٨

٢ في طلال القرآن ٦٠ / ٣٢٩٨



المبحث الثاني:

من بلاغة النظم القرآني في بيان جزاء المنافقين في الآخرة



المدخل:

من المعلوم أن القرآن الكريم كشف كل غطاء عن المنافقين لكي يحذر المجتمع الإسلامي من شر هؤلاء الفاسقين الذين يتسببون في تدمير قيم المجتمع بمؤامرتهم الشنيعة، ولكن في كثير من الأحيان يشاهد الإنسان أن المنافقين لا يزالون يتمتعون بحظ وافر من الدنيا، ولا يتم كشفهم ليتوقفوا عن الكيد ضد الإسلام والمسلمين. وفقاً لفكر الباحثة يكمن السبب فيما ذكره الله ﷻ في سورة التوبة مرتين بأسلوب خاص: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ثم قال ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾^١ - يمهلهم الله ﷻ لكي يتوبوا ويرجعوا إلى الإسلام، والله أعلم، ولكن الذين يموتون في حالة الكفر والنفاق لن يعف الله لهم بل يعذبهم عذاب الهون والحريق الدائم.

حاولت الباحثة دراسة بلاغة النظم في حديث القرآن عن جزاء المنافقين في الدنيا في المبحث الأول. أما المبحث الثاني فيشتمل على بيان جزاء المنافقين في الآخرة. فلم يبين القرآن الكريم جزاء المنافقين في الدنيا فحسب بل أخبر قارئه أن المنافقين مستحقون للعذاب المهين والدائم في الآخرة بسبب حالتهم الفكرية والعملية. وترى الباحثة أن جزاء المنافقين في الآخرة الهوان والذل من خروج الروح إلى وصولهم إلى مستقرهم في النار وهو الدرك الأسفل من النار، و يمكن بيان جزائهم في الآخرة في النقاط التالية:

- الإهانة عند الموت وحبط الأعمال
- الحرمان من شفاعة سيدنا محمد ﷺ
- الحرمان من النور في الآخرة
- اللعنة والخلود في النار

١ التوبة: ٥٥، ٨٥

٢ يطر محمد: ٢٧

أولاً: الإهانة عند الموت وحبط الأعمال

يبين القرآن الكريم أن الأعمال الصالحة لن تنفع المنافقين في الآخرة بسبب جرم النفاق، وسوف يرون عذاب الهون عند الموت. حيث يتنغي المنافقون العزة والكرامة في الدنيا أمام الجميع فيميلون إلى مناع الحياة الدنيا دائماً، ويظهرون أمام كل فرقة أنهم أصدقاؤها ولكن في الحقيقة هم ليسوا أصحاب الكرامة؛ فملائكة العذاب سوف يضربونهم عند الموت فيعرف المنافقون أنهم في غاية الذلة والهوان، "وعن ابن عباس رضي الله عنه: لا يتوفى أحد على معصية الله إلا يصرب من الملائكة في وجهه وديره ذلك إشارة إلى التوفى الموصوف ما أسخط الله من كتمان نعت رسول الله ﷺ ورضوانه الإيمان برسول الله"، وقال تعالى في سورة الأنفال ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^١ هكذا قال تعالى عن المنافقين: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبارَهُمْ﴾ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾^٢

ولنخرج الآن إلى استنباط الألوان البلاغية من هذه الآية.

من بلاغة النظم القرآني:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبارَهُمْ﴾ "الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والاستفهام للاستعظام والتهويل، والمراد بـ ﴿وُجُوهَهُمْ﴾ كل ما أقبل منهم، وبأذبارهم: كل ما أدبر من أجسامهم"^٤، وهذا "وعيدهم بأنهم سيعجل لهم العذاب من أول منازل الآخرة وهو حالة الموت. ولما جعل هذا العذاب محققا وقوعه رتب عليه

١ الكشاف. ٤ / ٣٢٧

٢ الأعمال: ٥٠

٣ محمد: ٢٧، ٢٨

٤ التفسير الوسيط للططاوي: ١٣ / ٢٤٢

الاستفهام عن حالهم استفهاما مستعملا في معنى تعجيب المحاطب من حالهم عند الوفاة، وهذا التعجيب مؤذن بأنها حالة فظيعة غير معتادة إذ لا يتعجب إلا من أمر غير معهود، والسياق يدل على الفظاعة. و ﴿إِذَا﴾ متعلق بمحذوف دل عليه اسم الاستفهام، تقديره: كيف حالهم أو عملهم حين تتوفاهم الملائكة" ١. وقال الرازي: "فيه لطيفة، وهي أن القتال في الحال إن أقدم المارّة فرما يهزم الخصم ويسلم وجهه وقفاه، وإن لم يهزمه فالضرب على وجهه إن صبر وثبت وإن لم يثبت وانحزم، فإن فات القرن فقد سلم وجهه وقفاه وإن لم يفته فالضرب على قفاه لا غير، ويوم الوفاة لا نصرة له ولا مفر، فوجهه وظهره مضروب مطعون، فكيف يحترز عن الأذى ويختار العذاب الأكبر" ٢. وقال ابن عاشور: "وجعل الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم، أي يضربون وجوههم التي وقوها من ضرب السيف حين فروا من الجهاد فإن الوجوه مما يقصد بالضرب بالسيوف عند القتال، ويضربون أدبارهم التي كانت محل الضرب لو قاتلوا، وهذا تعريض بأنهم لو قاتلوا لفروا فلا يقع الضرب إلا في أدبارهم" ٣.

"واسم الإشارة في قوله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ يعود إلى توفى الملائكة لهم، وقبضهم لأرواح هؤلاء المنافقين. أي: ذلك الضرب الأليم لهم من الملائكة عند قبضهم لأرواحهم بسبب أن هؤلاء المنافقين قد اتبعوا ما يعضب الله ﷻ من الكفر والمعاصي، وبسبب أنهم كرهوا ما يرضيه من الإيمان والطاعة، ﴿فَأَخْبَطَ﴾ - سبحانه وتعالى ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ ولم يقبلها منهم، لأنها لم تصدر عن قلب سليم" ٤، وقال ابن عاشور: الإشارة بذلك إلى الموت الفظيع الذي دل عليه قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ كما تقدم آنفا. واتباعهم ما أسخط الله: هو اتباعهم الشرك. والسخط مستعار لعدم الرضى بالفعل. وكرهتهم رضوان الله: كراحتهم أسباب رضوانه وهو الإسلام. وفي ذكر اتباع ما

١ التحرير والتوير: ١١٨ / ٢٦

٢ التفسير الكبير: ٥٧ / ٢٨

٣ التحرير والتوير: ١١٨، ١١٩ / ٢٦

٤ التفسير الوسيط للظطاوي: ٢٤٢ / ١٣

أسخط الله وكراهة رضوانه محسن الطبايق مرتين للمضادة بين السخط والرضوان، والاتباع والكراهية. والجمع بين الإخبار عنهم باتباعهم ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه مع إمكان الاجتزاء بأحدهما عن الآخر للإيماء إلى أن ضرب الملائكة وجوه هؤلاء مناسب لإقبالهم على ما أسخط الله، وأن ضربهم أدبارهم مناسب لكراهتهم رضوانه لأن الكراهة تستلزم الإعراض والإدبار، ففي الكلام أيضا محسن اللف والنشر المرتب. فكان ذلك التعذيب مناسبا لحالي توقيهم في الفرار من القتال وللمسبيين الباعثين على ذلك التوقي. وفرع على اتباعهم ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه قوله: فأحبط أعمالهم فكان اتباعهم ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه سببا في الأمرين: ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند الوفاة، وإحباط أعمالهم".

تصور هذه الآيات أمام القارئ حالة المنافقين الشنيعة، ورؤيتهم الفظيعة إذا توفتهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم، يضربون وجوههم وأدبارهم بالمقامع الشديدة، وذلك العذاب الذي استحقوه ونالوه بسبب أنهم اتبعوا ما أسخط الله من كل كفر وفسوق وعصيان، وكرهوا رضوانه فلم يكن لهم رغبة فيما يقرهم إليه، ولا يدينهم منه، فأحبط أعمالهم أي: أبطلها وأذهبها، وهذا بخلاف من اتبع ما يرضي الله وكره سخطه، فإنه سيكفر عنه سيئاته، ويضاعف أجره وثوابه.

ثانياً: الحرمان من شفاعة سيدنا محمد ﷺ

قد بين الله ﷻ أنه يعذب الذين مردوا على النفاق ولكن من آثار رحمة الله ﷻ على عباده أنه يغفر الذنوب لمن تاب وأصلح فأمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يركبهم ويصلي عليهم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوَّلَكُمْ مِنَ الْأَغْرَابِ مُتَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا نَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿٣٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٠٢﴾﴾ خُذْ مِنْ

أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٥﴾، ومن المعلوم أن شفاعته نبي الرحمة ﷺ في يوم القيامة حق، ولكن المنافقين لا يستحقون شفاعته، لأن الله ﷻ قد منع النبي ﷺ والمؤمنين أن يستغفروا للمشركين، كما جاء في سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^١، وهذا من جزائهم في الآخرة بسبب استكبارهم؛ كما قال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْنَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿١٠٦﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^٢ وقيل نزلت الآية الأولى في عبدالله بن أبي، ثم أعلن الله ﷻ أن استغفار النبي ﷺ لمؤلفي المنافقين لن ينفعهم في يوم القيامة، ثم أكد هذا الأمر في سورة التوبة قائلا ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^٣ حتى منع رسوله ﷺ أن يقوم على قبر المنافق؛ فقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾^٤ وهذا كله يبين للقارئ أن المنافقين لن ينتفعوا من شفاعته سيدنا محمد ﷺ في يوم القيامة.

١ التوبة: ١٠١ - ١٠٤

٢ التوبة: ١١٣

٣ الماعون: ١٥، ٦

٤ بطر: تفسير الطبري: ٢٣ / ٣٩٩

٥ التوبة: ٨٠

٦ التوبة: ٨٤

من بلاغة النظم القرآني:

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ "هذا استئناف ابتدائي ليس متصلاً بالكلام السابق"، "وهذا كلام خرج مخرج الأمر، وتأويله الخبر، ومعناه: إن استغفرت لهم، يا محمد، أو لم تستغفر لهم، فلن يغفر الله لهم"^١، "قال بعض أهل المعاني: معنى صيغة الأمر والنهي في هذه الآية: المبالغة في اليأس من المغفرة"^٢.

﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ إي: "إن تسأل لهم أن تُستر عليهم ذنوبهم بالعتق منه لهم عنها، وترك فضيحتهم بها، فلن يستر الله عليهم، ولن يعفو لهم عنها، ولكنه يفضحهم بها على رؤوس الأشهاد يوم القيامة"^٣، والفعل المضارع في ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ يدل على استمرار عدم المغفرة حتى يدخلون هؤلاء المنافقون في الدرك الأسفل من النار إلا أن يتوبوا توبة نصوحاً كما نعرف أن باب المغفرة مفتوح لكل من تاب من صميم قلبه قبل نزعة الموت.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ تعليل لحرامتهم من شفاعة سيدنا محمد ﷺ، و﴿ذَلِكَ﴾ "إشارة إلى امتناع المغفرة لهم ولو بعد المبالغة في الاستعفار أي ذلك الامتناع ليس لعدم الاعتداد باستغفارك بل ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ كفراً متجاوزاً عن الحد كما يلوح به وصفهم بالفسق في قوله عز وجل ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ فإن الفسق في كل شيء عبارة عن التمرد والتجاوز عن حدوده أي لا يهديهم هداية موصلة

١ التحرير والتنوير: ٢٧٦ / ١٠

٢ تفسير الطبري: ٣٩٤ / ١٤

٣ أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، اليسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، التفسير البسيط، المحقق: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتورة حمادة الإمام محمد بن سعود، تم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، الناشر: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط ١، ١٤٣٠ هـ، ١٠٠ / ٥٧٠

٤ تفسير الطبري: ٣٩٤ / ١٤

إلى المقصد البتة لمخالفة ذلك للحكمة التي عليها يدور فلك التكوين والتشريع وأما الهداية بمعنى الدلالة على ما يوصل إليه فهي متحققة لا محالة ولكمهم بسوء اختيارهم لم يقبلوها فوقعوا فيما وقعوا وهو تذييل مؤكد لما قبله من الحكم فإن معفرة الكافر إنما هي بالإقلاع عن الكفر والإقبال إلى الحق والمتهمك فيه المطبوع عليه بمعزل من ذلك وفيه تنبيه على عذر النبي ﷺ في استغفاره لهم وهو عدم يأسه من إيمانهم حيث لم يعلم أنهم مطبوعون على الغي والضلال إذ الممسوع هو الاستغفار لهم بعد تبين حالهم^١

"والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَاللَّهُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ خبره، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها^٢، وهي تدل على الثبوت والدوام في عدم هداية الفاسقين.

قال الإمام الرازي: "من الناس من قال: إن الرسول ﷺ اشتغل بالاستغفار للقوم فمعه الله ﷻ منه، ومنهم من قال: إن المنافقين طلبوا من الرسول ﷺ أن يستغفر لهم فאלله تعالى نحاه عنه والنهي عن الشيء لا يدل على كون المنهي مقديما على ذلك الفعل، وإنما قلنا إنه عليه السلام ما اشتغل بالاستغفار لهم لوجه: الأول: أن المنافق كافر، وقد ظهر في شرعه عليه السلام أن الاستغفار للكافر لا يجوز. ولهذا السبب أمر الله رسوله بالاعتداء بإبراهيم ﷺ إلا في قوله لأبيه ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾^٣ وإذا كان هذا مشهورا في الشرع فكيف يجوز الإقدام عليه؟ الثاني: أن استغفار الغير للغير لا يفعله إذا كان ذلك الغير مصرا على القبح والمعصية. الثالث: أن إقدامه على الاستغفار للمنافقين يجري مجرى إغرائهم بالإقدام على الذنب. الرابع: أنه تعالى إذا كان لا يجيبه إليه بقي دعاء الرسول ﷺ مردودا عند الله ﷻ، وذلك يوجب نقصان منصبه. الخامس: أن هذا الدعاء لو كان مقبولا من الرسول ﷺ لكان قليلا مثل كثيره في حصول

١ تفسير أبي السعود. ٨٧ / ٤

٢ تفسير حدائق الروح والريحان في روائى علوم القرآن: ٣٨٠ / ١١

٣ المنتحة: ٤

الإحابة. فثبت أن المقصود من هذا الكلام أن القوم لما طلبوا منه أن يستغفر لهم منعه الله منه، وليس المقصود من ذكر هذا العدد تحديد المنع، بل هو كما يقول القائل لمن سأله الحاجة: لو سألتني سبعين مرة لم أقضها لك، ولا يريد بذلك أنه إذا زاد قضاها فكذا هاهنا، والذي يؤكد ذلك قوله تعالى في الآية: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فبين أن العلة التي لأجلها لا ينفعهم استغفار الرسول وإن بلغ سبعين مرة، كفرهم وفسقهم، وهذا المعنى قائم في الزيادة على السبعين، فصار هذا التعليل شاهدا بأن المراد إزالة الطمع في أن ينفعهم استغفار الرسول ﷺ مع إصرارهم على الكفر، ويؤكداه أيضا قوله تعالى: والله لا يهدي القوم الفاسقين".

فتبين الآية أن المنافقين لن يستفيدوا من شفاعة سيدنا محمد ﷺ يوم القيامة؛ بسبب استكبارهم، وسوف تكون حالتهم في الآخرة تعسة ومذلة مثل الذين لا يجدون وليا ولا نصيرا؛ لأنهم استكبروا بالإضافة الى كفرهم بعد الإيمان؛ فسبب استكبارهم الحرمان من شفاعة سيدنا محمد ﷺ يوم القيامة.

ثالثاً: الحرمان من النور في الآخرة

يعيش المنافق في ظلمات الكفر والشرك في هذه الدنيا فهو مثل الأعمى الذي لا يعرف الصراط المستقيم كما جاء في القرآن الكريم: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾^١، وجزاؤهم في الآخرة الحرمان من النور، كما قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٧﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ

١ التفسير الكبير: ١٦ / ١١٢

٢ النقرة ١٧

أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُكُمْ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ^١

تصور هذه الآية جزاء المنافقين في الآخرة في غاية الوضوح، وذكر قبل هذه الآية حالة المؤمنين المفلحين في يوم القيامة في الآية ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^٢﴾، وهذا يزيد في حسرة المنافقين لأنهم كانوا يسخرون من المؤمنين في الدنيا، ولكن في يوم القيامة "بينما الناس في ظلمة، إذ بعث الله نورا، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلا من الله إلى الجنة؛ فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا، تبعوهم، فأظلم الله على المنافقين، فقالوا حيثئذ: انظرونا نقتبس من نوركم، فإننا كنا معكم في الدنيا؛ قال المؤمنون: ارجعوا من حيث جئتم من الظلمة، فالتمسوا هنالك النور"^٣. ولندرس الآية دراسة بلاغية.

من بلاغة النظم القرآني:

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ قال الزمخشري "﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ منصوب بإضمار «اذكر» تعظيما لذلك اليوم..، و﴿انظُرُونَا﴾ انتظرونا، لأنهم يسرع بهم إلى الجنة كالبروق الخاطفة على ركاب تزف بهم. وهؤلاء مشاة. وانظروا إلينا، لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيئون به. وقرئ: أنظرونا من النظرة وهي الإمهال: جعل انتادهم في الماضي إلى أن

١ الحديد: ١٣-١٤

٢ السورة ميسرها: ١٢

٣ تفسير الطبري: ٢٣ / ١٨٢

يلحقوا بهم إنظاراً لهم نقتبس من نوركم نصب مه، وذلك أن يلحقوا بهم فيستنيروا به" ١، وهذا كقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٢ وقال البقاعي "ولما عظم هذا الأجر الكريم ببيان ما لأهله في الوقت الكائن فيه، عظمه بما لأضدادهم من الكال، ﴿تَقْتَبِسْنَ﴾ أي نأخذ ونصيب ونستصبح ﴿مِنْ نُورِكُمْ﴾ أي هذا الذي نراه لكم ولا يلحقنا منه شيء كما كنا في الدنيا نرى إيمانكم بما نرى من ظواهركم ولا تتعلق من ذلك بشيء جزاء وفاقاً، وسبب هذا القول أنهم يعطون مع المؤمنين نورا خديعة لهم بما خادعوا في الدنيا لتعظم عليهم المشقة بفقده؛ لأنه لا يلبث أن يبعث الله عليهم ريحاً وظلمة فتطفئ نورهم ويقيمون في الظلمة، وإلى ذلك ينظر قول المؤمنين ﴿أَنَّمِ لَنَا نُورٌ﴾ ٣ أي لا تطفئه كما أطفأت نور المنافقين" ٤. "ويظهر من إسناد ﴿قِيلَ﴾ بصيغة المجهول أن قائله غير المؤمنين المحاطين وإنما هو من كلام الملائكة السائقين للمنافقين. وتكون مقالة الملائكة للمنافقين تمكماً إذ لا نور وراءهم وإنما أرادوا إطماعهم ثم تحييبهم بضرب السور بينهم وبين المؤمنين، لأن الخيبة بعد الطمع أشد حسرة. وهذا استهزاء كان جزاء على استهزائهم بالمؤمنين واستسخارهم بهم" ٥، فهو من معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٦ ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ يبدو أنه صوت للتهكم، والتذكير بما كان مسهم في الدنيا من نفاق ودس في الظلام: ارجعوا وراءكم إلى الدنيا. إلى ما كنتم تعملون. ارجعوا فالنور يلتمس من هناك. من العمل في الدنيا. ارجعوا فليس اليوم يلتمس النور! وعلى

١ الكشاف: ٤/ ٤٧٥

٢ المقرة: ١٠٤

٣ التحريم: ٨

٤ نظم الدرر: ١٩/ ٢٧٣

٥ التحرير والتوير: ٢٧/ ٣٨٢، ٣٨٣

٦ التوبة: ٧٩

الفور يعصل بين المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات. فهذا يوم الفصل إن كانوا في الدنيا محتلطين في الجماعة: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُورَ لَهٗ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ ويبدو أنه سور يمع الرؤية ولكنه لا يمنع الصوت. فها هم أولاء المنافقون ينادون المؤمنين ﴿أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ؟؟﴾^١ "ولعل ضرب السور بينهم وجعل العذاب بظاهرة والنعيم بباطنه قصد منه التمثيل لهم بأن الفاصل بين النعيم والعذاب هو الأعمال في الدنيا وأن الأعمال التي يعملها الناس في الدنيا منها ما يفضي بعامله إلى النعيم ومنها ما يفضي بصاحبه إلى العذاب فأحد طرفي السور مثال لأحد العاملين وطرفه الآخر مثال لضده. و«الباب» واحد وهو الموت، وهو الذي يسلك بالناس إلى أحد الجانبين. ولعل جعل الباب في سور واحد فيه مع ذلك ليعبر منه أفواج المؤمنين الخالصين من وجود منافقين بينهم بمرأى من المنافقين المحبوسين وراء ذلك السور تنكيلا بهم وحسرة حين يشاهدون أفواج المؤمنين يفتح لهم الباب الذي في السور ليجتازوا منه إلى النعيم الذي بباطن السور"^٢. وقال البصاوي "قيل ارجعوا وراءكم إلى الدنيا. فالتمسوا نورا بتحصيل المعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة، فإنه يتولد منها أو إلى الموقف فإنه من ثمة يقتبس، أو إلى حيث شئتم فاطلبوا نورا آخر فإنه لا سبيل لكم إلى هذا، وهو تهكم بهم وتخيب من المؤمنين أو الملائكة فضرب بينهم بين المؤمنين والمنافقين. بسور بخائط. له باب يدخل منه المؤمنون. باطنه باطن السور أو الباب. فيه الرحمة لأنه يلي الجنة. وظاهره من قبله العذاب من جهته لأنه يلي النار"^٣.

﴿يَنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ "استفهام تقريرى، استعمل كناية عن طلب اللحاق بهم والانضمام إليهم كما كانوا معهم في الدنيا يعملون أعمال الإسلام من المسلمين. والمعية أطلقت على المشاركة في أعمال

١ في طلال القرآن ٦ / ٣٤٨٦

٢ التحرير والتوير ٢٧ / ٣٨٣

٣ تفسير البصاوي ٥ / ١٨٧

الإسلام من نطق بكلمة الإسلام وإقامة عبادات الإسلام، توهموا أن المعاملة في الآخرة تجري كما تجري المعاملة في الدنيا على حسب صور الأعمال، وما دروا أن الصور مكملات وأن قوامها إخلاص الإيمان وهذا الجواب إقرار بأن المنافقين كانوا يعملون أعمالهم معهم. ولما كان هذا الإقرار يوهم أنه قول بموجب الاستفهام التقريري أعقبوا جوابهم الإقرارى بالاستدراك الراجع لما توهمه المنافقون من أن الموافقة للمؤمنين في أعمال الإسلام تكفي في التحاقهم بهم في نعيم الجنة فبينوا لهم أسباب التباعد بينهم بأن باطنهم كان مخالفا لظاهرهم. وذكروا لهم أربعة أصول هي أسباب الحسران، وهي: فتنة أنفسهم، والتريص بالمؤمنين، والارتباب في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، والاعتزاز بما تموه إليهم أنفسهم. وهذه الأربعة هي أصول الخصال المتفرعة على النفاق^١.

الأول: فتنتهم أنفسهم، أي عدم قرار ضمائرهم على الإسلام، فهم في ريبهم يترددون، فكان الاضطراب وعدم الاستقرار خلق لهم فإذا خطرت في أنفسهم حواطر خير من إيمان ومحبة للمؤمنين نقضوها بخواطر الكفر والبغضاء، وهذا من صنع أنفسهم فإسناد الفتن إليهم إسناد حقيقي، وكذلك الحال في أعمالهم من صلاة وصدقة. وهذا ينشأ عنه الكذب، والحداع، والاستهزاء، والظعن في المسلمين، قال تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾^٢.

الثاني: التريص، والتريص انتظار شيء، كما في قوله تعالى ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾^٣. ويتعدى فعله إلى المفعول بنفسه ويتعلق به ما زاد على المفعول بالباء. وحذف هنا مفعوله ومتعلقه ليشمل عدة الأمور التي ينتظرها المنافقون في شأن المؤمنين وهي كثيرة مرجعها إلى أذى المسلمين والإضرار بهم فيتريصون هزيمة المسلمين في الغزوات ونحوها من

١ التحرير والتوير. ٢٧ / ٣٨٥

٢ النساء: ٦٠

٣ البقرة: ٢٢٨

الأحداث، قال تعالى في بعضهم: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾^١، ويتربصون انقسام المؤمنين فقد قالوا لفريق من الأنصار يندموهم على من قتل من قومهم في بعض الغزوات ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾^٢.

الثالث: الارتياح في الدين وهو الشك في الاعتماد على أهل الإسلام أو على الكافرين ويشأ عنه القعود عن الجهاد قال تعالى ﴿وَأَزَلَّتْ قُلُوبُهُمْ فَمَا فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾^٣ ولذلك كانوا لا يؤمنون بالآجال، وقالوا لإخوانهم: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾^٤.

الرابع: الغرور بالأمان، وهي جمع أمنية وهي اسم التمني. والمراد بها ما كانوا يمتنون به أنفسهم من أنهم على الحق وأن انتصار المؤمنين عرض زائل، وأن الحوادث تجري على رغبتهم وهواهم، ومن ذلك قولهم: ﴿لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾^٥ وقولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَاكُمْ﴾^٦ ولذلك يحسبون أن العقابة لهم ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا﴾^٧، وقد بينت الخصال التي تولد على النفاق في تفسير سورة البقرة فطبق عليه هذه الأصول الأربعة والحق فروع بعضها ببعض. والمقصود من الغاية به حتى جاء أمر الله التدبير عليهم بأنهم لم يراعوا عن غيهم مع طول مدة أعمارهم وتعاقب السنين عليهم وهم لم يتدبروا في العواقب، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ﴾^٨، وإسناد التغيرير

١ التوبة: ٩٨

٢ آل عمران: ١٦٨

٣ التوبة: ٤٥

٤ آل عمران: ١٥٦

٥ الماعقود: ٨

٦ آل عمران: ١٦٧

٧ الماعقود: ٧

٨ طاهر: ٣٧

إلى الأمانى مجاز عقلي لأن الأمانى والطمع في حصولها سبب غرورهم وملابسه. ومجيء أمر الله هو الموت، أي حتى يتم على تلك الحالة السيئة ولم تقلعوا عنها بالإيمان الحق.

وجملة **﴿وَعَزَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾** عطف على جملة **﴿وَعَزَّكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾** تحقيرا لغرورهم وأمانيتهم بأنها من كيد الشيطان ليزدادوا حسرة حينئذ. والغرور: بفتح الغين مبالغة في المتصف بالتغير، والمراد به الشيطان، أي بإلقائه حواطر النفاق في نفوسهم بتلوينه في لون الحق وإرضاء دين الكفر الذي يزعمون أنه رضي الله **﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾**^١، ويجوز أن يراد حنس العارين، أي وعركم بالله أئمة الكفر وقادة النفاق. والتغير: إظهار الضار في صورة النافع بتمويه وسفسطة. والباء في قوله: بالله للسببية أو للآلة المجازية، أي جعل الشيطان شأن الله سببا لغروركم بأن حيل إليكم أن الحفاظ على الكفر مرضي لله تعالى وأن النفاق حافظتم به على دينكم وحفظتم به نفوسكم وكرامة قومكم واطلعتهم به على أحوال عدوكم^٢، وقال الزمخشري عن **﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾** "وهو الموت **﴿وَعَزَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾** وعركم الشيطان بأن الله عفو كريم لا يعذبكم"^٣.

وتشعر الباحثة أن هذه الآيات تصور أمام القارئ مشهد يوم القيامة - مشهد عظيم فيه هيبة وهوان وندم المسافقين وخيبتهم.

رابعاً: اللعنة والخلود المهين في النار

ونهاية جزاء المسافقين في الآخرة بعد الحرمان من شفاعة سيدنا محمد ﷺ والنور في الآخرة هي اللعنة والخلود المهين في النار كما قال تعالى **﴿قَالَتِیَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾**^٤، وتعلب عليهم الذلة والهوان، كما

١ الرحرف: ٢٠

٢ التحرير والتوير ٢٧ / ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧

٣ الكشف: ٤ / ٤٧٦

٤ الحديد: ١٥

قال تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾^١، وتصور هذه الآية أمام القارئ عاقبة المنافقين في الآخرة وهي عاقبة مفرغة رهيبة، كذلك مهينة حيث يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾^٢.

ولنستخرج الألوان البلاغية من هذه الآية.

من بلاغة النظم القرآني:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ أكد الكلام بـ ﴿إِنَّ﴾ والغرض من هذا هو التوكيد والتحقيق لمضمون الخبر، "وعقب التعريض بالمنافقين من قوله ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^٣ أولياء كما تقدم بالتصريح بأن المنافقين أشد أهل النار عذاباً. فإن الانتقال من النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء إلى ذكر حال المنافقين يؤذن بأن الذين اتخذوا الكافرين أولياء معدودون من المنافقين، فإن لانتقالات جمل الكلام معاني لا يفيدها الكلام لما تدل عليه من ترتيب الخواطر في الفكر"^٤.

﴿فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ "الدرك كالدرج لكن الدرج يقال اعتباراً بالصعود، والدرك اعتباراً بالحدور، ولهذا قيل درجات الجنة ودركات النار"^٥، قال صاحب الكشاف "الدرك الأسفل الطبقة الذي في قعر جهنم، والنار سبع دركات، سميت بذلك لأنها متدركة متتابعة بعضها فوق بعض، فإن قلت لم كان المساق أشد عذاباً من الكافر؟ قلت لأنه مثله في

١ التوبة ٦٨

٢ النساء: ١٤٥

٣ النساء: ١٤٤

٤ التحرير والتوير: ٢٤٢ / ٥

٥ المعجمات في غريب القرآن، كتاب الدال، تحت مادة درك، ص ١٧٤، ١٧٥

الكفر، وضم إلى كفره الاستهزاء بالإسلام وأهله ومداجاتهم" ١، وقال ابن عطية "أحبر تعالى عن المنافقين أنهم في الدرك الأسفل من نار جهنم، وهي أدراك بعضها فوق بعض سبعة طبقة على طبقة، أعلاها هي جهنم وقد يسمى جميعها باسم الطبقة العليا، فالمنافقون الذين يظهرون الإيمان ويطنون الكفر هم في أسفل طبقة من النار، لأنهم أسوأ غوائل من الكفار وأشد تمككا من أذى المسلمين، وروي أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار في توابيت من النار تقفل عليهم" ٢.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا وردت كلمة ﴿الأسفل﴾ "من السفلى ومعناها ضد العلو" بعد كلمة ﴿الدرك﴾ ؟ فأجاب الإمام الرازي "الدرك أقصى قعر الشيء كالبحر ونحوه، فعلى هذا المراد بالدرك الأسفل أقصى قعر جهنم، وأصل هذا من الإدراك بمعنى اللحق، ومنه إدراك الطعام وإدراك الغلام، فالدرك ما يلحق به من الطبقة، وظاهره أن جهنم طبقات، والظاهر أن أشدها أسفلها" ٣.

﴿وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ "النصير" بناء مبالغة من النصير، وهذا تحديد لهم، والخطاب في ولن يجد لهم نصيرا لكل من يصح منه سماع الخطاب، وهو تأكيد للوعيد، وقطع لرحائهم، لأن العرب ألقوا الشفاعات والنجادات في المضائق. فلذلك كثر في القرآن تذييل الوعيد بقطع الطمع في النصير والفداء ونحوها" ٤.

تري الباحثة بعد دراسة هذه الآيات عن جزاء المنافقين أن المنافقين من الأخسرين أعمالا في الآخرة كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ٥ الَّذِينَ ضَلَّ

١ الكشاف: ١ / ٥٨١، ويطر. التحرير والتنوير: ٥ / ٢٤٤

٢ المحرر الوحيد: ٢ / ١٢٨

٣ التفسير الكبير: ١١ / ٢٥١

٤ المحرر الوحيد: ٢ / ١٢٨

٥ التحرير والتنوير: ٥ / ٢٤٤

سَعِيَّتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١١﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۖ ﴿١٢﴾

الخلاصة:

نصل مما تم دراسته في المبحث الأول والثاني أن جزاء المنافقين في الدنيا الخوف والقلق الدائم من الفضيحة، وعدم قبول التصديق، والارتداد وتغلب الدلة والهوان، وجزاؤهم في الآخرة الإهانة عند الموت وحبط الأعمال، والحرمان من شفاعة سيدنا محمد ﷺ، والحرمان من النور في الآخرة، واللعة والخلود في النار.

واستخدم القرآن الكريم الألوان البلاغية المتنوعة نحو: الاستفهام، والحذف، والإظهار في موقع الإضمار، والتشثيل، والتوكيد، والكناية، والتعريض، والهمزة التسوية، وعطف الجملة على الجملة، واللف والنشر المرتب كما أتى بصيغة الماضي والمضارع، والجملة الاسمية، واسم الإشارة للبعد لتوضيح بيان جزاء المنافقين في الدنيا والآخرة. وأبرزت هذه الأساليب البلاغية جزاء المنافقين في غاية الوضوح ليكون عبرة لأولي الأبصار.



الخاتمة



الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات؛ فقد أنعم الله عليّ بالتوفيق إلى إتمام هذا البحث الذي سمّيته بـ (مس بلاغة النظم في حديث القرآن عن منكري دعوة سيدنا محمد ﷺ) فله الحمد والشكر على التوفيق، وأسأله تعالى القبول.

بعد هذه الجولة الممتعة في رحاب القرآن الكريم يستحسن أن تقدم خلاصة البحث بصورة موجزة.

أولاً: الكفار والمشركين:

قد لاحظت أن حديث القرآن عن الكفار والمشركين مليئٌ بالنكات البلاغية، وفيه يخاطب الله عزوجل هؤلاء الكفار والمشركين بأسلوب راق جداً وبلغ، مما يجعل العقل يكون في حالة تفكير دائم. واستخدم القرآن الكريم أساليب بلاغية في قمة الفصاحة، مراعيًا مقتضى الحال، في حديثه عن الكفار والمشركين؛ وكشف أحوال الكفار والمشركين الفكرية والعملية المتعلقة بإنكار دعوة سيدنا محمد ﷺ، وبيّن جزاءهم في الدنيا والآخرة مستخدماً طواهر علم المعاني من التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتعريف والتنكير، والفصل والوصل، والإطناب والإيجاز، والتوكيد وتركه، والقصر. كما يستعمل ملامح بيانية مثل التشبيه، والاستعارة، والكمائية، والفنون البديعية من المحسسات اللفظية والمعنوية.

من المعلوم أن القرآن الكريم في قمة الفصاحة في حديثه عن الكفار والمشركين وأسلوبه حافل بالألوان البلاغية وعلى رأسها علم البيان؛ فيستخدم القرآن الكريم تشبيهات واستعارات في غاية الجمال حينما يخاطب عقول الكفار والمشركين ويطلق ألبابهم - مشيراً إلى آيات الله ﷻ في الأنفس والكون - بأسلوب الاستفهام فنجد في كثير من الأحيان القرآن

الكريم يقول ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾^١، ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾^٢، قد وردت كلمة ﴿فَأَنَّى﴾ ١١ مرة في حديث القرآن عن الكفار والمشركين.

ويصرح القرآن الكريم أن الكفار والمشركين - في حقيقة أمرهم - لا يكذبون سيدنا محمد ﷺ؛ لأنهم قد عرفوا صدقه وأمانته قبل بعثته، ولكنهم ينكرون دعوة سيدنا محمد ﷺ ويكذبون الحق الذي جاءهم من الله عزوجل، كما قال تعالى ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَخْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^٣؛ فوجدت الشدة في كلام الله عزوجل في عقاب منكري دعوة سيدنا محمد ﷺ نحو قوله تعالى ﴿سَنَسِفُهُ عَلَى الْحَرْطُومِ﴾^٤.

وكات للمظاهر البلاغية الواردة في حديث القرآن الكريم عن الكفار والمشركين دور بارر في توضيح أحوالهم الفكرية والعملية، وجزائهم في الدنيا والآخرة.

ثانياً: أهل الكتاب:

رأت الباحثة أن أسلوب القرآن في حديثه عن أهل الكتاب أسلوب علمي كما استخدمت الألوان البلاغية من علم المعاني مثل الاستفهام الإنكاري والتعجبي، والإظهار في موقع الإضمار، ومن الملامح البيانية التشبيه والتمثيل والكناية، واحتيرت المفردات والتراكيب والجميل الملائمة لكشف الأحوال الفكرية والعملية لأهل الكتاب وجزائهم في الدنيا والآخرة في عاية الجمال والوضوح. ولاحظت أن الله عزوجل يخاطب عقول أهل الكتاب ومتاعرهم بأسلوب هادئ، وفيه مزج بين المرونة والخشونة، على سبيل المثال ينظر قوله تعالى ﴿يَا أَهْلَ

١ الأنعام: ٩٥ يونس: ٣٤

٢ يونس: ٣٢، الزمر: ٦

٣ الأنعام: ٣٣

٤ القلم: ١٦

الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١ وقال تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ٢

ولكن حينما أصرروا على إنكار دعوة سيدنا محمد ﷺ، وكنتموا الحق، وحاولوا صدّ الناس عن سبيل الله المستقيم غضب الله عزوجل عليهم فقال مبيناً جرمهم ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ٣، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ٤ ﴿بِسْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِثْنَا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ قَبَاؤُ بَعْضٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ٥، ولا يحفى على المتأمل الفرق الواضح بين فتنين من الآيات بحيث إن الله حاطب أهل الكتاب في الفئة الأولى بمروية مثل الخطاب بـ "يا أهل الكتاب" والدعوة إلى التوحيد وإلى الأمور المتفق عليها، وفي الفئة الثانية من الآيات شبههم بالحمار في الحرق وعدم معرفة المسئولية الكبرى الواقعة على أكثافهم، ووقعهم في لعنة الله وغضبه في الدنيا والعذاب المهين يوم القيامة.

ثالثاً: المنافقون:

عرفت من خلال دراسة الآيات المحترقة - عن المنافقين - دراسة بلاغية أن أسلوب القرآن معهم أسلوب نفسي؛ وهو مختلف عن أسلوبه مع الكفار والمشركين، وأهل الكتاب

١ المائدة: ١٩

٢ آل عمران: ٦٤

٣ الجمعة: ٥

٤ البقرة: ٨٩، ٩٠

من حيث ما رأيت آية آية فيها خطاب مباشر مع المنافقين مثلما وجدت "يا أيها الكافرون" ١، و"يا أهل الكتاب" ٢؛ فتأملت وشعرت بأن الله ﷻ قد غضب على المنافقين أكثر من الآخرين حتى لا يجب أن يخاطبهم لفقدان الهوية المعينة لأنهم مذبذبون بين الإسلام والكفر كما قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُزَافُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ٣ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ٤ ، ويفضحهم أمام قارئ القرآن مستخدماً الوسائل البلاغية مثل أسماء الإشارة البعيدة، والفصل والوصل، والإضراب الانتقالي، والإطناب، والتشبيه، والاستعارة، والمجاز المرسل والكناية من الألوان البلاغية كما يبرز حقيقة نفاقهم في غاية الوضوح، وكل هذا يصور المنافقين في صورة كريهة وهي صورتهم الخبيثة والتنة وراء أجسامهم المعجبة، وكلامهم الفصيح نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدَةٌ يَخْسَبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنْتَ يُوَفُّكَونَ﴾ ٥ .

"فهم أجسام تعجب. لا أناسي تتجاوب! وما داموا صامتين فهم أجسام معجبة للعيون .. فأما حين يطقون فهم خواء من كل معنى ومن كل حس ومن كل خالجة .. «تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ» .. ولكنها ليست خشبا فحسب. إنما هي «خَشَبٌ مُسْتَنْدَةٌ» .. لا حركة لها ، ملطوعة بجانب الجدار! هذا الجمود الراكد البارد يصورهم من ناحية فقه

١ الكافرون: ١

٢ وردت يا أهل الكتاب ١٢ مرة في القرآن الكريم (٦ مرة في سورة آل عمران، مرة في سورة النساء، وه مرة في سورة المائدة) ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم لألفاظ القرآن الكريم، آويد دانر للطباعة والنشر والتوزيع، طهران، تحت مادة أهل، ص ١٣٢

٣ النساء: ١٤٣

٤ المنافقون: ٤

أرواحهم إن كانت لهم أرواح! ويقابله من ناحية أخرى حالة من التوجس الدائم والفرع الدائم والاهتزاز الدائم، فهم يعرفون أنهم منافقون مستورون بستر رقيق من التظاهر والحلف والملق والالتواء. وهم يخشون في كل لحظة أن يكون أمرهم قد افتضح وسترهم قد انكشف".^١

تبعث آيات القرآن الكريم في حديثها عن منكري دعوة حاتم النبیین سيدنا محمد ﷺ، ودرست ما حوته تلك الآيات الكريمة من بلاغة ندرّ مثلها في لغة العرب، فبيّست تلك المواضع البلاغية في ثايا هذه الدراسة. وإذا كانت البلاغة هي : "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته" فإن مواضع البلاغة التي تضمنتها بعض آيات القرآن الكريم في مخاطبتها لمنكري الدعوة المحمدية تأرجحت بين الشدة واللين، والستر والكشف في مراعاة واضحة لمقتضى حال المخاطبين؛ حيث تباينت توجهات منكري الدعوة في المجتمع الجاهلي بين الشرك والكفر والتفاق، فجاء الخطابات القرآني متسقاً مع تلك التباينات، وهأنذا ألخص نتائج هذه الدراسة في النقاط الآتية:

✓ استعمل القرآن الكريم التشبيه وهو أحد فروع علم البيان؛ لبيان حال المنافقين في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾^٢ وهو تشبيه تمثيلي، حيث شبههم بحال من استوقد نارا لكنّها عندما اشتعلت وأضاءت لم ينتفع بضوئها فانطفأت.

✓ كما وظّف القرآن الكريم الجناس لطرق آذان السامعين كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^٣ والجناس أحد المحسنات اللفظية التي تلعب دوراً كبيراً في لفت الأنظار خاصة في بيئة عربية

١ في طلال القرآن: ٦ / ٣٥٧٤، ٣٥٧٥

٢ القرة: ١٧

٣ الأنعام: ٢٦

عرفت عنها الفصاحة والبيان، ففي الآية جناس ناقص وظَّف للتببيه والنظر في أحوال من ابتعدوا عن الدعوة المحمدية ونهوا غيرهم عن الإيمان واتباع الرسل، أي: كفروا وصدوا غيرهم عن سبيل الله.

✓ وضع الظاهر موضع المضمَر، ويُعدُّ أحد أوجه استعمال هذا النوع من الأساليب هو التأكيد على رسوخ الذين كفروا في الظلم والجحود من خلال قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيِّنَاتٍ اللَّهُ يَجْعَلُوهَا^١﴾

✓ كذلك من الأساليب البلاغية التي أكَّدت الدراسة على توظيف القرآن الكريم لها في البيان: التشبيه التمثيلي في موضع آخر وهو: عدم انتفاع الكافرين بكل أعمال البر التي يقومون بها؛ لأنها تقوم على أساس غير سليم وهو فساد في العقيدة، وسبيل غير مستقيم؛ حيث إنها ليست حاصلة لوجه الله عز وجل إذ انتفى الإيمان أو مع الإيمان حدث إشراك؛ فجاء القرآن الكريم بتشبيه تمثيلي في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ^٢﴾، فالمتشبه: الذين كفروا وأعمالهم، والمتشبه به: الرماد، ووجه الشبه الريح العاصف الذي يفرِّق الرماد والكفر الذي يحبط الأعمال ويجعلها كأن لم تكن.

✓ كذلك من الأساليب البلاغية التي وظفها القرآن الكريم في بيان منكري الدعوة: المجاز المرسل، وذلك في كثير من المواضع، منها على سبيل المثال: قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ^٣﴾ فالملقود الأنامل

١ الأعمام ٣٣

٢ إبراهيم: ١٨

٣ النقرة: ١٩

لكن جاء التعبير بالأصابع كلها وهو ما يسمى بإطلاق الكل وإرادة الجزء، وهو مشهد يحمل في طياته وصفاً دقيقاً عند سماع الصواعق، وهي حالة مشبعة بالرعب والاضطراب والتيه والضلال.

هذه بعض النماذج التي فصلت فيها القول تفصيلاً في هذه الدراسة، وأكدت فيها بالشرح والتحليل والأمثلة على كيفية توظيف القرآن الكريم لكثير من الأساليب البلاغية في حديثه عن مكري الدعوة، كما أن هناك كثيراً من الفروق الأسلوبية فيما يتعلق بالمشركين والكافرين والمناقضين تضمنتها هذه الدراسة، إلا أنني استغفر الله من ادعاء الكمال، وهذا جهدي المتواضع، وأسأل الله التوفيق والسداد والقبول والنجاح.

والحمد لله رب العالمين

قال الحزني صاحب الشافعي^١:

"لو عرض كتاب سبعين مرة لوجدنا فيه خطأ، وأبى الله عز وجل أن يكون كتاب صحيح غير كتابه".

١ هو أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المري، من أهل مصر، كان عالماً قوي الحجة، عتهداً راهداً، وهو إمام الشافعيين، توفي عام ٢٦٤هـ (تُرجمته في وفيات الأعيان" لابن حلكان)



الفهارس الفنيّة

- ❖ فهرس الآيات المدروسة
- ❖ فهرس الأحاديث الشريفة
- ❖ فهرس المصادر والمراجع
- ❖ فهرس المحتويات



فهرس الآيات المدروسة

الرقم	الآيات	رقم الآية	الصفحة
البقرة			
١	﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْمُدَىٰ قَمَا رَحِمْتَ﴾	١٦-١٨	٢٣٩
٢	﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أُمَاقٍ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُونَ...﴾	٧٩	٢١١
٣	﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ...﴾	٨٠-٨١	٢١٧
٤	﴿وَلَمَّا خَاءَ هُمْ كِتَابَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ...﴾	٨٩-٩٠	١٦٠
٥	﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْحَبِيبِ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾	٩٧-٩٨	١٩٦
٦	﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْفِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ...﴾	١٧١	١٠
٧	﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾	١٧٤-١٧٦	٢٢٢
٨	﴿فَرِحَ الْإِنْسَانُ مِنْ يَعْجَلَكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ...﴾	٢٠٤-٢٠٥	٢٧٠
٩	﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾	٢١٢	٥٧
آل عمران			
١٠	﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ...﴾	٧٢-٧٤	١٧٥
١١	﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ...﴾	٧٨	١٦٧
١٢	﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ...﴾	٨٦-٨٨	١٨٧
١٣	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُعْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا...﴾	١١٦-١١٧	٢٠٥
النساء			
١٤	﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ...﴾	٧٦	٧٤
١٥	﴿إِنَّ الْمُسَافِقِينَ فِي الذِّكْرِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾	١٤٥	٣١٢
المائدة			
١٦	﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَنَاءُ اللَّهِ وَاجِبَاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ...﴾	١٨	١٥٦
١٧	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ...﴾	٥٧-٥٩	١٧٩
١٨	﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَعْلُومَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا...﴾	٦٤	١٩٢
الأنعام			
١٩	﴿وَهُمْ يَمْهَرُونَ عَنْهُ وَيَتَأَوَّنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾	٢٦	٧٢
٢٠	﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَخْبَيْنَاهُ وَخَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّارِ...﴾	١٢٢	٣٦

الرقم	الآيات	رقم الآية	الصفحة
٢١	﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ...﴾	١٢٥	١٠٢
الأعراف			
٢٢	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ...﴾	٤٠-٤١	١٣٧
الأنفال			
٢٣	﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ...﴾	٥٠-٥١	١٢٦
٢٤	﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾	٥٦-٥٥	١٧١
التوبة			
٢٥	﴿تَوَّابَةً مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢٥﴾ فَسَبِّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ...﴾	٢-١	١٠٨
٢٦	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ تَعَدَّ عَلَيْهِمْ...﴾	٢٨	١١٠
٢٧	﴿قُلْ أَطِيعُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يَقْبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ...﴾	٥٣-٥٥	٢٨٧
٢٨	﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ...﴾	٧٩	٢٦٦
يونس			
٢٩	﴿وَإِذَا أَدْفَأْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَشْهُمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ...﴾	٢١	٥٩
٣٠	﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا طَمَإً إِنَّ الطَّلَّ لَا يُغِي مِنَ الْحَرِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾	٣٦	٢٥
إبراهيم			
٣١	﴿مِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ...﴾	١٨	١٣٤
٣٢	﴿يَوْمَ تُدْخِلُ الْأَرْضُ عَذَابَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَرَزَوُا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ...﴾	١٨-٥١	١٤١
الحج			
٣٣	﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾	١٠٤	١٠٦
٣٤	﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْذَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ...﴾	١٠٦-١٠٩	٩٠
٣٥	﴿وَوَصَّيْتُ اللَّهَ مَثَلًا قَرِيبَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ...﴾	١١٢-١١٣	١١٣

الرقم	الآيات	رقم الآية	الصفحة
الكهف			
٣٦	﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قُلِّمَتْ يَدَاهُ...﴾	٥٧	٩٠
الأنبياء			
٣٧	﴿فَمِ اتَّخَذُوا مِنْ قُوَّةِ آلِهَةٍ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعْنَى وَذِكْرٌ...﴾	٢٤	١٧
الحج			
٣٨	﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُخَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ...﴾	٤-٣	٦٧
٣٩	﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ اللَّهُ عَلَى خُرُوفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ...﴾	١١	٢٤٧
المؤمنون			
٤٠	﴿حَتَّىٰ إِذَا خَافُوا تُخَوِّتُ قَالَ رَبِّ الرَّحْمَنُ ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا...﴾﴾	٩٩-١٠٠	١٢٤
الفرقان			
٤١	﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ...﴾	٧-٨	٤٧
٤٢	﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ خُفَّةً وَاجِدَةً...﴾	٣٢	٥٠
المل			
٤٣	﴿إِنَّ الْدِّينَ لَا يُؤْمُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا هُمْ أََعْمَأُتُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾	٤	٨٦
القصص			
٤٤	﴿وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ تَخْطُفُ مِنْ أَرْضِنَا...﴾	٥٧	١١٢
لقمان			
٤٥	﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَوُؤْلَاقًا لِّيُصَلِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾	٧-٨	٦٢
٤٦	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تِلْكَ نَتَشِيعُ مَا وَخَدْنَا عَلَىٰ آبَاءِنَا...﴾	٢١	٧٠
الأحزاب			
٤٧	﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ...﴾	٢٦-٢٧	٢٠١
الصف			
٤٨	﴿أَدْلِكَ خَيْرٌ مُرَّلاً أَمْ شَجَرَةُ الرُّقْمِ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا قُتْنًا﴾﴾	٧٠-٦٢	١٤٥

الرقم	الآيات	رقم الآية	الصفحة
	لِلطَّالِبِينَ...		
ص			
٤٩	﴿وَعَجُّوا أَنْ خَافَهُمْ مُنِيرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ...﴾	٥-٦-٧	٤٢
٥٠	﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا الذِّكْرَ مِنْ نَبِيٍّ نَلْهُمُ فِي سَلَكِ مِنْ ذِكْرِي نَلْ لَنَا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾	٨	٢١
الزمر			
٥١	﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَخِدَهُ اسْتَفْزَزَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ...﴾	٤٥	٢٩
الرحرف			
٥٢	﴿وَمَنْ يَغْتَسِ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ...﴾	٣٦-٣٧	٨٣
الجمانية			
٥٣	﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا مَمُوتٌ وَنَحْنَا وَمَا يُهْلِكُنَا...﴾	٢٥-٢٤	٥٣
محمد			
٥٤	﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى...﴾	٢٥-٢٨	٢٩٢
٥٥	﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَصْرُفُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ ﴿٥٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ...﴾	٢٧-٢٨	٢٩٩
الفتح			
٥٦	﴿سَبِّحْ لَكَ الْمَخْلُقُونَ مِنَ الْأَغْرَابِ سَعَلَكُنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا...﴾	١٢	٢٥١
القمر			
٥٧	﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ ﴿٥٧﴾ حَشًّا أَنْصَارَهُمْ...﴾	٦-٨	١٢٩
الحديد			
٥٨	﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ...﴾	١٣-١٤	٣٠٥
المافقون			
٥٩	﴿وَإِذَا خَافَ الْمُنَافِقُونَ فَلَوْ لَا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ...﴾	١-٢	٢٦٠
٦٠	﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَبَغَّضُوا أَجْسَامَهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمِعُ لِقَوْلِهِمْ...﴾	٤	٣١٩

الرقم	الآيات	رقم الآية	الصفحة
٦١	﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً...﴾	٥-٦	٣٠٢
الحاقة			
٦٢	﴿خُلُوهُ فَعَلُوهُ * ثُمَّ الْحَجِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ...﴾	٣٠-٣٢	١٣٦
المطففين			
٦٣	﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾	١٤	٩٣

فهرس الأحاديث الشريف

الرقم	الأحاديث الشريفه	رقم الصفحة
	{ {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ فَيَبْسُطُهَا...} }	١٤٢
	{ {لو أن قِطْرًا من الرِّقْمِ قُطِرَتْ في بحار الدنيا...} }	١٤٧
	{ {وددت أني رأيتك في صورتك قال: وتجب ذلك قال: نعم...} }	١٩٧
	{ {من سنّ سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها...} }	٢١٦

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم
○ الآلوسي، شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني (المتوفى: ١٢٧٠هـ)
٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الكتب العلمية - بيروت، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ١٤١٥ هـ
○ ابن الأثير، ضياء الدين
٣. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: قدمه وعلق عليه: الدكتور أحمد الحوفي و الدكتور بدوي طبانة: دار نخضة مصر للطبع والنشر، الفجالة - القاهرة: ب-ت. ط ٥، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م
○ ابن الأثير عز الدين، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، (المتوفى: ٦٣٠هـ)
٤. أسد الغابة في معرفة الصحابة، المحقق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
○ ابن جزري الكلبي الغرناطي، أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله (المتوفى: ٧٤١هـ)
٥. التسهيل لعلوم التنزيل، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، ط ١، ١٤١٦ هـ.
- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: ٥٩٧هـ)
٦. زاد المسير في علم التفسير، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت ط ١، ١٤٢٢ هـ.
○ ابن رشيقي القيرواني الأزدي، أبو علي الحسن (المتوفى: ٤٦٣ هـ)

٧. العمدة في محاسن الشعر وآدابه: المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد: الناشر: دار الجيل: ط٥: ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م
- ابن المكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (المتوفى: ٢٤٤ هـ)
٨. إصلاح للنطق، المحقق: محمد مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م.
- ابن عاشور التونسي، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر (المتوفى: ١٣٩٣ هـ)
٩. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤ هـ.
- ابن عجيبة الحسني الأنحري الفاسي الصوفي، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي (المتوفى: ١٢٢٤ هـ)
١٠. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة، ١٤١٩ هـ
- ابن عطية الأندلسي المحاربي، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام (المتوفى: ٥٤٢ هـ)
١١. المحرر الوحيز في تفسير الكتاب العزيز، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢٢ هـ.
- ابن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين أحمد (المتوفى: ٣٩٥ هـ)
١٢. معجم المقاييس في اللغة، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، دارالفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
١٣. معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- ابن قتيبة الديوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم (المتوفى: ٢٧٦ هـ)
١٤. تأويل مشكل القرآن، المحقق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (المتوفى: ٧٥١ هـ)
١٥. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م

١٦. أمثال القرآن، دراسة وتحقيق: ناصر بن سعد الرشيد. مطابع الصفا، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، الثانية، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م
١٧. التفسير القيم لأبي القيم، جمع وترتيب محمد أويس الندوي، المكتبة الشاملة
- ابن منظور الأنصاري الإفريقي، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين (المتوفى: ٧١١هـ)
١٨. لسان العرب: الناشر: دار صادر - بيروت، ط ٣، ١٤١٤ هـ.
- أبو الأصبهاني الشيخ، أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري
١٩. العظمة، تحقيق رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، دار العاصمة - الرياض، ط أولى، ١٤٠٨
- أبو الحسن، علي بن إسماعيل الأشعري (ت: ٣٢٤هـ)
٢٠. مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: هلموت ريتز، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ٣
- أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)
٢١. البحر المحيط في التفسير، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، ١٤٢٠ هـ
٢٢. تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، المحقق: سمير المجذوب، الناشر: المكتب الإسلامي، ط ١، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م
- أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)
٢٣. تفسير أبي السعود - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري (المتوفى: ٢٠٩هـ)
٢٤. محاز القرآن، المحقق: محمد فواد سزكين، الناشر: مكتبة الخانجي - القاهرة، ١٣٨١ هـ.
- أبو الفتح العباسي، عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد (المتوفى: ٩٦٣هـ)

٢٥. معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب بيروت.

○ الأصفهاني الراغب، أبو القاسم الحسين بن محمد (المتوفى: ٥٠٢هـ)

٢٦. المفردات في غريب القرآن، ضبط: هيثم طعيمة، دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان، ط١، ١٤٤٨هـ - ٢٠٠٨م.

○ أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي (المتوفى: ١٣٨٤هـ)

٢٧. من بلاغة القرآن الكريم، نخضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة - مصر ٢٠٠٥م

○ أحمد مطلوب، الدكتور

٢٨. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، الدار العربية للموسوعات بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

○ البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)

٢٩. الجامع الصحيح، دار الشعب - القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

○ بسيوني عبدالفتاح، دكتور

٣٠. من بلاغة النظم القرآني، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

٣١. بلاغة تطبيقية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

٣٢. علم المعاني، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٤، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

٣٣. علم البديع، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٤، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

○ البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر (المتوفى: ٨٨٥هـ)

٣٤. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (ب-ت)

○ البيانوني، محمد أبو الفتح

٣٥. المدخل إلى علم الدعوة، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط٣، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

○ اليبضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (المتوفى: ٦٨٥هـ)

٣٦. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ١ - ١٤١٨ هـ.

○ البيهقي، الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين

٣٧. البعث والنشور للبيهقي، تحقيق: الشيخ عامر أحمد حيدر، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت، ط أولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، ٣٣٦/١، ح ٦٠٩

○ الترمذي، أبو عيسى، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك (المتوفى: ٢٧٩ هـ)

٣٨. سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر والآخرين، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ط ٢، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

○ الثبتي، عابد بن عبد الله

٣٩. فقه الدعوة عند شيخ الإسلام ابن تيمية، دار ابن الجوزي (ب-ت)

○ الثعالبي أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف (المتوفى: ٨٧٥ هـ)

٤٠. الجواهر الحسان في تفسير القرآن - تفسير الثعالبي، المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٨ هـ.

○ جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري

٤١. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

○ الجرجاني، أبوبكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن مجمل (المتوفى ٤٧١ هـ أو ٤٧٤ هـ)

٤٢. أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق: محمد رشيد رضا، ١٣٩٨ هـ، دار المعرفة، بيروت.

٤٣. دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه أبو فهر محمد محمود شاكر، شركة القدس للنشر والتوزيع، مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة، ط ١٤١٣، ٣ هـ - ١٩٩٢ م.

○ الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف (المتوفى: ٨١٦ هـ)

٤٤. كتاب التعريفات، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

○ حسن عز الدين بن حسين بن عبد الفتاح أحمد الجمل

٤٥. مخطوطة الجمل - معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط١، ٢٠٠٣ - ٢٠٠٨ م.

○ حسن المصطفوي

٤٦. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، الناشر: غير مكتوب، ط١، طهران - ١٣٩٣ هـ،

○ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق

٤٧. مقالات الإسلاميين، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد: ٢٧١/١

○ حسين بن محمد الدامغاني

٤٨. قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، دارالعلم للملأين - بيروت، ط٢، ١٩٧٧.

○ حكمت الحريري، دكتور

٤٩. الإعجاز البياني في القرآن الكريم، رئيس قسم القرآن وعلومه، كلية التربية - جامعة إرب، اليمن

○ الحلبي، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف

بالسمين (المتوفى: ٧٥٦هـ)

٥٠. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

○ الحلبي، علي بن برهان الدين (المتوفى: ١٠٤٤هـ)

٥١. السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، دار المعرفة بيروت، ١٤٠٠هـ

○ الخفاجي الحلبي، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان (المتوفى: ٤٦٦هـ)

٥٢. سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

○ الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر، القاضي (المتوفى: ١٠٦٩هـ)

٥٣. حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، للإمام

أبي سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد (المتوفى: ٦٩١هـ)، ضبطه وخرج آياته

آياته وأحاديثه: الشيخ عبدالرزاق المهدي، دارالكتب العلمية بيروت - لبنان، ط ١،
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

○ الدّهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد

٥٤. سير أعلام النبلاء، المحقق: مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة
○ الرازي، فخر الدين، خطيب الري، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن
الحسين التيمي (المتوفى: ٦٠٦هـ)

٥٥. التفسير الكبير، دار أحياء التراث العربي - بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ.

٥٦. مفاتيح الغيب المعروف بـ التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ٣ - ١٤٢٠هـ

○ الرافعي، مصطفى صادق

٥٧. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دارالكتاب العربي، بيروت، لبنان (ب-ت)

○ رشيد بن علي رضا، محمد بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا
علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ)

٥٨. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

○ الزبيدي مرتضى، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، (المتوفى: ١٢٠٥هـ)

٥٩. تاج العروس من حواهر القاموس، المحقق: مجموعة من المحققين الناشر: دار الهداية. (ب-ت).

○ الزجاج، أبو إسحاق، إبراهيم بن السري بن سهل، (المتوفى: ٣١١هـ)

٦٠. معاني القرآن وإعرابه، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب - بيروت،
ط: ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

○ الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بشار (المتوفى: ٧٩٤هـ)

٦١. البرهان في علوم القرآن، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧
م، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

○ الزركلي الدمشقي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس (المتوفى: ١٣٩٦هـ)

٦٢. الأعلام، دار العلم للملايين، ط ١٥ - أيار / مايو ٢٠٠٢م.

○ الزمخشري، جار الله، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (المتوفى: ٥٣٨هـ)،

٦٣. أساس البلاغة، دار أحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٦٤. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ.

○ السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (المتوفى: ١٣٧٦هـ)

٦٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحي،

الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

○ السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي

(المتوفى: ٦٢٦هـ)

٦٦. مفتاح العلوم، ضطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية،

بيروت - لبنان، ط ٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

○ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (المتوفى: ٩١١هـ)

٦٧. الدر المنثور في التفسير بالمأثور: دار الفكر - بيروت.

○ الشعراوي، محمد متولي (المتوفى: ١٤١٨هـ)

٦٨. تفسير الشعراوي - الخواطر: مطابع أحبار اليوم: ١٩٩٧م. محمود توفيق محمد سعد،

الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن.

○ الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني (المتوفى: ١٣٩٣هـ)

٦٩. أصواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان، عام النشر: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

○ الشوكاني اليمني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله (المتوفى: ١٢٥٠هـ)

٧٠. فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط: ١٤١٤هـ.

○ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي

٧١. العجائب في بيان الأسباب، الناشر: دار ابن الجوزي - الدمام، الطبعة الأولى، ١٩٩٧،

تحقيق: عبد الحكيم محمد الأنيس.

○ شهاب الدين، ابن الهائم، أحمد بن محمد بن عماد الدين بن علي، أبو العباس (المتوفى: ٨١٥هـ)

٧٢. التبيان في تفسير عريب القرآن، المحقق: د ضاحي عبد الباقي محمد، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط ١، ١٤٢٣ هـ.

○ الصابوني، محمد علي

٧٣. صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة، ط ١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

○ الصعيدى، عبد المتعال

٧٤. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة ومطبعة: محمد علي وأولاده

○ الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر (المتوفى: ٣١٠هـ)

٧٥. جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

○ طنطاوي، محمد سيد

٧٦. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، الناشر: دار نخضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفحالة - القاهرة، الطبعة: الأولى، يناير ١٩٩٧

○ عبد الله عبد الغني سرحان، الدكتور

٧٧. من الأسرار البلاعية في الفرائد القرآنية، مطبعة التركي، ططا، ط ١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

○ عبد الرحمن بن جميل بن عبد الرحمن قصاص، الدكتور

٧٨. التبيان لكل شيء من حلال القرآن، أستاذ مساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية، كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة أم القرى - مكة المكرمة، ص. ب: ١٣٠٩٠ مكة - فاكس: ٥٥٨٣٨٨٨

○ عبد العزيز عرفة، الدكتور

٧٩. من بلاغة النظم العربي، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

○ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، الدكتور

٨٠. خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، (رسالة دكتوراه)، الناشر: مكتبة وهبة، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

٨١. البديع من المعاني والألفاظ، دار ومدان للطباعة والنشر، ط ١، ص ١٢

○ عبد الكريم زيدان، دكتور

٨٢. أصول الدعوة، مؤسسة الرسالة - بيروت، مكتبة البشائر - عمان الأردن، ط ٤، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.

○ عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠ هـ)

٨٣. التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي - القاهرة.

○ عبد الفتاح محمد محمد سلامة

٨٤. أضواء على القرآن الكريم (بلاغته وإعجازه)، الناشر: الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السنة الثانية عشر - العدد السادس والأربعون - ربيع الآخر - جمادى الأولى - جمادى الثانية، ١٤٠٠ هـ.

○ العثيمين، محمد بن صالح بن محمد (المتوفى: ١٤٢١ هـ)

٨٥. تفسير العلامة محمد العثيمين، مصدر الكتاب: موقع العلامة العثيمين (المكتبة الشاملة)

○ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي

الدمشقي، أبو محمد سلطان العلماء (المتوفى: ٦٦٠ هـ)

٨٦. تفسير القرآن (وهو اختصار لتفسير الماوردي)، المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم - بيروت، ط ١، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م.

○ العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران

(المتوفى: نحو ٣٩٥ هـ)

٨٧. الصاعقتين، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية - بيروت، ١٤١٩ هـ.

٨٨. الفروق اللغوية، تحقيق: عماد ركي البارودي، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، ١٤١٩هـ.

○ علي عشري زايد، الدكتور

٨٩. البلاغة العربية تاريخها - مصادرها ومناهجها، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٢

○ غالب بن محمد أبو القاسم الحامضي، الدكتور

٩٠. أسلوب الالتفات وأقسامه في القرآن الكريم، أستاذ مشارك بقسم الكتاب والسنة، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى. (ب ط)

○ فضل حسن عباس، الدكتور

٩١. إعجاز القرآن الكريم، ربيع الأول ١٤١٢هـ، ص ٤٢، ٤٦، ٥٢ (بيانات مفقودة)

○ الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (المتوفى: ٨١٧هـ)

٩٢. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المحقق: محمد علي السجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦ م

○ القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (المتوفى: ١٣٣٢هـ)

٩٣. تفسير القاسمي محاسن التأويل، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة: الأولى - ١٤١٨هـ.

○ القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين (المتوفى: ٦٧١هـ)

٩٤. الجامع لأحكام القرآن، المحقق: هشام سمير البحاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣ م.

○ القزويني محمد بن عبد الرحمن بن عمر جلال الدين الخطيب (المتوفى: ٧٣٩هـ)

٩٥. الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبدیع مختصر تلخيص المفتاح، (تحقيق: مجدي فتحي السيد) المكتبة التوفيقية القاهرة - مصر

○ قطب إبراهيم الشيخ الشهيد، السيد

٩٦. في ظلال القرآن: دار الشروق. القاهرة، (ب-ط)(ب-ت).

○ الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي
(المتوفى: ٤٥٠هـ)

٩٧. تفسير الماوردي - النكت والعيون، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم،
دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان

○ مجمع اللغة العربية

٩٨. المعجم الوسيط: الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، الناشر: مكتبة المرتضوي،
المطبعة: ناقرى، ط٢، ١٤٢٧هـ.

○ مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

٩٩. التفسير الوسيط للقرآن الكريم: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية.

○ محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهري الشافعي، الشيخ العلامة

١٠٠. تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد
علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

○ محمد بن عمر نووي الجاوي البنتني إقليما، التناري بلدا (المتوفى: ١٣١٦هـ)

١٠١. مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، المحقق: محمد أمين الصناوي، الناشر: دار
الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٧هـ. مصدر الكتاب: موقع
الوراق، دار النشر: دار الفكر - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

○ محمد محمد أبو موسى، دكتور

١٠٢. البلاغة القرآنية في تفسير الرمنشري وأثرها في الدراسات البلاغية، دار التضامن،
ط٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٠٣. التصوير البياني (دراسة تحليلية لمسائل البيان) منشورات جامعة قاريونس، ط١،
١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

١٠٤. خصائص التراكيب، مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية، عابدين، القاهرة، ط٤،
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

○ محمد فؤاد عبد الباقي

١٠٥. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، آوند دانش للطباعة والنشر والتوزيع، طهران

○ محمود السيد شيخون، دكتور

١٠٦. من أسرار البلاغة في القرآن، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

○ محيي الدين الدرويش

١٠٧. إعراب القرآن الكريم وبيانه، دار الإرشاد للشؤون الجامعية، حمص - سورة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

○ المراغي، أحمد بن مصطفى (المتوفى: ١٣٧١هـ)

١٠٨. تفسير المراغي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده

بمصر، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.

○ ناصر بن سعد الرشيد

١٠٩. أمثال القرآن، مطابع الصفا، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط ٢،

١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م

○ النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي (المتوفى: ٨٥٠هـ)

١١٠. غرائب القرآن و رغائب الفرقان، المحقق: الشيخ ركريا عميرات، الناشر: دار الكتب

العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٦هـ.

○ الواحدي النيسابوري، الشافعي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي

(المتوفى: ٤٦٨هـ)

١١١. التفسير البسيط، المحقق: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن

سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، الناشر: عمادة البحث

العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط ١، ١٤٣٠هـ

○ وهبة بن مصطفى الزحيلي، الدكتور

١١٢. التفسير المبير في العقيدة والشرعة والمنهج، دار الفكر المعاصر - دمشق، ط ٢، ١٤١٨هـ

○ الهاشمي، السيد أحمد

١١٣. جواهر البلاغة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

○ ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله

١١٤. معجم البلدان، دار الفكر - بيروت.

مقالات من الشبكة

١١٥. <http://www.dhifaaf.com/vb/showthread.php?20589>

١١٦. دكتورة مسرت جمال الأستاذة المشاركة قسم اللغة العربية، جامعة بشاور: "بلاغة أسلوب الفصل والوصل في القرآن" (مقال) مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دارالعلوم ديوبند، جمادى الثانية ١٤٣١ هـ مايو- يونيو ٢٠١٠ م

١١٧. الدلالة البلاغية لأدوات الشرط في القرآن، اسم الكاتب غير موجود، طبع في ٧ يوليو ٢٠١٤ م في مجلة البيان،

١١٨. <https://www.albayan.ae/supplements/ramadan/se>

1,2159.86-07-07-2014crets/

١١٩. في ١٤ ذو الحجة ١٤٤٠ هـ - ١٥ أغسطس ٢٠١٩ م، ٦: ١٥

فهرس المحتويات

الإهداء	ت
كلمة الشكر والتقدير	ث
المقدمة	أ
أهمية الموضوع:	ب
الدراسات السابقة:	•
أهم أسباب اختيار الموضوع:	و
أسئلة البحث:	و
الصعوبات والعقبات:	و
منهج البحث وحدوده:	ز
خطة البحث:	ط
التمهيد:	١
فكرة بلاغة النظم القرآني	١
الباب الأول:	٦
من بلاغة النظم في حديث القرآن عن إنكار الكفار والمشركين وجرائمهم	٦
الفصل الأول:	٧
من بلاغة النظم في حديث القرآن عن إنكار الكفار والمشركين	٧
المبحث الأول:	٨
من بلاغة النظم القرآني في بيان	٨
أحوال الكفار والمشركين الفكرية المتعلقة بإنكارهم الدعوة	٨
المدخل:	٩
أولاً: فقدان الوعي والعقل	٩
ثانياً: عدم معرفة الحق	١٧
ثالثاً: الشك والريبة	٢٠

٢٥	رابعاً: اتباع الظن
٢٩	خامساً: النفور والكراهية
٣٢	سادساً: الخوف على المعاش
٣٥	سابعاً: التخبط في الظلام
٤٠	المبحث الثاني:
٤٠	من بلاغة النظم القرآني في بيان
٤٠	أحوال الكفار والمشركين العملية المتعلقة بإنكارهم الدعوة
٤١	المدخل:
٤١	أ. الإعراض بالأقوال:
٤١	أولاً: إنكار التوحيد
٤٦	ثانياً: إنكار الرسالة
٤٩	ثالثاً: إنكار الوحي
٥٣	رابعاً: إنكار القيامة
٥٦	ب. الإعراض بالجوارح:
٥٧	أولاً: الاستهزاء والسخرية
٥٨	ثانياً: المكر والكيد
٦٢	ثالثاً: إضلال الناس بغير علم
٦٦	رابعاً: الجحد والمجادلة
٦٩	خامساً: التقليد الأعمى لأبائهم
٧٢	سادساً: الصّدّ عن سبيل الله
٧٤	سابعاً: القتال في سبيل الطاغوت
٧٦	الخلاصة:
٧٨	الفصل الثاني:
٧٨	من بلاغة النظم في حديث القرآن عن جزاء الكفار والمشركين
٧٩	الفاصلة:

المبحث الأول:	٨٠
من بلاغة النظم القرآني في بيان جزاء الكفار والمشركين في الدنيا	٨٠
المدخل:	٨١
الجزء الوجداني:	٨١
أولاً: تسليط الشيطان	٨٣
ثانياً: تزيين سوء الأعمال	٨٦
ثالثاً: كَنّ القلوب	٨٩
رابعاً: ران على القلوب	٩٢
خامساً: الختم والطبع على القلوب	٩٥
سادساً: ضيق الصدر	١٠١
سابعاً: الحرمان من الهدى	١٠٥
ثامناً: الحرمان من ولاية الله ورسوله والمؤمنين	١٠٦
تاسعاً: الحرمان من الدور القيادي في المجتمع	١٠٩
الجزء الجسماني:	١١٢
أولاً: الجوع:	١١٢
ثانياً: القتل والأسر	١١٧
المبحث الثاني:	١٢٢
من بلاغة النظم القرآني في بيان جزاء الكفار والمشركين في الآخرة	١٢٢
المدخل:	١٢٣
أولاً: من سكرات الموت إلى البعث	١٢٣
ثانياً: من البعث إلى الحشر	١٢٩
ثالثاً: من دخول النار إلى الخلود في النار	١٣٦
الخلاصة:	١٤٩
الباب الثاني	١٥٠
من بلاغة النظم في حديث القرآن عن إنكار أهل الكتاب وجزائهم	١٥٠

١٥١	فاتحة:
١٥٣	الفصل الأول:
١٥٣	من بلاغة النظم في حديث القرآن عن إنكار أهل الكتاب
١٥٤	المبحث الأول:
	من بلاغة النظم في حديث القرآن عن أحوال أهل الكتاب الفكرية المتعلقة بإنكارهم
١٥٤	الدعوة
١٥٥	المدخل:
١٥٦	أولاً: الأماشي الباطلة
١٥٩	ثانياً: الحسد والبغض
١٦٥	المبحث الثاني:
١٦٥	من بلاغة النظم القرآني في بيان أحوال أهل الكتاب العملية المتعلقة بإنكارهم الدعوة
١٦٦	المدخل:
١٦٦	١- الإصرار على إنكار الحق بعد المعرفة
١٦٧	أولاً: التحريف وكتمان الحق
١٧٠	ثانياً: نقض الميثاق
١٧٤	٢- الصد عن سبيل الله:
١٧٥	أولاً: المكر والكيد
١٧٩	ثانياً: اتخاذ دين الله هزواً ولعباً
١٨٣	الخلاصة:
١٨٤	الفصل الثاني:
١٨٤	من بلاغة النظم في حديث القرآن عن جزاء أهل الكتاب
١٨٥	فاتحة:
١٨٦	المبحث الأول:
١٨٦	من بلاغة النظم القرآني في بيان جزاء أهل الكتاب في الدنيا
١٨٧	المدخل:

أولاً: الحرمان من الرشد والهدى	١٨٧
ثانياً: اللعنة والعداوة فيما بينهم	١٩٢
ثالثاً: عداوة من الله	١٩٦
رابعاً: العذاب بأيدي المسلمين	٢٠٠
المبحث الثاني:	٢٠٤
من بلاغة النظم القرآني في بيان جزاء أهل الكتاب في الآخرة	٢٠٤
المدخل:	٢٠٥
أولاً: حبط الأعمال	٢٠٥
ثانياً: الويل	٢١١
ثالثاً: الخلود في النار	٢١٧
رابعاً: الإهانة والعذاب الأليم	٢٢١
الخلاصة:	٢٣٣
الباب الثالث:	٢٣٤
من بلاغة النظم في حديث القرآن عن إنكار المنافقين وجزائهم	٢٣٤
فاتحة:	٢٣٥
الفصل الأول	٢٣٦
من بلاغة النظم في حديث القرآن عن إنكار المنافقين	٢٣٦
المبحث الأول:	٢٣٧
من بلاغة النظم القرآني في بيان أحوال المنافقين الفكرية المتعلقة بإنكارهم الدعوة	٢٣٧
المدخل:	٢٣٨
أولاً: عدم صلاحية التعقل والتدبر	٢٣٨
ثانياً: الريب والشك	٢٤٦
ثالثاً: حب النفس وكرهية الجهاد في سبيل الله ﷺ	٢٥٠
المبحث الثاني:	٢٥٨
من بلاغة النظم القرآني في بيان أحوال المنافقين العملية المتعلقة بإنكارهم الدعوة	٢٥٨

٢٥٩	المدخل:
٢٥٩	أولاً: الكذب والخداع
٢٦٥	ثانياً: الاستكبار والاستهزاء
٢٦٩	ثالثاً: المؤامرات المدبرة ضد المصالح الإسلامية
٢٧٥	الخلاصة:
٢٧٦	الفصل الثاني:
٢٧٦	من بلاغة النظم في حديث القرآن عن جزاء المنافقين
٢٧٧	فاتحة:
٢٧٨	المبحث الأول:
٢٧٨	من بلاغة النظم القرآني في بيان جزاء المنافقين في الدنيا
٢٧٩	المدخل:
٢٧٩	أولاً: الخوف والقلق الدائم من الفضيحة
٢٨٦	ثانياً: عدم قبول التصديق
٢٩٢	ثالثاً: الارتداد وتغلب الذلة والهوان
٢٩٧	المبحث الثاني:
٢٩٧	من بلاغة النظم القرآني في بيان جزاء المنافقين في الآخرة
٢٩٨	المدخل:
٢٩٩	أولاً: الإهانة عند الموت وحبط الأعمال
٣٠١	ثانياً: الحرمان من شفاعة سيدنا محمد ﷺ
٣٠٥	ثالثاً: الحرمان من النور في الآخرة
٣١١	رابعاً: اللعنة والخلود المهين في النار
٣١٤	الخلاصة:
٣١٦	الخاتمة
٣١٦	أولاً: الكفار والمشركين:
٣١٧	ثانياً: أهل الكتاب:

٣١٨.....	ثالثاً: المنافقون:
٣٢٣.....	الفهارس الفنية
٣٢٤.....	فهرس الآيات المدروسة.
٣٢٨.....	فهرس الأحاديث الشريف
٣٢٩.....	المصادر والمراجع